خولة القزويني

مرايا الحياة



مؤسسة البلاغ

المكتبة

مرايا الحياة

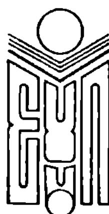
مرايا الحياة

خولة القزويني

مؤسسة البلاغ

الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م



مؤسسة البلاغ
للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان - بيروت - بئر العبد - قرب مركز التعاون الإسلامي - بناية حطيط
هاتف : 009613514905 - تلفاكس : 009611553119
نتشرف بالتواصل معكم E-mail : Albalagh-est@hotmail.com

إهداء..

مع كُلّ نبضة في قلبي أصوغ اسمها

حروفاً من نور...

صديقتي الوفيّة ورفيقة الدّمع والفرح

سعاد..

خولة القزويني

الكويت ٢٠١٢

مقدّمـــة

حياتنا كتابٌ مفتوحٌ نوثق فيه يومياتنا، آراءنا، خلجاتنا، مبادئنا، مواقفنا.

فكلٌّ حادثة عشناها على أرض الواقع تختزل شخصياتنا بكل مكّوناتها الداخلية، ويوماً ما يُنشر هذا الكتاب بين يدي الله عز وجل لنحاسب على كل ما اقترفناه في الحياة الدنيا.

والأدباء يصيغون من هذه الحوادث قصصاً تتضمن عبراً وعظات لتكون المرايا التي تكشف للإنسان حقيقة نفسه.

خولة القزويني

الكويت / ٢٠١٢

أنا بانتظارك

همسة: لا نعرفُ قيمةَ النّعمةِ إلّا عندما نفقدُها.

صوّبها كطلق ناري في صميم قلبي:

((طالق... طالق... طالق))

أطرق القاضي ووجهه ينكمش مغموماً بينما أدار (عدنان) ظهره وهو ينتفض، مسح طرفه وهو يودّعني:

((أتمنى لكِ التوفيق.

لزمت الصمت وأنا مذهولة، فهل نلت مرادي الآن؟ سنتان من العذاب وأنا أكابد: قضايا، محاكم، صراخ، اتهامات، شدّ، جذب، وكأنما إعصار خطفني في لحظة ثم رماني على شاطئ مهجور، أفقت من شرودي وأنا مازلت واقفة أطيل النظر في المرئيات حولي وأسأل كمن استردّ الوعي بعد غياب:

((هل انتهى كل شيء؟.



اختفى عدنان وتلاشى ظلّه عن ناظري ووجدت نفسي أمشي ببطء وخذلان أسمع أصوات الناس تصدح في فضاء المبنى الشاهق والأبواب المغلقة على حكايات.

قطعت الطريق حتى سيارتي فركبتها وأنا مازلت ساهمة لا أدري كيف أفسّر مشاعري في هذه اللحظة، فقد كافحت حتى أتحرّر من عدنان، الرجل الذي لفظه قلبي منذ البدء، خضت تجربة الزواج لعلّي أهضمه وأستوعبه حتى التعوُّد، جاملته في الأوقات الحميمة وكأني أنوء بعبء إذ كنا ننغمر بعد كل لقاء في نوبة شك وكلانا صامت يبتلع داخله لغماً قد ينفجر فيعرّينا أمام نفسينا، وهمُّ الحبّ المتكلَّف والاحتيال المرهِق للنفس، عشت في رتابة وضجر وفكرت في مصارحته لأدينه، فكل الذرائع التي استجمعتها كي أنفصل عنه بدت مفتعلة رغم إحساسه ببرودي حينما يتمادى في ملاطفاته وهروبي النافر منه مدَّعية النعاس، يتجاهلني عن قصد، أنتهز الفرص العارضة لأحطّم جدار صمته، لأتغلغل إلى باطنه وأفجّر كبته، يتشرنق بغلاف صخري كي يداري مواجهتي، وفي هفوة من هفواته أعلنت رغبتي في الطلاق، يوم أن دخل البيت، هاجمته:.

ـ دائماً تنسى مطالبي وهذا دليل على أنك لا تحبني، فقبل أيام طلبت منك شراء الجريدة في طريق عودتك وادّعيت النسيان كما نسيت الآن شراء أقراص "البنادول".

ـ آسف جداً سأذهب إلى الصيدلية على الفور، المهم ألا تنزعجي.

ثرت دون سبب:

ـ لا تذهب ولا أريد منك أي شيء فليقتلني الصداع، ليتني أموت فقد سئمت حياتي!.

وانفجر على غير عادته:

ـ منذ مدّة وأنتِ تستفزّينني وأحاول قمع غضبي حتى لا نخسر بعضنا وأسوغ أخطاءك كي لا أجرحك، لكنك على ما يبدو متمرّسة في النكد.

ـ إذا كنت نكدية فيمكنك أن تتخلّص مني وترتاح.

تماسك بعض الشيء:

ـ سأصبر ريثما تعودي إلى رشدك.

ترك البيت فركنت إلى الوحدة أفكّر بحياتي التعسة ورجل لا أجد فيه ما يجذبني ويثير شعوري، فأنا أتجمّد معه وأنكمش وكل

مساماتي تنفر، تشمئزّ، مازال قلبي يتقلّب على جمر الذكرى، فمَن فقدته كان شمس حياتي وجنّة حبي وأحلامي، هام بي وهمت به لكن القدر خطفه مني بحادث سيارة فما عدت بعد رحيله إلا جسداً ميت الروح.

دفعتني أمي إلى هذه الزيجة كي أنساه وأبدّد حزني عليه لكني كنت مرهقة في خيالاتي وهي تخاتلني في منامي ويقظتي ولم أشأ أن أعذّب عدنانَ وأعذب نفسي، فزواجي هذا استشهاد قهريٌّ لا لذة فيه ولا ابتهاج فاضطررت إلى الدفع باتجاه الطلاق حتى نلت مرادي.

استقبلتني أمي بوجه مكفهرّ ولسان غاضب:

ـ يا خسارة.

ـ أرجوكِ ماما كفي عن ملامتي.

دخلت حجرتي وقد تكوّمت فيها بعض الصناديق وافترش جدرانها الغبار والنفايات.

صحت:

ـ ما هذا؟! هل تحوّلت حجرتي إلى مخزن؟.

ردّت أمي باقتضاب:

- إنها بضاعة لأخيكِ.

غضبت:

- ألم يجد لها مكاناً غير حجرتي؟.

- لم أكن أعلم بخيبتك.

- ماما.. أرجوكِ.

جاءت الخادمة لتساعدني على نقلها إلى مكان آخر وبعد تنظيف الحجرة وترتيبها أفرغت الحقيبة من الثياب ووضعتها في الخزانة، استلقيت على السرير بعد أن طلبت من الخادمة أن تصنع لي فنجان قهوة.

شابني نوع من الضيق، فالحجرة معتمة والسرير يميل إلى القدم، والستائر الشاحبة تبعث في قلبي الكآبة، ربما أحتاج إلى بعض التعديلات لتبدو أوسع وأجمل.

قضيت في هذا البيت أياماً صعبة، فأمي لم تعد كما عهدتها قبل زواجي حنونة طيبة، فعيناها تتراصّدانني كالمخبر السّريّ، وأخوتي يتربّصون بي كمذنبة وفرضوا عليّ نظاماً جائراً فساعات خروجي وعودتي إلى البيت محدودة ومتابعة أمي لتحركاتي تضمر الشكّ والريبة، وعندما أتضجّر تبرر بأنه نوع من الحرص، فشجاراتنا

اليومية كانت خبزي اليومي، وذات يوم تعطّلت سيارتي فاتصلت بأخي (معتز) ليأخذها إلى الكراج تململ مستثقلاً هذا العبء، وأنا قد سئمت سجن البيت وكدت أن أفقد عقلي وأجنّ، واجهت أمي:

- لا أدري لِمَ تحاربوني بهذه القسوة.

جرحتني في صميم كرامتي:

- لأن الطلاق عار على المطلّقة...

قاطعتها وأنا أغلي:

- وهل المطلقة سيئة السمعة؟!

وبأعصاب باردة علّلت:

- نحن مجتمع محافظ والطلاق أمر مستقبَح في عُرفنا.

هربت إلى حجرتي لائذة بحيطانها الصماء لعلها تحميني من سياط اللوم الجارحة، تذكرت عدنانَ وحنانه وطيبة قلبه والحياة المريحة في البيت الأنيق وحجرتي التي تطلّ على حديقة غنّاء، تحسّرت على ما فقدته من نعيم، فأهلي قد نبذوني تماماً واستنكروني كمتّهمة.

ذات مساء اتصلت بصديقتي الحميمة (هند) لأتنزّه معها، ارتديت ثيابي وتهندمت كعادتي، وما إن هممت بباب الدار لأفتحه

حتى استوقفني أخي الأكبر:

ـ أتخرجين بهذه الثياب؟.

بحلقت فيه وأنا أسخر:

ـ ربما نسيت أني ارتديتها لأكثر من مرة.

ـ إنها ضيقة جداً و...

استجمعت شجاعتي فنهرته:

ـ أرجوك ابعد عن طريقي، فلست بقاصر لتتحكّم بي

فتحت الباب بعنف وألقيت نفسي في سيارة هند:

ـ معذرة على التأخير.

سألتني:

ـ أيَّ مقهى تفضّلين؟.

ـ أن يطل على شاطئ البحر لأني في حاجة إلى أن أتنفس هواءً نقياً.

وتمشّينا على شاطئ البحر ثم عرّجنا على المقهى لنشرب الشاي، شعرت ببعض الراحة وأنا أسرّب الهمَّ من جنبات روحي المنقبضة، لكن هندَ بدت حذرة، لم تنفتح في الحديث معي، فلطالما

صارحتني بأسرارها الزوجية وهمومها الخاصة، وجدتها اليوم متحفّظة متردّدة تهرب من أسئلتي عن قصد، في الماضي كنا نتبادل الزيارات لكني ألفيتها الآن متباعدة، وفكّرت مسترجعةً مواقفها فأيقنت أن السبب طلاقي، فالمطلقة امرأة مرعبة تخطف الزوج من زوجته، فهل كانت أمي محقّة في ظنونها؟ نعم، حتى الرجال الذين احترموني وأنا زوجة يحومون حولي كالثعالب الماكرة يسيل لعابها كلما استفردوا بي وكأني الفريسة المشتهاة والنظرات المبحلقة في جرأة تتحفّز لقطف الثمرة المباحة.

قرفتهم واحتقرتهم واستكثرت عليهم حتى تحية الصباح، كان إحساسي بعدنان يفيض، فالإنسان يزهد ما يملك وعندما يفقده يشعر بقيمته، اتصلت به ذات صباح ولا أدري لِمَ فعلت ذلك وكان تلفونه مغلقاً وحينما سألت عنه في مركز عمله عرفت أنه سافر في إجازة طويلة.

ارتعبت، هل يعني هذا أنه تزوّج؟ أبهذه السرعة ينساني؟ قتلني الفضول ونهشتني الغيرة فأردت أن أعرف غاية سفره، ولكن كيف لي ذلك وبأية صفة أتحرّى عنه؟!، طلبت من زميلتي في المكتب (وسن) فهي تتفنّن في التمثيل في مثل هذه المواقف فاتصلت بمركز

عمله واستعلمت عنه باحتيال وعرفت أنه سافر مع والدته المسنّة للعلاج في لندن.

تحرّرت من قلقي فاسترخت أعصابي.

التفتت وسن إليّ قائلة:

ـ لقد فرّطتِ بعدنان يا فرح.

أطرقت في حزن:

ـ كنت حمقاء.

وماذا ستفعلين الآن؟

قطعت الحجرة وأنا أغمغم محتارة:

ـ لا أدري، فعودتي إليه إذلال خصوصاً أنه لم يحاول أن يتصل بي أو يستفقدني خلال هذه الفترة، فلربما قطع عليّ خط الرجعة.

ـ ألا يمكن لأخيك أن يبادر بموقف يحفظ ماء وجهك؟.

سخرت:

ـ أخي؟!!! إني فقدت الثقة بأهلي فقد خذلوني جميعهم وهذا ما جعلني أعيد النظر في قرار العودة إلى عدنان.

أنا أختنق يا وسن فقد قيّدوني بوثاق العُقَد الجاهلية ولجموني حتى كدت أن ألفظ أنفاسي.

كان قراري في العودة إلى عدنان قد اختمر في رأسي لكني الآن أبحث عن السيناريو المعقول دون أن أهدر كرامتي.

قد شعرت أني مشلولة، عاجزة، مهانة، حتى كان ذلك اليوم الذي دفعني إلى عدنان دون تفكير أو تردُّد.. فقد خرجت من مبنى الوزارة بعد انتهاء الدوام، ركبت سيارتي لأعود إلى البيت وعندما قطعت مسافة طويلة انتبهت إلى سيارة تلاحقني، أبطأت السرعة فتقدّم السائق إلى الأمام حتى أخذ يميني، انتفضت، إنه (محمود) زميلي في العمل، انعطفت ناحية حديقة صادفتني في طريقي فوقفت على الجانب المرصوف ووقف جانبي، فتحت النافذة وأنا أشتعل غيظاً:

- ألا تخجل من نفسك؟

ابتسم بدم بارد:

- قصدي شريف.

- الشريف لا يلاحق الناس في الشوارع.

أعرض عليكِ الزواج.

استنكرت:

- في الشارع؟!

إذاً أحدّثك غداً على انفراد.

وغاب عن ناظري فتركني مضطربة، كم هو مهين أن يتجرأ عليَّ بوقاحة واستخفاف، هل رخصت قيمتي ليطلبني رجلٌ متزوج وأب لدستة أبناء بهذا السخف؟ استبدّ بي حزن ومرارة، لازمت حجرتي طوال اليوم فمزاجي متعكّر وروحي منقبضة.

جاءني محمود في اليوم التالي، وبكل صلافة حدّثني عن نفسه ومشاكله مع زوجته ثم عرض عليّ الزواج العرفي، حدجت به غاضبة وتمنيت لو أفترسه بمخالبي وأصرخ، لكني تداركت نفسي كي لا أفتضح أمام الموظفين، طردته وأنا أشير إلى الباب:

ـ أخرج من فضلك.

لم أعد أقوى على حمل نفسي، استأذنت وخرجت إلى الشارع أذرف دموع الحسرة والندامة، فقد نكأ جرحي رجلاً وضيعاً أهانني حتى الإذلال.. آن الآوان كي أحطّم صنم الوهم وأتحرّر من سجن الحاضر وقيد الماضي.. اتصلت بعدنان وأنا أهيم في الطرقات ضائعة فلم يردّ.. لم أيئس لأني فقدت كل منافذ الحياة بعده حتى جاءني صوته كمركب إنقاذ ينتشلني من الغرق.

ـ آلو.. فرح؟!

وفي نبرة مستغيثة:

ـ عدنان... أنا بانتظارك!

مدام بوتكس

همسة: (جمالُ الرّوحِ لا تعرفُه إلّا القلوبُ الحيّة).

ستغامر، وستقفز على أسوار الحرام وستنتهك المحاذير اللامنطقية من بعض المثبّطين، فعمليات التجميل إنقاذ لبيت يتصدّع، ومخرجٌ سهلٌ من الأزمات النفسية الخانقة، لكنها قلقة ينقصها الثقة، فهذا التأرجح راجع إلى خوفها من فشل النتائج، استحضرت وهي تنتظر في عيادة الطبيب جميلات الشاشة وهن يتصابين رغم تقدّم الزمن، فلماذا يخطِئُها المشرط دوناً عنهن؟ فلتتجلَّد وتقرّر.

المرضة المشوقة تمسح بعينيها المشروطتين صالة الانتظار ثم تنادي:

- رقم (٦).

استجابت (سامية) بهزّة من رأسها واستطرقت حجرة الطبيب في ارتباك الآثم.

بوجهه المحتفي استقبلها، أشار إلى المقعد.

ـ تفضلي مدام سامية.

شاب ينضح وسامة، شخّص بعينين مجهريتين مواطن الضعف في جمالها، فاجأها بسؤال له مكامن دقيقة:

ـ هل تعتقدين أنكِ في حاجة إلى عملية تجميل؟

اندفعت منفعلة:

ـ بل عمليات كثيرة يا دكتور.

واستدرجها ليتوغّل في بواطنها.

ـ ولماذا؟

ـ ألا تعتقد أن الأخطاء الجمالية في ملامحي لم تستفز مشرطك؟

ـ أسأل عن دوافعك.

شدّت نفساً عميقاً عبّر عن حرقة متأصّلة فيها:

ـ بصراحة دكتور، نحن الزوجات نعيش في قلق دائم لأننا في تحدٍ لهذه العولمة الجمالية الفتاكة التي غيّبت عقول رجالنا فما عادوا قانعين بزوجاتهم ولا منسجمين مع الحدّ المعقول من جمالهن، وكما

ترى أفتقد حتى النسبة البسيطة من الجمال، وممّا زاد الطين بلة تقدُّم العمر بي وبروز تلك الخطوط القاسية على وجهي.

ـ وما هو الجزء الذي تقصدينه بالضبط؟

اعتدلت سامية في جلستها ووجّهت وجهها شطر الدكتور لتريه الصورة بوضوح:

ـ ها أنا يا دكتور بين يديك أسلمك وجهاً مشوهاً لتتفنن فيه وتبدع فتترك عليه أجمل البصمات.

تفحّص وجهها ملياً، ثم قال:

ـ أعتقد أنكِ منزعجة من نضوب خديكِ، وارتخاء جفنيكِ، ويمكن بعد الشدّ والبوتكس ترميمهما بشكل يظهرك أكثر شباباً، وسأحقن شفتيكِ لتمتلئا فتنشقا عن ضحكة فتية، وتجاعيد الرقبة تحتاج إلى عملية أيضاً.

تحسّست أنفها العريض.

ـ وأنفي يا دكتور، أريده أنفاً طفولياً يزيدني براءة وجاذبية.

اعترض:

ـ لكنه لن يتناسب وتكوين وجهك، فذقنك مدبّبة وبارزة.

ـ يمكنك أن تفعل ما تجده ملائماً، المهم أن تعتبرني لوحتك الصعبة يا دكتور حيث التحدّي الأكبر لذاتك، فما يهمُّني في النهاية أن أكون شابة فاتنة.

ـ هذا يعني أنكِ تحتاجين إلى عمليات كثيرة وعلى فترات متباعدة.

ووثبت من مقعدها لتقف أمامه وتسأل:

ـ وجسدي يا دكتور لقد أنهكتني وصفات الرجيم دون طائل، التكتّلات الدهنية المزعجة تشوّه أناقتي.

حدد النظر في تقاطيع جسدها ثم عبر بشيء من التردُّد:

ـ ستكون عمليات مكلفة جداً، لأنكِ تحتاجين إلى تكبير الصدر وشده وشفط الدهون من الأرداف والفخذين، وعلاج البطن المترهل، عملية نحت كاملة لجسمك.

وبحماس ردّت:

ـ لا يهمُّ يا دكتور، افعل ما تراه مناسباً لي فأنا تحت تصرُّفك، رهن أمرك، وسأقدم لك شيكاً على بياض وما عليك إلا أن تسجل الرقم الذي يعجبك، المهم أن تشكلني بالصورة الخلابة، فأنا زوجة

لرجل أعمال مرموق والمال يجري بيدي ومستعدة أن أشتري الصبا والجمال بأي ثمن.

ـ وهل ستتحمّلين المسؤولية؟

وسبقته قائلة:

ـ نعم أتحمّل، لأن ما عشته كفيل بخلق هذا الدافع

ـ إذاً فلنتفق على الموعد ونبدأ أولاً بإجراء الفحوصات الشاملة قبل العمليات.

ـ إذاً توكلنا على الله.

وفي عودتها إلى البيت تتذكر زوجها (مختار) بطقوسه الرتيبة على المائدة مستعجلاً غداءه بتقليد ذكوري ممل وعيناه تهربان من عينيها اللائمتين، تأخذ ثرثرتهما تقاطعات نافرة، فالتواصل الافتراضي بين زوجين يضمر نوعاً من الألفة، بَيدَ أنّ حوارهما يفضح شرودهما عن بعضهما وحتمية الإصغاء من واقع الاحترام.

اقتحمت رتابة المناخ:

ـ سأجري عملية تجميل الأسبوع القادم.

قهقه مستنكراً:

ـ وهل يصلح العطّار ما أفسد الدهر؟

تضرّج وجهها حنقاً:

ـ مختار أرجوك احترم مشاعري، لا تحبطني، فمنذ متى ونحن منفصلان عن بعضنا، كلٌّ منا ينام في حجرة خاصة، ألا تجد أن هذا الوضع مزرٍ؟ فأنا لست بكائن محنّط، ربما حينما أجدّد شبابي أضرم مشاعرك من جديد.

سخر منها:

ـ وهل تظنين أن هذه التجربة كفيلة بإضرام عواطفنا؟

ـ سأحاول، وسأجّرب، وأنا متفائلة بالنتيجة.

أطال مختار النظر بزوجته مستبعداً أن ترمّم العمليات هذا الكمَّ الهائل من العيوب، فالأمر يتعدّى أنفاً وشفتين، تقاطيعها برمتها معطوبة.

حدجته غاضبة:

ـ ما بك تحدّق بي شزراً؟

أدار رأسه ناحية المطبخ منادياً الخادمة:

ـ (أنيتا) هاتي القهوة في الصالون.

ـ تتجاهلني وكأن أمري لا يهمّك؟

غمغم ممتعضاً وهو يترك المائدة.

وحان موعد العملية ولازمتها شقيقتها في هذا الظرف الحرج، فقد بلغ بها التمرُّد على حياتها الذروة، حاولت شقيقتها ـ ولأكثر من مرة ـ أن تثنيها بَيدَ أن اليأس حفر في أعماقها ندوباً لا تندمل، فخيانات مختار مطبوعة على جلده ورائحة النساء الرخيصات كانت تشمها باستمرار على ثيابه، وهي تحت هيمنة المخدر تدخل في قمقم الغياب لتستريح من ألم الذكرى وباستسلام العاجز الذي أنهكته الحياة تغامر حتى لو كان في المغامرة هلاكها.

تستغرقها محطات الانتظار في وجعٍ مريرٍ وأنينٍ لا يبرح حتى طلوع الفجر، ذلك الوعي المزعج لولا المورفين يزحف في عروقها كل مساء ليقمع الألم، ولا أحد يخمن ما ستؤول إليه أحوال سامية، فالزوج غير مبالٍ لأن أيَّ شيء باستثناء ذاته فهو هامش، الواجب الروتيني يقتضي أن يلازمها لبعض الوقت، لكن أختها ما انفكّت تداريها في كل شوط من أشواط هذه الرحلة فلا يجد أي مسوغٍ لبقائه.

طمأن الطبيب أختها:

- شهور طويلة وتلتئم الجروح.

وفي إحدى هفوات وعيها تستأذن الطبيب أن يبقيها في المشفى لأمد طويل حتى لو تضاعف الأجر..

ثم تلتفت إلى شقيقتها الواقفة في جزع:

- أريد أن أصدمه بحقيقتي الجديدة.

وتمضي الشهور ببطء وتثاقُل وهي تترقَّب على مضض المشهد الأخير لهيئة فتية، فالجلد ينكمش والجروح تلتئم والكدمات الداكنة تتلاشى عن وجهها المشدود بالتدريج، المرآة لا تفارقها، متوتّرة، تقلقها النتيجة، فآثار الورم والألوان الداكنة تطغى على مضمون الملامح، لكن انبلاج النهار عن صورة مشرقة يحدث عندما تصرُّ الخائلة على الجذب المستمر، المرآة توقظها هذا الصباح، شهقت، أوشكت أن تغوص في صورتها لفرط الدهشة، الجسد قد انصقل كما التمثال فينوس، مسّدت بطنها الأهيف وخصرها المنحوت والصدر الناهد من وراء الثوب، طفرت دموع الفرح، تبدو أجمل من صباها، فالطلة فتية والفم مستدير لكنه متعطّش إلى أحمر الشفاه، تدفَّق في ذاتها نبعٌ أنثوي بعد سنين عجاف.. مازالت تحدّق في المرآة تسألها:

ـ أهذه أنا؟ لا أصدّق!.

رجعت إلى زوجها بعد انقطاع مقصود، فالدهشة المنتظرة هي ما كانت تخطط له حين اللقاء.

تهندمت في ثوب أصفر ينحسر على تقاطيع شابة بضَّة، تناهبتها عيون الخدم، بتعبير مكتومة، بغمغمات مدهوشة تلتقطها الأذن المتطفّلة في شغف.

(ياه ما أجملها، أهذه سيدتي سامية؟ لا أصدّق لقد صغرت عشرين عاماً، إنها رائعة).

تنتشي سامية من رحيق الإطراء وقد سرى في عروقها كالمصل فانتعشت بالثقة.

أقبل زوجها بعد الظهر وفتح باب الحجرة، أبهرته المفاجأة، حبست أنفاسه.. وجدها مستلقية على السرير كحورية البحر، أغوته بنبرةٍ مغناج:

ـ ها.. ما رأيك؟

اضطرب وكأنما شرارة أضرمت أسلاكه المهترئة فأيقظت فيها تيار كهرباء أضاء قلبه المعتم، تدفّق الدم إلى عروقه فاحتقن،

الرغبة المعتقلة في كهف الكهولة البارد تنتفض وتعربد في اضطراب لأول مرة.. صاح وهو يزدرد ريقه:

- في قمة الإثارة!.

استحوذته كعروس بنكهة صبية، امتلكته برغبة متعطشة واستثمرت جنونه المؤقّت شهوراً حتى خبت الجذوة وعاد إلى سيرته الأولى، بارداً، فاتراً، يستأنف غزواته خارج البيت.

إنها تحبه، لكنه ذلك الحب المعلّب في نطاق محدود وحيّز ضيّق، فتفكيرها ينحصر في إطار هذه العلبة، لو أنها انطلقت في فضاءات أوسع لكان ذكاؤها خلّاقاً في فنون الحب وطقوسه المتجدّدة، عادت إلى جرّاح التجميل ثانية تطلب منه بعض التغيير، فالشفتان قد نضب منهما الكولاجين، والخدّان في حاجة إلى البوتكس، ورمّم الجراح ما أفسدته شهور العسل، لترجع إلى زوجها بلون جديد وبغواية أشهى، فينكب على الصحن نهماً حتى يزهد فيه ويتململ.

استمرأت سامية لعبة التجميل فجاءت مرة أخرى ترجو الطبيب أن يحقن وجهها بالمزيد من البوتكس لتختفي بعض الغضون الناتئة، وطلبت منه أن يحفر في خديها غمّازتين لتشبه المطربة (فافي) التي تدوّخ زوجها كلما تمايلت في الفيديو كليبات الساخنة.

لكنها استنفذت ذخيرتها في ثلاثة شهور لترجع خجلة إلى الجرّاح!

- هل من بوتكس يا دكتور؟

لكنه اعترض هذه المرة، لأن جلدها لم يعد صالحاً لجرعات أخرى من البوتكس وإلا خسرت تعابيرها الإنسانية وبدت كائناً محنطاً.

- أنا آسف مدام سامية، لا أغامر بكِ.

لكن إدمانها الجنوني دفعها إلى البحث عن جرّاح تجميل آخر وفعلت عندما تصفّحت عناوين العيادات وأسماء الأطباء في الصحف فوقعت على أحدهم لا يقلّ شهرة عن الجراح السابق.

هبت من فورها إلى العيادة وبحماس غير واعٍ، استنطق الجرّاح طويتها بعينين خبيرتين وأدرك أنها كنز ثمين وجيبٌ عامر.

طلبت البوتكس وتكبير الصدر، حينما سألها ما إذا سبق وأن أجريت لها عملية من قبل أنكرت خشية أن يعترضها كما فعل الجرّاح قبله، كان يعرف بَيدَ أنه استحمق عن عمد، فهذا النوع الساذج من النساء يمكن خداعه بسهولة، ولهذا لن أتردد في تجميلها بالصورة التي تبهرها حتى تعود لي مرات ومرات، هكذا حدّث نفسه.

مزيداً من حقن البوتكس، وأضاف في احتيال انطلى عليها:

ـ لو طبعتِ شامة سوداء أسفل الشفة لكنتِ أكثر جاذبية!

والتقطت الطُّعم على الفور:

ـ فكرة رائعة دكتور سأفعل بالتأكيد!

والهوس يأخذها في متاهات نفسية تفقدها اتزانها وتسلبها الفكر والمنطق، أطلق عليها العاملون في العيادة (مدام بوتكس) إنهم يتوقعون إطلالتها كل شهر فيتغامزون بينهم هزءاً وسخرية.. الممرضات، الممرضون، الخدم، موظفات الاستقبال، النموذج القبيح للمرأة الغبية التي تستهجنها الذائقة الإنسانية السليمة.. لكنهم هذه المرة ارتعبوا وتدافعوا إلى حجرتها حينما سمعوا استغاثتها... دكتور.. دكتور.

هرولت الممرضة: إلحق بها يا دكتور.

اكتظت حجرتها.. تتلمس وجهها في ذعر والمرآة في يدها الأخرى:

ـ لقد تشوّه وجهي يا دكتور، صرت في قمة البشاعة، وصدري أيضاً،، إنه أشبه بوسادة محشوة من جانب واحد.

وفي صراخ هيستيري:

ـ ماذا فعلت بي يا دكتور؟ لن أسكت، سأقاضيك، سأقاضي المشفى، إنها مجزرة، مذبحة.

أشار الدكتور بغمزة من عينه إلى الممرضتين ليمسكا بها وتهدئان من روعها وأرقدتاها على السرير بينما جاءت الثالثة لتحقنها وهي تقاوم لكنهما شلتا ذراعيها بقوة كي تأخذ الحقنة لتهدأ وتنام.

وهكذا تترى..

محاولات جديدة للترميم باءت كلها بالفشل، ورجع لها في النهاية وعيٌ مكتئبٌ ونفس ممزّقة وروح محطّمة.. عرضها زوجها على طبيب نفسي وبعد أن أصغى إلى تفاصيل الحالة أجابه الطبيب:

ـ زوجتك في حاجة إلى جلسات علاج كثيرة لتشفى تماماً.

قال الزوج وهو في طريقه للانصراف وكأنما ينفض المسؤولية من يديه:

ـ افعل ما تراه مناسباً دكتور حتى لو اضطرت إلى البقاء في المصحّة!

وعندما انفرد الطبيب بسامية صارحها:

ـ مدام سامية، أنتِ في حاجة إلى أكثر من عملية تجميل لكن هذه المرة في روحك وسأبذل جهداً كبيراً كي أصالحك مع ذاتك من جديد.

تنهدت في أسى:

أنا تحت أمرك يا دكتور!



أمُ العروس

همسة: (الأمُّ الصالحةُ كنزٌ مِنَ الجواهرِ الثّمينة).

كانت أصعب تجربة في حياتي..

خضتها ملتاعة، فقد خُطبت ابنتي الكبرى (بشرى) وهذا يعني أن ناقوس الفراق دقّ لينبّهني إلى أنها كبرت وجاء فارس الأحلام ليخطفها مني على حصانه الأبيض كما ترمز الأساطير وعليّ أن أتقبل الواقع وأعيشه بصبر وجلد، لاحظ زوجي نوبات غضبي الطارئة فأشفق عليّ إذ كنت أداري ألمي الذي لازمني منذ عقد قرانها.

كنت أغذّي في ذهني فكرة تتعايش معها كل أم حينما تلبس ابنتها طرحة زفافها، وهي أنها نضجت وتهيأت لتكون زوجة وأماً، استعرضت الأمهات اللّاتي زوجن بناتهن قبلي وكيف تلقين الموقف بفرح وسرور دون أن يتكدرن مثلي، ورحت أسلّي قلبي بأننا سنقضي معاً في المستقبل أياماً رائعة لكن - وبالرغم مني - أجهشت في البكاء،

تفّهم زوجي (جاسم) معاناتي ودأب على مواساتي واحتواء همي، وعليّ أن أسلّم إنها سنّة الحياة.

قضيت أياماً مرهقة وأنا أجهّز ابنتي لحفل الزفاف وقد التحمتُ بها هذه الفترة كما لو كنت أتزود منها قبل رحيلها عني، عندما ندخل معاً لتنتقي بشرى ثيابها وتستعرضها أمامي أغرق في الذكريات البعيدة وأكابد كي أكبح مشاعر حزني حتى لا تتزعج وأتظاهر أني فرحة لفرحها، استحضرت بينما أنا واقفة صورتها يوم أن ولدتها بوجهها القرمزي والزغب الناعم يغطّي جلدها الطري شممتها فكانت أشهى من رائحة التفاح وضممتها إلى صدري فشعرت بليونة جسدها وبذراعيها الغضين، أمسح بأطراف أصابعي وجنتيها الشهيّتين وألثمهما بحنان فيّاض، لم أفارقها للحظة رغم إلحاح الممرضة بضرورة تركها في السرير كي أنام بعد ولادتي لها بساعات.

وفجأة انقدح أمامي نور كشف عن غادة عشرينية تخرج من حجرة قياس الثياب.. خفق قلبي (كم هي جميلة، الطفلة التي تمرّغت في حضني بالأمس ها هي الآن تفوقني طولاً وجمالاً).

التفتت إليّ بشرى مستعرضة الثوب:

- ما رأيك ماما.. مناسب؟.

- وكيف لا يا نور عيني؟ فأنتِ من خلعتِ على الثوب نورك الوضّاح.

أحسست بها سعيدة، منهمكة في شراء لوازم الزواج والفرحة تزغرد على وجهها الملائكي، ألفيتها أنيقة، رقيقة، تنتقي في خفر ما يلائم قدّها وتتفقد بحذر ما ينسجم وذوقها.

توقظني من شرودي:

- مالي أراكِ حزينة ماما؟.

انتفضت وبررت أنني أفكّر في الحفل وقلقة على ألّا يظهر بالصورة المشرّفة.

- لا تقلقي يا ماما، فالحفل سيتمّ بالشكل الذي يرضي الجميع وقد رتبنا الوضع تماماً وما علينا إلا تأكيد المواعيد، كل شيء جاهز كما أخبرتني خالتي البوفيه، الورد، الكوشة، المضيفات، حتى المصوّرة مستعدّة فقد اتصلت بالأمس لتتأكّد من عنوان البيت.

تكلّفت الابتسام:

- الحمد لله، فهذا ما أرجوه بالتأكيد.

طفنا في أفخر المحلّات وأفخمها وفي طوابق المجمّع الثلاثة

حتى تورّمت قدمانا فأقبلنا على أقرب مقهى لنستريح، ألقينا الأكياس جانب الطاولة، طلبنا العصير ثم أخذنا نستعرض باقي احتياجاتنا، كانت بشرى قد دوّنت لوازم شهر العسل في "نوتة" صغيرة حتى لا يفوتها شيء.

حالة استنفار فعلية نعيشها هذه الفترة خشية أن أتعرّض لنقد أو نقيصة جارحة، ففي الواقع أردت أن تظهر ابنتي في أبهى صورة وأرفع مقام ليفخر بها زوجها وأهله.

وكانت خلوتنا في المقهى فرصة لنتبادل الحديث، سألتها:

- بعد أيام قليلة زفافك وهو المنعطف الذي ينقلك عمّا أنتِ عليه الآن، فهل تشعرين يا ابنتي أن كل شيء على ما يرام؟ وهل وثقتِ من مشاعرك تجاه (نبيل)؟ إننا الآن نستعدُّ لمظاهر الحفل وهي مجرّد قشور لا قيمة لها، فربما تعترضك منغّصات أو مواقف تعكّرك، أرجو أن تصارحيني بها حتى أساعدك من واقع خبرتي في الحياة.

بشّت في وجهي قائلة:

- صدّقيني يا ماما، نبيل إنسان مهذّب، حريص على مشاعري، يحترمني جداً ويقدّرني إلى حدٍّ كبير لكننا في بعض الأيام نختلف

على بعض الأمور مثل رؤيته المتحفّظة في المرأة، فهو يعتقد أن مكانها البيت لأن الزوج والأولاد أولى أولوياتها وأنا عارضت فكرته وأقنعته بأني قادرة على موازنة حياتي الخاصة وعملي وقد ترك لي القرار رهن الظروف فإن كنت عاجزة عن إدارة بيتي وأنا موظفةٌ فعليَّ أن أترك الوظيفة وأتفرّغ لبيتي، فالرجل ـ كما أخبرني ـ هو القيم على الزوجة ومسؤوليته الشرعية تقتضي الإنفاق عليها وعلى الأولاد.

استبشرت فتهلّل وجهي:

ـ هذا هو الرجل الشهم يا بنتي فموقفه دلَّ على أصل منبته ومروءته فقد كنت حريصة يا بشرى على أن تقترني برجل يُعتمد عليه كسند وعون في الحياة.

ثم همّت لتخبرني عن أمر لكنها تردّدت.

ـ هاتي ما عندك يا بشرى، فلربما أفسّر لكِ بعض الأمور المبهمة.

ـ ماما، شدّد نبيل عليّ أننا في المرحلة الأولى من حياتنا سنسكن مع أهله لأنه كما تعلمين الابن الأكبر المتكفّل برعاية أمه وأخواته رغم إصراري على أن تكون لي شقّة خاصة بعيدة عنهن لاعتقادي أن ذلك أفضل.. لأنه سيجنّبني المشاكل والصدام المستمر معهن

وحتى لا ينشغل عني فيهملني، هذه المسألة تزعجني كثيراً يا ماما وصرنا نختلف عليها كلما التقينا.

تظاهرت بالانزعاج فأجبتها بحزم:

- إياكِ يا بنتي ومخالفته، فهو ما فعل القبيح والمشين، بل أثبت لكِ أنه بارٌّ بأمه وأخواته ومن كان صالحاً معهن كان صالحاً مع زوجته، وما الضير لو تتّخذينها أمّاً لكِ فإنكِ بذلك تكسبين حبه وإخلاصه، الزوجة الصالحة يا بشرى هي من تعبّد جسر التواصل بين زوجها وأهله وتحثّه على الإحسان لوالديه، لأن الأم هي الحبيبة الأولى للرجل لا يساوم في هذا المبدأ ولا يبادلها بأية امرأة أخرى في حياته، فإن أردتِ استجلاب حبه فتودّدي إلى أمه ولاطفيها وساعديها إن احتاجت إلى عون ودعم، ففي الماضي كان الأجداد والآباء والأبناء والأحفاد والكنّات يعيشون في بيت واحد يسمى (بيت الحمولة)، والعائلة كانت مترابطة متعاونة، فلا الأجداد يهمشون في الحياة ولا الأخوة يتناحرون كما يحدث في هذا الزمن، إذ بتنا الآن نضيق ببعضنا ونتحرّج من أقرب الناس إلينا فوهنت المشاعر وانحلّت الأواصر وتنافرت القلوب، احرصي على طاعته يا بنتي ليقدّرك دوماً ويفخر بك.

ثم أدهشني سؤالها المفاجئ:

- ماما، هل كنتِ سعيدة مع أبي؟

- سعيدة يا حبيبتي، لأني أرضيت ربي أولاً في معاشرته بالمعروف والحُسنى فصبرت معه على الحلو والمرّ، فما تململت من معيشتي أيام الضيق وما تبطّرت عندما فتح الله عليه أبواب الرزق، حفظته في حضوره وغيابه واحترمته فاحترمني، ولم أُفشِ له سرّاً حتى في الأيام التي شهدت خصامنا إذ كتمت معاناتي عن أقرب الناس لي وتظاهرت أني راضية، قانعة، أحببته بعيوبه وحسناته، وتقبّلته كما هو وتكيفت مع طباعه، فانعكس ذلك في معاملته الحسنة عليّ بالإيجاب إذ أحبني وأخلص لي وقدّرني فكانت أسرتي مستقرة، سعيدة.

- لكني أشعر أن علاقتكما باردة، فاترة.

- لا تعتمدي يا بشرى على المعايير السطحية في تقييم الحب، فليس اللسان المعسول ولا الغزل يحملان الدلالة الكافية على مصداقيته، إنما المواقف هي من تشهد على هذه المحبة، تتلمسين آثارها عندما تمرضين أو تتعبين، أو تحزنين، فإنه يهبُّ بكل تضحية وإيثار لمساعدتك، لدعمك، لاحتوائك، وتقرئين على وجهه ألمه

الصامت ورغبته أن يتحمّل العبء عنك، هذه المواقف هي ضمير الحب المستتر الذي يفترض عليكِ استنطاقها في المنعطفات الصعبة لأن أغلب الرجال لا يعبّرون لفظياً لكن المرأة الذكية تترجم صمت الرجل إلى ألم عميق مدفون في القلب مردُّه الحب الشديد لشريكة حياته.

عند ذلك استأنفنا التبضُّع في السوق فقصدنا مركز التجميل لاقتناء العطور والماكياج، ثم دخلنا محلّ الحقائب والأحذية فقد تزوّدت بشرى بما يلزمها حتى ختمنا مشوارنا بشراء الثياب الخاصة والتي استغرقنا في اختيارها وقتاً طويلاً.

رجعنا إلى البيت وقد كان قائماً على قدم وساق في هذه الأيام فإعداد قاعة الحفل اضطرني إلى نقل الأثاث والأنتيكات إلى ملحق البيت ومن ثم طلاء بعض الأجزاء المتقشّرة من الجدران وتلميع الأرضية الرخام، أهملت زوجي وأبنائي دون قصد لأني منهمكة في تجهيز هذا الاحتفال وقلقة من ألّا يكون بالمستوى المطلوب، ففي هذه الأوقات الحرجة انزعج زوجي من عدم انضباط وجبات الطعام وانفراط النظام في البيت فاستفزّني بنقده الساخر من عقول النساء التي تنقاد إلى المظاهر والزخارف، كنت أتقبل نقده

بفارغ الصبر لأني أعلم أن تذمّره هو بسبب انشغالي عنه فابتسمت قائلة:

- إذاً طالما نحن ناقصات عقل فأرجو منك الآن يا كامل العقل أن تستعد لنذهب معاً إلى السوق لنستأجر الكراسي!

- حاضر أنا بالخدمة.

غرقت بناتي في الضحك وهن يردّدن:

- إن مفتاح السرّ بيدك ماما.

- طبعاً حبيباتي (فالرجل) كالطفل حينما تنشغل عنه أمه يشاغب ويفتعل المواقف ليلفت انتباهها، ولهذا سأشغل أباكن بالمهمات الصعبة حتى أرهقه!

كنت أشعر بالرعب كلما اقترب الموعد فأضطر إلى الاتصال بأختي الكبرى عدة مرات يومياً لاستشارتها في بعض التفاصيل وقد نصحتني ووجّهتني بحكم خبرتها الطويلة في هذه التجربة لكني لم أنتبه إلى بعض القريبات وهن يتباعدن عني ويتجاهلن اتصالي لدعوتهن إلى الحفل، فقد لمستُ إعراضهن وتغيُّرهن الكبير بعد عقد قران بشرى، فعلّلت بناتي:

ـ إنه الحسد يا ماما، لأن خطيب بشرى طبيب لامع ومن عائلة مرموقة، بينما...

اعترضت بشدّة:

ـ أستغفر الله، لا يا حبيباتي لا تُسِئن الظن، أحتمل السبب انشغالهن لكني سأعاود الاتصال بهن وأغض النظر عن جفائهن أياً كانت أسبابه.

وغيرت مجرى الحديث على الفور:

ـ كيف كانت "بروفة" الثياب؟

انبرت إحداهن قائلة:

ـ ستُجهّز الثياب غداً بإذن الله.

ثم سألت بشرى:

ـ هل أكّدتِ موعد الصالون؟

ـ بالتأكيد ماما.

وانطوت الأيام ونحن نترقّب على قلق يوم الزفاف حيث بلغ اضطرابي ذروته، كنت أرتجف وأنا أتلقّى التهاني وجفَّ حلقي لفرط الانفعال فاضطررت طوال الحفل إلى رشف الماء لأرطب لساني،

يدي ترتعش وأنا أمسك الكوب ولا أدري كيف أداري خجلي، اكتظت القاعة فاتجهت الأنظار إليّ فازددت ارتباكاً، بينما بدت أم العريس أكثر جرأة وحضوراً مني، شغلتني تفاصيل العرس وتركتني متوترة، وكلما تذكرت أنها الليلة الأخيرة وأفارق بشرى انهارت طاقتي وخار عزمي وكنت أجهد نفسي كي ألاطف المدعوّات باشّة، فرحة، أحوم في كل زاوية وركن لأتفقد ما إذا كان ينقص العرس شيء من لوازم الضيافة، في كل آنٍ وآخر أتلقّى الزهور من بعض المهنّئين فأرتبها في مواقع ظاهرة للعيان.

استعدّت بشرى للحضور فصعدت إلى حجرتها وأنا أكابد ضيقاً ينغرس داخلي كالشوك، قرأت فوق رأسها آية الكرسي والمعوذتين وسورة الإخلاص، وأقنعتها أن تضع المصحف الكريم بين يديها لتُحفَظ وتُصان، ألقيت عليها نظرة فاحصة قبل نزولها فوجدتها آية في الحسن الإلهي يتضوع من جسدها المرمري عطر عذريٌّ مفعم بالصبا والطهر، تلقت نظرتي الهائمة بحزن بالغ، لم أتمالك دموعي وأنا أدعو:

ـ فليحفظك الله يا نور عيني.

أحسست بها تعاني إذ احمرّت مدامعها فبادرتها أختها بلطف ودعابة:

- إياكِ أن تبكي وإلا فسد مكياجك.

وخلقت أخواتها جوّاً من الفكاهة لتسربة ضيقها.

الزغاريد والأغاني تصدح في آفاق القاعة المرتجة وتستعجلها لتستقبل العريس، وفي خطاً متأنّية وقلب يخفق خجلاً وطِئت بقدميها الناعمتين درجات السلّم لكنها تحاول أن تتجلّد وتشد قامتها لتستقم في مشيتها بأناقة وثقة، كأني بها نموذجاً للجمال الإغريقي في عنقها العاجي الطويل وقامتها الهيفاء ولفتاتها الفاتنة، أبهرت الحضور بطلتها البهية وهي متلفعة بثوبها الأبيض يفترش الأرض بأطرافه المطعمة بحبات اللؤلؤ وقصدت ذرَّ الملح لأحصن هالتها من شر الحسد، تربعت على مقعدها كملكة وحولها اليافعات ينشدن وهن يحملن سلال الورد فنثرن حولها الياسمين الفوّاح فتألّق المشهد.

من الصعب أن تجتمع داخلك النقائض، فعلى الرغم من فرحتي بها عروساً ملء العين والخاطر، يعذّبني فراقها ويدمي قلبي، وقد لاحظني الناس مغمومة متكدرة وعندما أفقد السيطرة على نفسي أختبئ في الحمام وأبكي ثم أعود ثانية متكلّفة البشاشة.

أغرقت نفسي في ضجّة العرس وانسلخت عن وعيي لبرهة ورميت قلبي في لجّة الرقص وتابعت الصبايا يتمايلن بخصورهن في استدارات رجراجة، والظباء المتجمهرة حولهن تصفّق في حماس.

اتصل زوجي ليخبرني أن الموكب في الانتظار فلتتحفظ النساء وتتستر فالعريس سيدخل القاعة، اتجهت العيون صوب الباب في ترقُّب وفضول فدويُّ الرجال وغناؤهم أشعل الحفل حماساً وضجة وبلمح البصر دخل (نبيل) كأنه القمر في اكتماله على يمينه زوجي وفي يساره والده وخلفه حشدٌ من الشباب أظنهم أخوته وأقاربه، مشى على هوادة وحرج، أقبل على عروسه لهفاً، قبلها ثم أخذ مقعده ومال برأسه يهامسها.

غرقت في أفكاري المتلاطمة وهي تقلّبني بين الفرحة والحزن، إنه اليوم الموعود حيث تغادرنا البنات إلى أعشاشهن الرغدة ومستقرهنّ الزوجي فيتركن في القلب غصّةً وذكريات مطرزةً بالحب والألم، بالمشاكسات البريئة، بالقلق والحذر، المنعطف الذي تدرك فيه كل أم أنها ستترك ابنتها لزوج يتعهدها بالرعاية حتى آخر العمر.

التفتُّ إلى بناتي وهن يحمن حول بشرى كفراشات الربيع

المحلقة حول الضوء، وبنظرة خاطفة أحسست أنهن في طريقهن إلى الإقلاع حيث جنان الحب وأقدارهن المنتظَرة.

آن أوان الوداع إذ تهيأ العروسان للزفة، وقفا لالتقاط الصورة ثم أمسك نبيل بَيدَ عروسه ومشيا في درب الفردوس كعصفوري حب وعيناي تتبعهما بلهفة وقلبي المضطرب يلهج بالدعاء.. حتى أزف الفراق، ضممت بشرى إلى صدري وأنا أبكي بينما هي تجفّف دمعي مشفقة:

- أرجوكِ ماما لا تبكي.

رنوت إلى نبيل مستعطفة:

- سلّمتك قطعة من قلبي فأرجوك أن تعتني ببشرى.

قبلني على رأسي:

- لا تقلقي عمتي، بشرى في عيني وروحي، سأصونها ما حييت.

أطرقت بشرى تداري دمعها عني لكن العريس خطفها وأدخلها السيارة ثم انطلق بها إلى عشّ الزوجية.

تنهدت وأنا أمسح طرفي:

- فليسعدك الله يا بنتي ويبارك حياتك..

الوسواس الخناس

همسة: اتّقوا الذنوب، فما مِن بليّةٍ ولا نقص رزقٍ إلّا بذنب.

أعلن توبته بعد أن قضى شطراً من حياته يرتكب الفواحش، ربما مرض السكر قد نهش جسده وما أبقى لفحولته باقية، أو نتيجة زهد بعد تخمة وشبع، و قد تكون (عواطف) المرأة اللعوب التي استنزفت جيبه وهددته بالفضيحة.

في لحظة سقوط يدرك الإنسان أنه (لا شيء) فبالرغم من امتلاكه النعم إلا أنها تزول حينما يغضب ربُّ العباد فيأمر الأقدار أن تجهز على هذا الإنسان بإشارة (كن فيكون).

حاول أن يكفّر عن ذنوبه ويمحو من ذاكرته كل مشاهد الفجور إلا أن الشريط يعترضه ويحرضه بلهفة على العودة وهذا يناقض ما أقدم عليه، فالتوبة تعني استنكار كبائرك التي تُنزِل عليك النقم، والندم على ما مضى والعزم على ترك العودة إليها أبداً.

استشار إمام المسجد بعد أن صلّى الظهر جماعة فأكّد له أن

درب التوبة يحتاج إلى مجاهدة وصبر لذا نصحه بالصوم وممارسة بعض الرياضات الروحية والتصدُّق على الفقراء والثقة بالله فإن رحمته واسعة وأنه عزّ وجلّ يحب التوابين ويحب المستغفرين.

واستتّبت قناعاته فأقدم على هذا الطريق بصدق وإيمان فوجد ذاته التي كانت متبدّدة في دروب الفساد الوعرة واستجلب مجامع همته ليقاوم ملذاته المباحة كنوع من التمرين النفسي، كحبه للطعام، للنوم، للسفر، متع الحياة التي ارتشف منها القليل.

استأنست زوجه (فادية) باستقامته، فقد استجاب الله دعواتها بهدايته إذ تغيّر (عبد الرحمن) تماماً واستضاء قلبه بنور اخترق الحجب السوداء التي ضلّلت رؤيته وحرّر روحه من سجن مشبع بنتانة الذنوب.

وبفضل دعائه واستغفاره تفتّحت أمامه أبواب الرزق وخرج من أزماته ظافراً حتى أدركه حزن شديد فانكبّ على الصلاة والصوم ليذيب لحمه الذي انتعش بالحرام وليذيق جسمه ألم الحرمان كما أذاقه حلاوة المعصية، يناجي ربه في الأسحار (يا ربِّ، شرُّنا إليك صاعد وخيرك إلينا نازل، يا واسع المغفرة، يا وهّاب النعم، كيف أحمدك وأشكرك وأنا العاجز الفقير، المذنب الحقير، فقد اقترفت

ذنوباً قد سترتها على الخلائق بلطفك)، ثم يخرّ ساجداً باكياً من خشية الله.

فقد تعبّأ وتهّيأ واستعدّ لرحلة التوبة والعودة إلى الله عزّ وجلّ وقرّر أن يحجّ هذا العام ليتوج توبته بتاج الطاعة، وفكر ببعض الترتيبات التي تسد الثغرات السالبة في حياته فاتخذ الحزم في الضوابط الشرعية التي كانت مهمشة في أسرته وشدد على حجاب زوجه وبناته، تذمرت (فادية) من قوانينه الصارمة ووجدت فيها قساوة وغلظة لكنه القيّم الذي يحمي بيته من عوامل الفساد التي نهشت شبابه، الصلاة في مواقيتها، الرقابة على قنوات التلفاز، تحريم الطرب، لأنه نوع من المخدرات العصبية، جمع أولاده وحدّثهم عن الحكمة من غضّ البصر وأن صوم العازب لجام لشهوته، وتداعيات الاستغراق في النظر المحرم.

وفي الأسحار يسأل ربّه، يرفع كفّيه دامعاً:

ـ هل رضيت عني يا ربّ؟.

يأمر زوجه وهو يستفقد الثلاجة الطافحة بالطعام:

ـ عليكم بالوسطية في الإنفاق فلا إسراف ولا تقتير.

تردُّ باب الثلاجة بعصبية:



- عوّدتنا على البذخ ومن الصعب أن نمسك أيدينا الآن.

ويتابع وهو محتفظ بهدوئه:

- ليس من الضرورة أن نأكل اللحوم كل يوم، فالعدس والخضار تسدّ الحاجة وأعتقد أنه طعام صحّي، فالإفراط في أكل اللحوم يُقسّي القلب.

والتفتَ إلى الخادمتين وهما تحومان في المطبخ:

- سأصرف الخادمة الأخرى، تكفينا واحدة، على الأقل تجدين فرصة للحركة كي تخسري بعض الوزن.

أعرضت عنه:

- يبدو أنك مصرّ على أن تدفننا ونحن أحياء.

- بل أقوّم حياتنا بالشكل الذي يرضي الله ولا يعرضنا إلى العقاب يوم الحساب.

تمتمت فادية ساخطة:

- ولكن لا رهبانية في الإسلام.

ارتبك عندما مسّت رجولته:

- إني أتطهر وأحتاج إلى دعمك.

سخرت:

- تتطهر؟! ممّن؟! من زوجتك؟.

تضرّج وجهه وكان دخول ابنه مهرباً من هذه الورطة.

لأول مرة تجهر (فادية) بعطشها بينما هو يروّض الوحش داخله حتى استطاع أن يعتقله في زنزانة العفّة وما زال يمارس رياضاته الروحية كي تتوازن رغائبه فلا تفترسه الأهواء في لحظة ضعف.

اطمأنّ تماماً، فشيطانه مُكَبَّلٌ بإرادته الصارمة، الانتصار الذي يبلغه الإنسان العابد وهو يقفز على درجات سلّم الكمال الروحي حتى التسليم المطلق لله عزّ وجلّ، بَيدَ أن موت ابنته الصغرى في حادث طريق استقطب ذهنه، ولفرط الصدمة سقط من شاهق الغياب مستدركاً وهو يتلفت بحثاً عنها: أهكذا تكافئني يا رب؟.

أخذته نوبة حزن إلى متاهة من الوسواس الخنّاس المنتقم قد استنفر وأتباعه لمهاجمته:

(عبد الرحمن، ألا تلاحظ أنك خسرت زوجك وابنتك

العزيزة؟ تذكّر ماضيك، كنت تتفجّر رجولة، والمرأة المتمرّدة الآن كانت في يوم ما ذليلة خاضعة).

نفض هذه الخواطر وهبَّ من رقاده ليصلّي.

وفور أن رفع كفّيه مكبراً حدّث نَفسَه (يبدو أني توضأت على عجل فنسيت غسل يدي اليسرى)، توضأ ثانية، الهمّ استحوذ عليه ففراق ابنته شتّت فكره.

دخل الصلاة ساهماً، ليس بذات الروح الوثابة والتوجه السابق، اضطربت ذاكرته وحدس في أنه اشتبه بعدد الركعات فطائر خياله يميل به إلى كل ركن كانت تلعب فيه طفلته، غضب بشدة نفسه الواهنة مزّقتها الوساوس فكان صيداً لحبائل الخنّاس زعيم الشياطين الذي اغتاظ من توبته وعاهد جنده على ملاحقته حتى يقطع عليه طريق التوبة.

استيقظ عبدالرحمن من نومه هذا الصباح مرهقاً، قفز كالملدوغ فارتدى ثيابه وفرّ إلى دائرة عمله.

دخل محرجاً، وبأمرٍ غاضب من المدير:

ـ تفضّل عندي في المكتب.

وبوجه عابس خاطبه:

ـ ما الذي حدث يا عبد الرحمن؟ فقد تجاوزت تأخيراتك الحدود المعقولة.

ثم دفع إليه الإشعار:

ـ انظر إلى الخصومات المتراكمة والإنذار الأخير الذي لم تعره انتباهك، حتى إنتاجك قلّ عن السابق.

تفرس وجهه ملياً:

ـ ما بك ذابل الوجه؟ هل أنت مريض؟ عيناك مرهقتان، ألم تنم جيداً؟!.

ـ نعم، بعد وفاة ابنتي ساءت حالتي النفسية.

وبحزم يفضّ المدير اللقاء:

ـ أرجوك دع العواطف وانتبه إلى عملك، والآن تفضّل.

ـ حاضر.

إنه طريق الندامة يا عبد الرحمن، خدعوك فقالوا لك: تُب إلى الله، وها هي آثار التوبة، مشاكل تتقاذف عليك من كل ناحية وآخرها الخسارة المالية، (هذا يعني أنني لن أستطيع حجّ بيت الله!!.

وقرر الذهاب إلى الطبيب بعد غمز ولمز زوجته المهين لرجولته.

قال له الطبيب:

ـ تحتاج إلى إبرتين من الأنسولين، فمعدل السكر مرتفع جداً.

سأل في خجل:

ـ لم أعد قادراً على أداء واجب الزوجية.

ـ إنه أمر حتمي نتيجة إهمالك، فمنذ فترة وأنا أنصحك بالرياضة والريجيم لتدارك المرض في هذا السنّ لكنك لم تستجب.

سأل مستجدياً:

ـ وما الحل يا دكتور؟.

ـ يمكنك مراجعة طبيب متخصّص.

ـ والله زمان يا عبد الرحمن، كنت أسداً يثاور الفريسة، ما بك الآن وقد خبت حيويتك؟.

محاولاته مع فادية باتت سراباً، ردودها العنيفة تطعن قلبه في الصميم، مواقفها المريبة تثير شكوكه، تخرج مضطربة إلى شيء

في العتمة وترجع منهكة قد لفظت حقدها عليه واستراحت، الهمس المرتبك خلف الباب المقفل بالمفتاح، شرودها المنعش حيناً ترقد في السرير وتنسى كل الكائنات حولها.

- ألا تعرف يا عبد الرحمن معنى هذا؟

فتح القرآن الكريم ليستخير في طلاقها:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾﴾.

لفظ زفرات كبده المحرور:

- ماذا دهاني؟ هل أشكُّ في فادية، زوجة عمري، المرأة التي أخلصت لي طوال هذه السنين؟

من قال لك إنها مخلصة؟!

إنها زوجة تتلظّى على جمر الحرمان و...

صرخ بعنف وهو يخبط المنضدة بقبضة كفه:

- أعوذ بالله من شرّ الشيطان الذي يزيدني ذنباً إلى ذنبي.

توضأ ليطفئ سعير الغضب وتصفّح القرآن الكريم حتى

استوقفته الآية الكريمة ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾ ﴾ الشورى: ٣٠.

وفي ومضة نور يسمع صوتاً كالبلسم العذب داخله:

يا عبدالرحمن، ما من عبدٍ يقترف أمراً محرّماً فيموت حتى يُبتلى ببلية تمحص بها ذنوبه، إما في مال، وإما في ولد، وإما في نفسه، حتى يلقى الله عزّ وجلّ وما له ذنب، وإنه ليبقى عليه الشيء من ذنوبه فيشدّد بها عليه عند موته، لقد كفّر الله عن ذنوبك كلها بهذا الاختبار الصعب الذي غربل إيمانك ومحّص سريرتك وجعل أكبر الشياطين تحاصرك لترتدّ عن الطاعة، اثبت يا عبد الرحمن، اثبت وتصبّر على البلاء فأمامك كثير من البشارات.

وتذكّر قوله سبحانه:

﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾.



الرجل الثعلب

همسة: الالتزامُ بالعهدِ ميثاقُ الرجولةِ الحقيقيّة.

الهاتف المفاجئ هذا المساء قضّ مضجعي وحوّل هدأتي إلى زوبعة من الأفكار، كنت أحسب أن خلافاتنا ستُرمَّم خلال بعدنا عن بعضنا، فتركته لأيام لعلّ الحنين يعيده إليّ ثانية مجتنباً كل ضروب الملامة والتجريح.

ـ شئت أن أتعرّف عليكِ.

نفضت النعاس عن عيني:

ـ عفواً من أنتِ؟

ـ عبير قاسم خطيبة (عز).

شهقت حتى اختفى صوتي:

ـ عز؟!

ربما سكرة النوم شوشت منافذ سمعي.

- ما بكِ صامتة؟!

تنهّدت لألفظ الغصّة.

- من تقصدين؟

- عزّ الدين راتب

هبط قلبي في قاع لا قرار له.

- وماذا تريدين بالضبط؟

- عرفت أنه كان على علاقة بكِ، و....

اعترضتها:

- ومن أين عرفتِ؟

- حينما بحثت في سيرته علمت أنكما انفصلتما قبل إتمام مشروع الزواج.

اغتظت منها لكني استمرأت قلقها.

- نعم كنا نحب بعضنا وقد تركته بمحض إرادتي.

شاب نبرتها نوع من اللين:

- أرجوكِ ساعديني لأتعرّفه... ممكن؟!

أخذني الفضول:

لِمَ أنتِ متردّدة؟

ـ لا أستطيع أن أخوض بالتفاصيل عبر الهاتف فهل يمكنني دعوتك إلى فنجان قهوة في مقهى المارينا؟

ـ دعيني أفكّر في الأمر.

أحسست بصوتها المتوتّر وقد غلّفته بهدوء متصنّع فأي فخٍّ سقطت فيه تلك الحمقاء ومن قبلها النسوة المنبوذات على رصيف نزواته، هكذا يترك عز ضحياته مولعات، مفتونات ثم يختفي، التذبذب المحيّر لقلب المرأة المتعطّشة إلى وطن تسكن فيه، فحينما يبذر بذاره ويهيم في كل واد وتعلل المخدوعة نفسها بحلم العودة وهي في ذروة النشوة متفيئةً ظله، متمنية الموت بين ذراعيه حتى تهوى المطرقة فوق رأسها فتفتح عينيها الغافيتين على حب سراب ورجل وهم ولكن بعد أن تغلغل الحب فيها وتمكّن، طحنتها الحقيقة المرة فتتلفّت مستدركة.. أكان حلماً أم حقيقة؟!

لم يحالفني الحظ لأغوص في ماضيه البعيد وأبحث في دفائن أسراره، لكني حينما استدرجته استطعت أن أفهم شخصيته النزوية، بالرغم من تأكيداته المشكوك بصحّتها أنني المرأة المستثناة عن كل النساء اللاتي صادفهن في محطات حياته، غمرني نوع من الزهو

إلا أنني في أوقات كثيرة أخمن أن هناك امرأة قبلي تلقّت ذات التصريح، توّجها ملكة ثم نفاها من حياته كحثالة فألبس وريثتها تاج الملكة، لكني أوهمت نفسي أن هذه وساوس ينبغي تكذيبها كي لا تنخر في محبتنا الصامدة خمس سنوات.

أتذكّر..

عهدنا الأول، والنفخة السحرية في جسدينا المحنّطين حينما اشتعلت جذوة الحب وتوقّدت أوصالنا بحرارة الشوق، أوقات الانتظار والترقُّب لاستكشاف مكنونات الآخر والدهشة حينما تخطفنا خيالاتنا إلى ما وراء الخفقة.

أحسسته بطلاً قفز من صفحة الماضي المهمل يمتطي خيلاً خرافياً ورمحه الفولاذي يلمع في ليل حياتي، بهرني فتمنيته، فأنا أرملة ذقت مرارة العطش والحرمان، فقد اقترنت برجل مِمراض لازمته سنواتٍ صابرةً، فخبا نشاطي وانطفأ بريقي، لم أرزق منه بطفل فمرضه أضعف قدرته على الإنجاب، لكني عاشرته بالمعروف وداريته بعطف رغم تحريض الناس على هجره، استقبحت الأمر الذي لا يبدر إلا من نفس خسيسة ودنيئة، فقد حرصت على مباشرته حامدة ربي شاكرة حتى لفظ الروح وهو يودعني راضياً، وبعد شهور

طويلة من حدادي استأنفت الحرب الدائرة مع أهل زوجي المرحوم بشأن العمارة التي ورثتها عنه فذهبت إلى أشهر محامٍ لأرفع قضية وصادفت (عز)، صوته المستأسد وهو يرحّب بي ملأني قوة وغلبة، حدّثني فأوقد في شراييني شعوراً خارقاً شملني براحة لا أعرف لها سبباً، ذبذبات كهربائية مسّت قلبي فأضاءت كياني كلّه فإذا بالإشراقة تلمع في عينيّ المنطفئتين، استحوذ عليّ كقضية مصير فكنت أتردّد على المكتب بدافع من إعجاب والاتياح وتمنيت لو أن مرافعات المحامي تمتدُّ وتطول حتى يأخذ حديثنا خصوصية الاقتراب، عرفت فيما بعد أن الشرارة المندلعة من جوي مسّت شغافه فاستجاب لهتاف قلبي لكنه اتخذ الحيطة والحذر خشية أن تطالني ألسنة الناس، ويتأجّج سعار اللوعة داخلي بتواطؤ مع حرماني المزمن سنين طويلة.

عرفت أنه متزوّج رغم أنه ماطل كثيراً حتى صارحني في النهاية وألفيته يتكتّم على خصوصياته قاصداً بينما يستفزّ كل دهائه القانوني ليرصد تاريخي ويستنطق السنين الصماء التي حفرت في أعماقي متراساً من الخوف.

شعرت بالأمان معه وآليت على نفسي ألّا أبدّد هذا الإحساس

الجميل بنزوة تلوث تاريخي فإن أقصى طموحي أن أبقى محمية من رجل قوي، أخذنا الشوق حتى الذروة فاختنقنا بحبنا المكتوم ولوعتنا المتدثّرة بلحاف الحرام، فكان العرض الخجول (زواج عرفي) حاصرني وأنا أغرغر بعطش متأزم ولا أجد لهذا القرار رجعة عقل، علّل أنه متزوج من ابنة عمّه المرأة المتسلّطة والتي ستحاربه بجيش جرار من إخوتها وأخواتها فتحطّمُ قلعة حبنا حتى نستسلم، استصغرت شأني (أنتِ أرملة جفت أرضها ونضب ماؤها فلا أمل لها في زواج أو طفل يعربد في أحشائها الجافّة).

قبلت مستسلمة لقدري واستأجرنا لحبنا الوليد شقة صغيرة لينمو ويترعرع في الحلال، البدايات كان لها طعم الشهد ونكهة الورد المعبَّق بالندى، اللقاءات المخطوفة، والخفقات المسروقة في الصباحات الضاجّة حينما يشتغل الناس عن مراقبتنا، نسيت كل شيء وكدت أن أفنى ذاتي بذاته، فهو محب وقاسٍ، عاشق وظالم، وحينما أبكي من جوره أحياناً يطيّب جرحي بمثياق حبه، (أنا سندك، أنا رجلك!)

اختبأت فيه عن العالم واحتميت بجدران قلبه خشية أن تمتد مخالب الزمن فتنهشني، غيرته المتأجّجة تطمئنني أني جوهرة

ثمينة وحري أن يصونني بكل ما أوتي من قيد.

الحنان الذي أفاضه عليّ أوقد في أنوثتي ناراً فتجدّدت كي أستعدَّ لمواسم مزاجه المتبدّل، فله قدرة هائلة على التلون والتقمّص ما يوقعني في حيرة وذعر وكأنما ينفصم إلى حالات عدة أو لأكثر من شخصية لها متطلبات خاصة وذائقة تناقض الشخوص قبلها، أشعر في كثير من الأحيان بالتعب والإرهاق لفرط إيقاعه السريع والقفز المفاجئ فوق أسوار علاقتنا، فمحاولاتي في التناغم معه واجتهادي لأستوعب عواصفه يُفهم خطأً فيفجر هذا اللغم المعبأ بالأسرار فيضطهدني بأقسى فنون الإهمال والتجاهل ويسوطني لسانه الغليظ بسادية ووحشية فيلفظ كبته علناً (كلكن ذات الشاكلة!)، تستوقفني هذه المحطة بشيء من القلق فأسأله: ليس في حياتك سواي وزوجتك، فمن غيرنا تختبئ في تاريخك وتطلّ عليك كلما تفتّق جرحك؟ كثيرات، ما زلن رغم غروبهن منغرسات فيه كالقدر، تعكّرت مشاعري بعد اعترافه بهذه الحقيقة فبدأ الشك يدفعني إلى مراقبته لظني أن هناك من تهوى المغامرة مع هذا الرجل المتعدد الوجوه.

مرّت على حياتنا أيام صعبة فقد نازعته زوجه حق النفقة

وحضانة الأولاد ودخل معها حرباً شرسة حتى طلقها في النهاية وعاش في بيته وحيداً فانتهزت الفرصة لأفاتحه بإعلان زواجنا السرّي، لكن مشاعره شابها نوعٌ من الفتور فظننت أنه رد فعل طلاقه وحرمانه من طفليه لكن رغبته في لقائي انطفأت فصرت أشحذ منه تلك الساعات النادرة، كان عذره أنه مكتئب أو أن المكتب مزدحم بالقضايا المؤجّلة، نسي مع مرور الوقت يوم ميلادي والمحطات السعيدة التي كنا نحتفل بها وباقات الزهور التي يبثعها لي تحت عنوان اعتذار أو شكر في أحيان كثيرة، شحّت يداه زاعماً أن طليقته استنزفت جيبه فما عاد يملك ديناراً واحداً!، اعتذر عن عجزه في دفع إيجار شقتنا ففعلت ذلك بدلاً عنه، المخاوف الكثيرة أكلت حبي ونهشت أعصابي ففرضتُ عليه لقاءً يومياً كحق من حقوقي، رضخ مرغماً لكن لقاءنا كان يتحول إلى شجار يشرخ قلبينا ويقطع أواصرنا، نبتعد لفترة طويلة ثم نحنُّ لبعضنا فنلتقي ثانية وهكذا عشت السنتين الأخيرتين في مدٍّ وجزر حتى غرقت، وهذا القلب الذي ضمّني واحتواني زمناً لفظني في صحراء قاحلة، وحيدة دون سند، هرب بمسوّغات واهية، وفي الحقيقة ما عاد رحيقي الذي زهده يخلق فيه الدهشة وتوقعت أن ثمة امرأة شغلت

تفكيره، أحرجته كي يعلن زواجنا ادعى أن زوجه سترجع إلى البيت فهناك محاولات صلح يتصدى لها كبار العائلة.

حفَّ بي الشقاء وغبّ النعيم وترهّل رباطنا الوثيق فما عدنا نلتقي إلا وأعماقنا تمور بالنفور والضغينة، اختبرته لأفضح طويته، (فلنغلق الشقة)، كان ردُّه طعنةً في صميم فؤادي، تناصفنا قطع الأثاث التي اشتريناها معاً وبعض مستلزمات المعيشة وسلمنا المفتاح لصاحب العمارة وعدت إلى جحري منكسرة ذليلة، مضى شهر، شهران، وأمل العودة يعتمل داخلي كأمنية، ربما يحنُّ إلى صوتي حينما يغصّ في حبه، واحترت في أمر المرأة التي اتصلت تطلب مقابلتي هل أصارحها بالقصة فيتحرّى (عز) بطرقه الخاصة عن المصدر فيعرفني؟ لكن فضولي دفعني لأتعرفّ على من استحمقها بأكاذيبه.

استجبت لإرادة عبير فاتفقنا على اللقاء صباحاً.

ذهبت في الموعد وأنا أضطرب، يتناهبني الخوف والغيرة في وقت واحد، = وحينما اقتربت من الطاولة رقم (٩) أخذتني الدهشة:

(أهذه خطيبته؟)، لقد شاهدتها لأكثر من مرة في مكتبه،

شكوكي ألهمتني ثمة دخيلة في علاقتنا صادفتها معه وحينما استعلمت قال (إنها إحدى الموكلات اللاتي يترافع عنهن نيابة عن أستاذه).

ألقيت التحية ثم جلست وعيناي يتقادح منهما الشرر.

وبدون مقدمات سألتها:

ـ اسألي وسأكون في خدمتك

ـ فلنطلب القهوة أولاً.

أجبت متذمّرة:

ـ لا داعِ الآن.

ارتبكت ولم تعرف كيف تلملم أطراف الحديث، بَيدَ أن نظرتي شحذت همتها:

ـ لقد سبق لي تجربة زواج فاشلة، ولهذا أحذر الارتباط الآن دون دراسة الطرف الآخر، فعز كان المحامي الذي باشر قضيتي حتى انفصلت عن زوجي السابق، أحببنا بعضنا وانتهينا إلى قرار الزواج.

كان الشرُّ يغلي داخلي فسألتها:

ـ وما المطلوب مني بالضبط؟

- لماذا انفصلتما بعد قصة حبكما العنيفة؟

ابتسمت وأنا أكابد غيرةً طاحنة:

- أولاً كنت له زوجة شرعية وليس حبيبة فقط.

شهقت مدهوشة:

- زوجته؟!

شحب لونها فشئت أن أتشفّى، فسألتها ساخرة:

- ماذا أقدُّم لكِ من سيرته العطرة؟

قالت: إنه انفصل عن زوجه لأنها مفروضة عليه بحكم تقاليد العائلة حتى التقاني فكنت حبه الأول والأخير وإني امرأة استثنائية و ......

أشرت لها أن تصمت:

- دعيني أكمل:

أجفلت مبهوتة بينما تابعت:

- وأنكِ حورية من السماء وباقي النساء صورة طينية ميتة وأنه سيظل معك للأبد عوناً وسنداً وأمرك أن تجلسي في بيتك معزّزة مكّرمة فهو من سيحمل عنكِ كل الأعباء.

تسمّرت وبانت الدهشة في عينيها:

- بالضبط وكأنكِ كنتِ معنا.

وقفت وأنا أستعدُّ للذهاب:

- تأكّدي يا عبير أنها ذات الأسطوانة المشروخة التي تكرّرت على سمع كل ضحاياه بمن فيهن أنا وأسقط ضعفه عليهن، فهو رجلٌ غير مستقرّ، متردّد، نزوي، ولهذا لن يستطيع أن يهب الأمان لأية امرأة إنه يزهد النكهة التي يعتاد عليها فيطير ليحطَّ على زهرة أخرى.

شعرت بالراحة لأني ألقيت بأكداس همّي في البحر بعد أن كشفت باطنه الأجوف، ولكن للأسف....

بعد فوات الأوان..



حبٌ إلكتروني

همسة: (مِنَ الحماقةِ أن نعالجَ خطأً بخطأٍ أكبرَ منهُ).

كنت بانتظار مولودي الثالث، وقد شعرت بحملي هذه المرة أثقل من الحملين السابقين، خسرت رشاقتي وخفتي، وبدت أطرافي منتفخة كالإسفنج المشبع ماءً، ودبلتي التي طوقت أصبعي سنوات طويلة تضيق به الآن، حتى قدماي ارتويا بمحلول الحمل وانفرط حجمهما فاضطررت إلى احتذاء مقاسٍ أكبر وحذّرتني الطبيبة من زيادة الوزن رغم اتباعي نظاماً غذائياً صارماً.

أقف أمام مرآتي كل صباح مفزوعة، فحجمي يكبر ومظهري يتبشّع بانحلال معالم حسني، المساحات المنحوتة قد غرقت في السمنة وطفحت فتساويت طولاً بعرض، وحاولت أن أبرز مواطن الجمال في طلتي فما وجدت شبراً سليماً، فالرقبة المحتقنة تدنو إلى الأسود، وبقع الكلف تطفلت على الوجنتين النضرتين فاختلطت ألواني ببعضها وصرت وجهاً كاركاترياً يرسمه طفل صغير، وانعكس

هذا التغيير على نفسيتي سلباً إذ تعكر مزاجي فلم أستطع التكيُّف مع حملي هذه المرة، الأحاسيس القاتمة غزت تفكيري والرؤية الضيقة طغت على مشاعري فشملني نوع من الخمول أشبه بالبيات الشتوي لبعض الكائنات الحية، أحاول أن أهرب إلى النوم درءاً للضيق والانقباض اللذين كبلاني دوماً، ففي المساء أسترخي على الكنبة باتجاه التلفزيون وأشاهد معظم المسلسلات المعروضة على الفضائيات العربية حتى يخطفني المارد إلى غفوة طويلة، حاولت أن أخرج نفسي من دائرة الروتين لكني فشلت لأني لا أجد في العزم والأمل لأكافح وهني فأسقطني العجز فريسة للفشل والإحباط، بات يزعجني كل شيء في الحياة وتغضبني الأشياء التافهة، لم ألتفت إلى المناخ الكئيب الذي استفاض مني وحول بيتي إلى جحيم، صراخي، عنفي، سأمي، زوجي حينما يهون عليّ الأمر أنفجر وكأني قنبلة ملغومة، كل هذا يحدث ولا أعرف لذلك سبباً واضحاً اللهمّ إلا هيئتي المضحكة التي جعلت مشيتي المتمايلة يميناً وِيساراً كمشية البطريق الساذجة.

إحساسي أنني غير مرغوبة في عيني زوجي يفجّر غيرتي من الظباء الحسان اللاتي انزرعن حولنا كالأشجار رغم حلفه لي

بأغلظ الأيمان أنه لن يتلفّت لأخرى مهما بلغ جمالها من الفتك والفتنة، فأنا في نظره أجمل النساء على وجه الأرض، الانفعالات التي تكهرب علاقتنا باستمرار وتشرخ بيننا الثقة، أبكي لأسباب أختلقها وهماً وأحفّز دوافعها داخلي لأهاجمه، هربت إلى أمي لأنضوي تحت دفء جناحيها بحثاً عن الأمان فتحسُّسي المفرط من هفوات زوجي وشكوكي غير المسوّغة ورّطتني في مشاكل كثيرة وقد نصحتني أختي الكبرى بالهدوء حتى لا يتضرر الجنين بعصبيتي فيؤثر في صحته النفسية مستقبلاً.

وحان موعد ولادتي فهجعت روحي المتهيجة فور أن خرج (بدر) إلى الدنيا ليطرد معه فضلات وساوسي وقلقي، انتظمت خلال فترة قصيرة معادلات جسدي الكيميائية فانخفضت حدة مزاجي وهنا خططت لأسترجع علاقتنا بعد سلسلة طويلة من المشاحنات الصبيانية، وعوّلت على مولودي بأنه سيوثّق رباطنا ثانية بعد أن يغفر أخطائي، ولكن عندما زارني (سعيد) في الأيام الأولى ألفيته متكلّفاً متبرّماً بعد أن كان لصيقاً بي طوال فترة نفاسي وكأني عروسٌ في يوم زفافها، وانتظرت هديته الثمينة التي أتوقعها بعد كل ولادة فما أعطاني سوى الجفاء والإهمال، فعيناه كقطعتي ثلج أقرأ

فيهما شروداً وحيرة، تجاذبنا حديثاً مقتضباً أثار ريبتي، سألته:

ـ سعيد ما بك؟

أطال التفكير ليفاجئني:

ـ متى ستعودين إلى بيتك؟

ـ ربما سأبقى شهرين آخرين لأني متعبة جداً وأحتاج إلى رعاية أمي.

كان ضَجِراً وهو يلمّح لي أن البيت غير مستقرّ بدوني وحاجة الولدين وتبرمهما باستمرار، فطلبت منه أن يتركهما معي على أن يقوم السائق بتوصيلهما إلى المدرسة، اعترض:

ـ ولِمَ لا ترعاكِ أمك في بيتك؟

ـ ولمن تترك مسؤوليات بيتها؟

وقف مستعدّاً ليخرج:

ـ لا أدري مَن سنَّ هذه القوانين السخيفة؟!

شحّت زياراته، وإذا التقاني بدا متكلفاً لا متلهفاً رغم أني كنت أستعد لاستقباله وأنا بكامل زينتي.

عبّرت ابنتي (نهى) عن سأمها من أبيها، فهو دائم الانعزال في

حجرة المكتب محتضناً جهاز "اللابتوب" ولم يفكر أبداً في الترفيه عنها وعن أخيها.

شعرت بالاطمئنان، يكفيني أنه لم يبرح البيت طوال فترة غيابي لكني لم أنتبه إلى وضعه النفسي خلال هذه الفترة، فقد ألحّ عليّ بشدّة لأرجع إلى البيت وادعيت أن الوقت غير مناسب نظراً لظروفي الصحية المتذبذبة، في الحقيقة استمرأت الراحة في بيت أبي، كنت أنام والمولود في رعاية أمي والخادمات اللاتي تخففن عني عبء المسؤوليات وثقل الواجب فتراخيت في العودة إلى بيتي وأوهمت نفسي أن في بعدي عنه اشتعالاً لأشواقه.

وعدت بعد برهة إلى بيتي نَضِرة، مشرقة ومتجددة لكن استقباله كان بارداً وجافاً إذ تشاغل عني بأشياء أخرى ومضى يتابع البرنامج التلفزيوني وكأني غير موجودة، لاحظته مضطرباً يجتنب الاختلاء بي ويتعمّد البقاء مع الولدين في الصالون، لم تنطلِ عليّ هذه الحيل فبعد أن رقد الولدين في سريرهما جئت لأسأله:

- سعيد، هل في حياتك امرأة أخرى؟

اضطرب وتلعثم:

- أنا؟! بالطبع لا.

سددت إليه نظرة عميقة لأستنطق خباياه:

- في عينيك تختبئ امرأة!

أخفى ارتباكه بابتسامة ساخرة:

- عجيب أمرك.

- سعيد لا تهرب مني، ضع عينيك في عيني.

- كفاكِ هراء.

حاولت أن أصدّقه وعلّلت أن تخميني خاطئ وعولت على خلوتنا ففي الملامسة يتفسر المبهم وينكشف المستور، توددت إليه ملاطفة وأنا أعرض عليه نفسي بقميصي الحريري وتسريحة شعري المثيرة:

- سعيد، ما رأيك بشعري؟

أجاب كمن عرضُت عليه مسألة حسابية:

- جميل.

استدرت بالقميص وقد انحسر عن ساقين بضّتين:

- هل استعدت رشاقتي؟

- ليس بعد.

تماديت في التعبير عن أشواقي وإلحاحي عليه لعلّي أستثير مشاعره لكنه استمرض ومسّد بطنه:

- منذ فترة وأنا أعاني من القولون العصبي.

غنّجته، دللته، داعبته، انتفض كمن لدغته عقرب وادعى أنه ذاهب إلى الحمام.

انفجرت حممي فواجهته:

- لا تكذب.. إن في حياتك امرأة.

عاد بعد فترة قصيرة ليطفئ ضوء الأبجورة ويرقد في سريره.

- نامي الآن قبل أن يستيقظ بدر من نومه.

- أتهرب من الحقيقة؟

زمجر فانتفض الطفل في سريره.

- الحقيقة هي أني نعسان وأريد أن أنام.

غرقت في إحباطي فخلعت القميص وغسلت وجهي من المكياج وألقيت نفسي على فراشي باكية وقد أرقني التفكير فهرب النوم من عيني.

أصبح الصباح ونحن متخاصمان حتى إنه خرج دون أن يتناول فطوره وتركني أغلي كالبركان ومع ذلك تصبرت لعلي جرحته بفراقي الظالم ولم أحذر من الأثر السلبي الذي انحفر فيه فابتلع كل حنانه وطيبته، راقبته عن بعد وطليت معاملتي بمسحة من النعومة واللين لأكسب ثقته وتحذرت من التقريع والتأنيب حتى لا يتمادى في صمته وغموضه لكني لم أجده إلا جليساً في البيت قليل الخروج والتحجُّج بأسباب الهروب كما يفعل البعض ممّن لهم علاقات سرية، وهاتفه أيضاً كان ملقى على الطاولة ولم يبد أي اهتمام لرنينه أو رسائله فهو لم يكن حذراً أو مترقّباً، ليست هناك مؤشّرات على وجود أخرى في حياته.

وما لفت نظري ذلك السلوك الطارئ عليه، إدمانه على الإنترنت، يدخل حجرة المكتب مستغرقاً في عالم الشبكة الملعونة وقت انهماكي برضاعة المولود، حمدت الله عزّ وجلّ أن حياتي بعيدة عن الخطر، فالإنترنت شغل الناس الشاغل ولا ضير في ذلك طالما كان يرتع ويلعب في إطار مملكتي!

بَيدَ أن هروبه مني يثير شكوكي، اضطررت أن إحرجه:

ـ سعيد ألا تعتقد أنك أدمنت هذا النشاط؟

ـ أنا مريض، هذا كل ما في الأمر.

- وهل مرضك هذا لا علاج له؟

- أحتاج إلى فترة من الزمن كي أشفى.

- وما مرضك بالضبط؟

- مرض نفسي.

- وما هو؟

ثار فترك المكان:

- هل هو تحقيق؟

لكني غير مقتنعة، فالزوجة التي تعاشر زوجها سنين طويلة يمكنها أن تقرأه بسهولة وتشخّص كذبه الأبيض من الأسود.

زارتني أمي وأختي صباحاً فاضطررت بفعل الضغط النفسي الذي أعيشه مصارحتها بمشكلتي طلباً للمشورة والنصح، فلم يأخذا حديثي مأخذ الجدّ والاهتمام لظنهما أنني إنسانة مفرطة الإحساس أبالغ في انفعالاتي وأضخّم المشاكل خصوصاً في فترة النفاس الحرجة، حيث تجيش عاطفة المرأة بشكل مضاعف ولكن ثمة خيطاً التقطته في أثناء انهماكنا في الثرثرة، أشارت أختي في سياق حديثنا عن معاناة الزوجات، إلى أن زميلة لها في العمل قد ضبطت زوجها في خلوته وهو يشاهد فيلماً فاضحاً على شاشة

الكمبيوتر وتداعيات هذا الموقف على علاقتهما، انتبهت إلى هذه الفكرة فربما تقودني إلى حلّ العقدة لكنني للأسف لا خبرة لي في تشغيل هذا الجهاز، بَيدَ أني وجدت في أخي (هاني) المنقذ الذي أثق به، استعنت به فهو خبير في هذا المجال وقادر على فكّ الشفرات العصيّة والمعقّدة واتفقت معه ذات صباح على أن يأتيني سرّاً وأدخلته الحجرة وأغلقت الباب وراءه وبيسر وسهولة استطاع أن يدخل إلى البرنامج ويكشف المستور وأنا جالسة إلى جانبه أنتظر ما ستسفر عنه عملية البحث، شهق أخي وهو يبحلق في الشاشة مذهولاً، اقتربت منه متسائلة:

ـ ماذا وجدت؟

قهقه ساخراً:

ـ أجمل العروض!

وقعت عيناي على امرأة بمشاهد مثيرة وبأوضاع مخزية، جفلت مستنكرة:

ـ إذاً كنت مستغرقاً يا سعيد في القذارة.

وتابع أخي وهو يضغط على أزرار الكمبيوتر للكشف عن الخبايا بينما ألقيت نفسي على الكرسي مأخوذة من شدّة الصدمة، رجل

يهجر زوجته من أجل وهم كاذب.

وانبرى أخي يقول وعيناه لا تبرحان الشاشة:

- واضح أن بينهما علاقة غرامية فحوارهما ساخن جداً!

ويقرأ أخي لأسمعه، فهو من طلب منها أن ترسل له صورها، عدت ثانية لأشاهد المرأة بتمعُّن وكأني أعرفها.

سألت أخي وأنا أقلّب ذاكرتي بحثاً عن اسم هذه المرأة، يبدو أني رأيت هذه المرأة من قبل، وأكّد أخي:

- نعم، أعتقد أنها في نطاق معارفنا.

استهجنتها، كيف تسمح لنفسها فعل هذا القبح ألا تخشى الفضيحة؟! وتذكرت ابنتي حينما اشتكت من إهمال والدها لهما وانشغاله بالكمبيوتر في أثناء غيابي.

استأذنني أخي ليخرج:

- هل من خدمة أخرى أقدّمها لكِ أختاه؟

- شكراً أخي.

- لا تقلقي، فهي نزوات عابرة يحتاجها الرجل لسدّ فراغه.

مسحت دمعتي:



ـ كيف لا أقلق وأنا أعيش مع رجل مغيب الوعي، جسده حاضر معي لكن روحه مع امرأة أخرى، فلربما يخطّط للزواج منها.

ـ اطمئني، هذه النوعية من النساء لا يظهرن في حياة الرجال علناً، إنهن طارئات سرعان ما يبتلعهن الزمن ويلفظهن في الحاوية.

وجلست أفكّر في مشكلتي وأنا حائرة أأواجهه أم أتريّث؟ فلربما يثب إلى رشده ويلتفت إلى واقع حياته النظيف، فماذا قدمت له المرأة سوى متعة رخيصة وجسد مستهلك، قمعت غيرتي كي لا أنفجر فأدمّر بيتي لعلّه في يوم ما يشمئز منها ويهجرها.

لم أجد أي خطوة إيجابية فاضطررت إلى مصارحته حول ما شاهدته على شاشة الكمبيوتر، أطلقت عيناه نيراناً مشتعلة:

ـ وكيف حدث ذلك وأنتِ لا تعرفين تشغيله؟

ـ لا تهرب.

أصرّ على مهاجمتي:

ـ كيف فتحتِ الجهاز؟

ـ عرفت، فليس بالأمر المعقّد.

شدّني من ذراعي فأرعبني بنظراته وهو يستجوبني:

- أجيبي وإلا دفعتِ الثمن غالياً.

فصرخت وأنا تحت الضغط:

- أخي (هاني) فتح الجهاز.

صفعني على خدي معنّفاً:

- فضحِتني.. انتهكتِ أسراري وكرامتي، لن أغفر لكِ هذه الخطيئة.. اخرجي من بيتي في الحال.. اخرجي.

فقدت شعوري:

- سعيد.. أجننت.. احذر أن يغلبك الشيطان.

- اخرجي، لا مكان لكِ في بيتي.

رجعت إلى بيت أبي ومازلت معلّقة لا أنا زوجة ولا مطلقة.. وليته يُطلق عليّ رصاصة الرحمة لأستريح من هذا العذاب.



سلوة حياتي

همسة: أفضلُ النّساءِ، أصعبُها مِثالاً.

الحب الصامت غالباً ما يتخذ من القلب محراباً له ولن ينفّس عن كربه طالما كان الآخر لا يعبأ به.

أحببتها ولا أدري في أيّ لجةٍ من العذاب أغرق، فقد كتمت مشاعري وألقيتها في جبٍّ غويط فالروادع تكبح ولعي المحرم وتقمع بوادري من قبل أن تولد.

تفجّر هذا النبع منذ أن دخلت (سلوى) المكتب باكية، لفتت نظري بحزنها المفسّر على طلة مهيبة، كنا خمسة موظفين، ثلاث نساء ورجلين تضيق بنا الحجرة المتآكلة، قد فهمنا بعضنا بحكم التمود والألفة رغم أن الموظفات انطوين على بعضهنّ في ثرثرة نسوية ممتعة إلا أنهن يختلسن إلينا النظرات فيلتقطن خواطرنا بفطنة فحدسهن لا يخطئ وتوقّعاتهن صائبة في أغلب الأحيان.

بدت سلوى بين الموظفتين كالزهرة النابتة وسط شوكتين،

أتابع حياتها اليومية بترقُّب الواله الذي برَّح به داء الحب، وأشعر بها تكابد لتحفظ بيتها، أجلس على مكتبي وأفكر فيها هائماً بينما هي في وادي حياتها تهيم.

تأتينا في أغلب الأيام منكسرة وتبذل جهداً كي تتظاهر بالقوة، لاحظت أن المرأة تفهم المرأة بالغريزة فتلتقط برادارها خطوط الأخرى المبهمة إذ أسمع (مشاعل) زميلتنا تهمس في أذنها محرّضة:

ـ اطلبي الطلاق وإلا قضى هذا الرجل على حياتك.

والأفعى الجالسة على يسارها تنفخ بفحيحها السام:

ـ مازلتِ شابة جميلة "وألف مِن يتمناكِ".

تجفل سلوى مستنكفة:

ـ أعوذ بالله.

ردودها المختصرة تغيظهما، كأنها صفعة على الوجه أو لطمة على الفم ولهذا عندما خرجت من الحجرة استغابتاها بذميم الكلام فأبت غيرتي إلا أن أردعهما:

ـ ليتكما تقدّران عظمة سلوى وقيمة صبرها.

استنكرت مشاعل:

- الصبر؟! الصبر على أذى زوج حتى المهانة؟!

وتتبعها (عواطف):

- إنها تذلُّ نفسها لرجل سيّئ الخلق، خوّان.

ثارت أعصابي:

- أرجوكما احفظا سرَّها وإلا فلن تنجوا من عقاب الله.

تجاهلتا تحذيري دون أن تنبسا بحرف.

لست متطفّلاً ولكني عرفت بعض تفاصيل قصتها وجمعت فصولها المبتورة لأشيّد لها معبداً في قلبي وتخيلت كيف تتعذب زهرة ثلاثينية طاغية الأنوثة محتمية عن إيمان وخلق بمتراس الصبر لكني أدركت فيما بعد أنها مغرمة بزوجها ولا تسمح أن تُمَسَّ كرامته بأدنى شائبة، ألمح إشارات الاستهجان والتحميق في عيني هاتين الماكرتين وهما تغمزان بخبث:

- غبية، تصرف عمرها الثمين في البكاء على رجل!

وأدافع عنها:

- لعلها تعرف معادلة الصبر وما يترتّب عليها من مكاسب.

- استأذنت سلوى هذا الصباح، وعلى الفور نهشتاها بلسان

الغيرة والحسد فهي مجدّة رغم الحزن المتغلغل داخلها والذي يشل أقوى إنسان، أضحت في خاطري الصورة والرمز، النموذج الذي يراودني في حلمي، فهي المرأة المجاهدة التي انسلخت عن أنانيتها ووهبت نفسها للآخر، هي الزوجة الصبور تنام على رمضاء الجوع وتصحو على وقد الحرمان، ترفع كفيها لله متضرعة أن يقبل احتراقها قرباناً، هي الحكيمة حينما يضربها الزوج في ساعة غضب تمتصُّ غيظه بحنان (هل نفّست عن غضبك؟) ولا يغمض لها جفن حتى يرضى عنها الزوج، بل أتوقعها عاشقة حينما تخلو بزوجها في هدأة الليل.

كل قصص التضحية والوفاء تتجسد أمامي بمواقفها الشهمة، في الحقيقة لا يثمن تلك الجوهرة إلا من جرّب أنواع النساء، فقد انفصلت عني زوجتي مكرهاً وبعد أشهر خطبت أخرى مطلقة وتمنيت أن تقدّر ظروفي، لم تدم علاقتنا سوى أيام إذ لم تحتمل انهماكي بأولادي، واجهتني غاضبة (أهملتني طوال هذه المدة فلنترك بعضنا قبل أن تتعقد الأمور..).

وصادفت بعدها نساء كثراً، فلم أجد فيهن الواعية، الصابرة، المؤمنة، المجاهدة التي تحتمل أذى الزوج وتدرك أن الإيثار قيمة

يستثمرها الإنسان في الدنيا قبل الآخرة، فسلوى جسدت الأثرة المستحيلة في زمنٍ قوّض القيم الإنسانية وتركنا نفترس بعضنا بعضاً بدوافع أنانية محضة.

بعد غياب دام أسبوعاً جاءت سلوى مجهدة، كدمة زرقاء قد شوّهت خدّها الأيسر وحاولت أن تطليها بمسحة من الماكياج بَيدَ أن أثرها لافت للنظر، احترمت صمتها كحمامة وادعة تجتنبنا في هدوء ووقار غضضت النظر أنا وزميلي درءاً للحرج في حين أقبلت عليها الزميلتان تسخران منها:

ـ هل كنتِ في حلبة مصارعة؟

وتتبعها الأخرى:

ـ لا أدري ما سرُّ تمسُّكك برجل مريض يا سلوى

انفجرت باكية فولّت هاربة خارج المكتب.

فقدت أعصابي ووددت لو أنهال عليهما ضرباً إذ لم أجد في حياتي أسوأ من هاتين المعتوهتين.

لحقت بها وكأني فاقد العقل، أعمى البصيرة، وجدتها جالسة في كافتيريا الشركة، استأذنتها لأشاركها الطاولة، ولأول مرة أكتشف حسناً بهذا السحر، جمالاً يحفر داخلك دهشة لا تتبدد،

فإن كانت الموناليزا تبهر بغموضها فإن سلوى تُسحر بجاذبيتها، شعرت وكأني أقف على ضفة نهر رقراق أبصر في جوفه نفائس الدرر والجواهر، بادرتها وأنا مرتبك:

ـ أسف لما حدث.

ثم عبّرتُ لها عن احترامي وإعجابي بموقفها النبيل كنوع من الدعم والسند ودفعني انبهاري بها إلى التسلل عبر منفذها الهشّ لعلّي أجد في قلبها الحنون وطناً أسكنه، انتفضت وكأن عقرباً لدغها:

ـ أرجوك، احترم خصوصيتي.

ظننتها لحظة انهيار تفقد فيها المرأة البوصلة فتقذفها موجات الحياة المتلاطمة في حضن أول ملّاح يأخذها إلى شاطئ الأمان، لكنها واعية، عفيفة، حذرة من الذئاب المتربّصة حولها تعرف كيف تفوّت عليهم فرص الاقتناص بحنكة وحكمة.

بعد هذه الحادثة اختفت سلوى وغادرت الشركة بسرية وكتمان لكنها ظلت مزروعة في شراييني، نابتة كالقدر في دمي، المرأة الحلم التي جسدت الرمز المثالي الذي أرغبه.

تركتني أهيم في طرقات الحياة بحثاً عن نسختها، شبيهتها،

حتى التقيت (نوال) في محطة عابرة، أسرتني بلباقتها، بصوتها الرطب المنعش بالكلمات العذبة، صارحتني بأنها انفصلت عن زوجها الانتهازي لأنه كان يبتزّها باستمرار ويستولي على راتبها ليبدّده في الملذات ولهذا قررت أن تحمي بيتها وتصون أولادها وتطرد شره عن مملكتها للأبد.

وجدت في (نوال) بعض البطولات والتميُّز فقد أكّدت لي أن لـ (سلوى) نسخاً شبيهة تصادفنا في طرقات الحياة.

تزوّجتُ (نوال) واكتشفت مخابئ نفسها المريضة، إذ مارست عليّ خدع النساء وأحابيلهن للاستحواذ عليّ، عاشرتها فألفيتها صورة سقيمة موغلة بالأنانية حقّقت مآربها الخبيثة بدهاء ومكر، عادت سلوى إلى سطح ذاكرتي أقوى من قبل، تلحّ عليّ كي أكسر طوق الماضي وأحرّرها من جوفي، جاءت متألقة كالشمس، هفهافة كنسمة الفجر العذبة، نقية كنهر الجنة، أتذكر في لقائي اليتيم بها أني غرقت في بحر عينيها الصافيتين فتطهّرت من رجس رجولتي وعدت دونها بلا روح.

وانطويت على حلمي، سلوة حياتي، أهيم بها وأنسج لها في خائلتي قصصاً وأساطيرَ وأسرج حول طلتها الملائكية ضياء حبي

المجنون فانشقَّ وصلي بزوجتي واتسعت بيننا الهوّة وما عدت أملك طاقة لأبادلها الحب فعاشرتها بإحسان وأديت حقوقها كاملة وتركت نفسي أسيراً لمالكة قلبي ملكة الحور النادرة وأميرة النساء الشامخة، هنّ السراب والعدم، وهي الأصل والخلود، هنّ الظلال وهي الحقيقة، وأعلم أن الله لن يجود عليَّ بأمنية الفؤاد مادامت معلقة في سمائي فنورها المشعُّ في ذاكرتي يبدّد ظلمة روحي كلما ألمّ بي همٌّ وضيق.

راودتني زوجتي هذا المساء وعلى وجهها مسحة دلال سمج:

- إلى متى هذا الإعراض؟

ارتجفت فتبدّد الضباب فجأة وانشق عن وجه كالبدر غطّى بنوره منافذ قلبي فوجدت فؤادي الهالع يهبُّ من رقدته مشتاقاً إلى الضوء البعيد، تنهّدت وأنا أبصر أمامي وجهاً ذاوياً كالثمرة المعطوبة قد امتصّ رحيقها الديدان والسوس.

اعتذرت وأنا أتلحّف هارباً:

- أشعر بتوعُّك هذه الليلة.

تذمّرت وهي تطفئ المصباح وترقد قربي:

- بل قل إنك لا تحبني!



كان إسمها جولي

شعرت وأنا أقترب من مدارها الممغنط بكهرباء تسري في عروقي وأن كل ذرّة في جسدي ترتعش، لا أدري كيف أفسّر ماهية هذا الانجذاب، فكل أبجديات اللغة عجزت عن التعبير.

قد تعتقدون أنها ذات طلّة آسرة وقوام كالخيزران تتفجّر فتنة وأنوثة، كل ظنونكم خاطئة، لأن الجذب الذي أحسسته خارج عن المألوف ولا يتماهى مع قوانين الطبيعة، ففي تصوُّري أن غموض المرأة يفتك بالرجل العاقل لأنه يشحذ خائلته كي يرسم لها صورة راسخة في الذهن ويجتهد في التفكير والتحليل لكنه في النهاية يقع في شباك سحرها الآسر.

امرأة متلفّعة بالسواد، لا أجد في طلتها سوى فخّين من الفتنة يوقعان في أسرهما أمهر صيّاد، فيها من الفخامة والمهابة ما يرغمني على الانحناء خضوعاً، شبّهتها بالقمر حينما يتوارى خلف غيوم داكنة لا يظهر منه إلا ضوء شحيح وهكذا تصرعني عيناها

من وراء نقاب غطّى محيّاها فاستعصى عليّ اقتحام هذه الغلالة.

أترقّبها كل يوم حينما تدخل المحاضرة مع ثلّة من الأجانب لتتعلم اللغة العربية، فأنا أستاذها المتيّم الذي تورّع خوفاً وخجلاً، فعندما تناقشني أضطرب ويحمر وجهي وأقضي وقتاً تعيساً في ملامة نفسي، حاولت استمالتها لكني فشلت، المعلومات المتاحة أمامي عبارة عن مكونات هويتها، أرقام محدودة وكلمات مختصرة فاسمها (مريم) فرنسية الجنسية مولودة عام ١٩٧٩، تحب اللغة العربية وتقرأ شعر بدر شاكر السياب وتعشق جبران خليل جبران كم تمنيت لو أسبر غورها المقدَّس وأبحر في عمق دفائنها الغامضة لأكتشف المخلوقة المحتمية بمتراس أسود حتى صادفتها في إحدى المرات جالسة لوحدها في قاعة المحاضرة، بادرتني على غير عادتها:

- أرأيت أسطول الحرية يا أستاذ، كم أتمنى لو أنضم إلى قافلة الأبطال لأساند الصامدين في غزة.

كلماتها ألقمتني حجراً فأنا أنزلق على سطوحها بسذاجة رجل تقليدي بينما هي في الباطن أعمق، وكان ردّي بارداً:

- بالتأكيد كان مشهداً بطولياً.

دفعتها باتجاه آخر:

ـ هل تجدين صعوبة في استيعاب اللغة مع تطور المنهج؟

ـ حبي للغة العربية هوّن عليّ صعوبتها، فقد ساعدتني مفرداتها الغزيرة في رسالة الماجستير لأني أضطر في كثير من الأحيان إلى الاستشهاد بالأدلة والبراهين من الآيات القرآنية الواردة في الحجاب.

أذهلتني بطموحها، فحرّضت داخلي شغفاً أكثر لاكتشافها:

ـ كم أنتِ رائعة يا (مريم).

واستطردت:

ـ أستاذ، أنا أقدّم رسالة حول الحجاب الإسلامي وفلسفته لأقنع الغرب بأنه منهج حضاري يحفظ عفّة المجتمع وسأنطلق في بحثي لأثبت أن التبرُّج والإباحية سببان لدمار المجتمعات وفساد العلاقات الأسرية.

عرضت عليها المساعدة:

ـ مريم، أنا أملك الكثير من الكتب والمصادر حول الحجاب يمكنك الاستفادة منها في رسالتك.

ـ يسرّني بالتأكيد أستاذي.

استحوذت (مريم) على تفكيري، فهي شخصية تشعرنا بالحرج وتؤكد عجزنا وفشلنا في إصلاح الواقع، امرأة يخيّل لي أنها في منتهى الجمال والأنوثة لكنها جعلت من رأسها الجميل حاسوباً متخماً بالبرامج والمعلومات، تعجبني دوماً نظرتها المحدقة إلى فوق كأنما تقرأ على صفحات السماء غيبيات يجهلها العوام من الناس، تشعل داخلي فتيل عشق أفلاطوني لا يحتاج فيه الحبيب إلى محاسن المعشوقة ليطفئ شوقه.

قررنا أن نلتقي في مكتبة الجامعة لأزودها ببعض البحوث والدراسات فتحمست بشدة ووجدتها تهضم المعلومات بشغف كبير وتستوعب الأفكار بذكاء خارق، وفي إحدى المرات تجرأت بعد أن استجمعت شجاعتي:

ـ مريم، كيف اعتنقتِ الإسلام؟ فأنا فخور جداً بقوة عقيدتك وعمق إيمانك.

انطلق شعاع عينيها كالبرق الخاطف أضاء مدارها الفاحم:

ـ كان اسمي (جولي) أسكن في إحدى ضواحي باريس، أملك حانوتاً صغيراً لبيع الورد، كان يتردّد عليّ باستمرار شاب فلسطيني من مدينة (نابلس) يدرس الحقوق في (السوربون) أثار فضولي

فرغبت في أن أسأله ما علاقتك بالورد؟ ومن هي الشخصية التي تحبها كل هذا الحب؟ فحينما يبتاع الباقة يدسّ الفرنكات في يدي ويرحل حتى كان ذلك اليوم حينما جاء يسألني أي نوع من الورد يعبّر عن الصلح؟ ونصحته بورد الياسمين الأبيض، وأخذنا الحديث إلى عناوين كانت مبهمة عندي حتى اكتشفت من خلال حواري معه أن المرأة مكرمة في الإسلام، فعندما سألته عن حقوق المرأة والزواج والحب شعرت أني أعيش في مجتمع جاهل ومتخلف، دفعني الفضول لأتعرّف إلى خطيبته المحظوظة فجاءت في اليوم التالي، كانت محجّبة، جميلة، مثقفة، ومع مضي الأيام توطدت علاقتنا وصرت أقرأ في الكتب الإسلامية المترجمة وأعجبت بالفكر الإسلامي وتطور الأمر فدخلت في حلقات تفسير القرآن التي تعقد في بيت (باسل) للأوربيين المسلمين، اقتنعت تماماً وقررت أن أنطق الشهادتين بين يدي إمام المسجد في الضاحية التي يقطنها بعض المسلمين واستبدلت اسم جولي بـ (مريم) وهنا كان المنعطف الذي غير اتجاهي في الحياة، إذ فكرت أن أدرس وأتبحر في الثقافة الإسلامية وأنطلق في المسيرة كداعية، سافرت إلى مصر كسائحة لأكتشف حياة المسلمين ومعتقداتهم وطبيعة تفكيرهم وتعرفت

إلى بعض الأصدقاء في الجامع الأزهر الذي كنت أزوره كباحثة وداعية وتزوجت (حكيم) بعد قصة حب ناضجة فهو محاضر في أكبر جامعات أوروبا، عشت معه فترة مزدهرة ورائعة لكنه قُتل في ظروف غامضة.

اختلج صوتها فلاذت بالصمت.

ـ آسف لما حدث.

مسحت طرفها الندي وهي تتابع:

ـ أعتذر لأني أزعجتك بحكايتي.

ـ يبدو أنكِ كنتِ في حاجة إلى الفضفضة.

ـ بالفعل أحتاج إلى عقل يستوعبني كإنسانة تكافح لهدف، فما وجدت حولي إلا إناساً يعيشون في نطاق الذاتية المنغلقة ويفكّرون بحواسهم فقط ويبلّدون عقولهم في التفاهات والقضايا السطحية، فصداقاتي هنا محدودة، فالأوروبيات المسلمات يرغبن في الاستقرار والأمان ولهذا يخطّطن لزيجات تضمن لهن حياة كريمة وتحميهن من أقوامهن الذين يطاردنهن بعد أن اعتنقن الإسلام.

حاولت أن أجسّ نبضها:

- هذا من صميم حقوقهن يا (مريم) ويفترض أن تفكّري مثلهن.

انتفضت واحمرّت:

- لقد قطعت عهداً على ألّا أتزوج بعد زوجي الراحل (حكيم).

رمقتها بنظرة مستهامة واستوعبت من فورها المعنى لكنها سرعان ما أدركت السهم قبل أن ينفلت من المكمن فغضت بصرها.

شابني توتُّر:

- لا تهربي مني.

- أعتذر منك أستاذ، حان موعد محاضرتي.

- وهمت لتنصرف.

كانت لقاءاتنا في المكتبة أجمل أيام حياتي فقربي من امرأة خصبة الفكر، نبيلة الروح يشعرني بالامتلاء والثقة، فهي خاطبت عقلي، إنسانيتي، فكري، وسمت بي في علياء القيم والكمالات الروحية.. أحببت كل شيء فيها، نقابها، شموخها، وأهمَّ ما فيها تلك العينين الفتّاكتين اللتين تنطلق منهما شظايا أنثى مغلولة بالعفّة

والإيمان، فـ (مريم) قلعة حصينة يتساقط على أبوابها الحشرات من الرجال ممّن يخشون العوم ضد التيار.

في مطلع السنة الجديدة سافرت (مريم) إلى باريس لمناقشة الرسالة على أن تعود بعد الإجازة وتركتني أترمّض على فراقها، لم أكن أدرك أن هذا الإحساس الكامن داخلي قد يتحوّل يوماً إلى بركان مشتعل نتيجة غيابها الظالم، انتظرتها طويلاً وأنا لا أعرف ماذا أريد منها على وجه التحديد، فلربما أقف يوماً على رغبتي الغامضة والمبهمة فالزمن كفيل بتفسير المقاصد دون تخطيط وتدبير، ربما وجهها المغطّى بالنقاب كان يثير رغبة القطف داخلي لأني أدرك أن خلف هذا الحصن حقلاً من التفاح والعنب.

كل يوم أقف لأشرح الدرس وعيناي ترنوان إلى مقعدها الخالي، أتخيلها جالسة ككومة سوداء بجلبابها الفضفاض، بخمارها الفاحم، بكل تكوينها المقدَّس.

إنها ومضة نور واختفت.

مريم.. التي كان اسمها جولي.

بنت الجيران

همسة: (أجملُ الذّكرياتِ حبٌّ إذا ذكرتَه أحببت الماضي لأجلهِ) (غوته)

عدت إلى الكويت لأقضي إجازة (الكرسمس) مع أهلي، فكالفورنيا هذا الموسم ضاجّة بالحركة، تعيش كرنفالاً متوهجاً بالأحمر البرّاق وأنا أمقت الصخب والإزعاج فوجدت في هروبي منها خير قرار، وتخيلت كيف سأقضي أيامي الباردة مع أصدقائي الذين فارقتهم قبل سنتين، فمن عادتنا التنزُّه في المقاهي المطلة على البحر وارتياد المطاعم المتخمة بألذّ الأطعمة.. فكّرت في أمي كيف ستفرح بي لأنني لم أعد كبقية الطلبة في إجازة الصيف فقد شغلتني بعض الاختبارات المؤجّلة والتي تداركتها في هذا الوقت.

أشعر بالشوق إلى بيتي وأهلي، والشوارع المسكونة بالدفء "وقفشات" أبي حينما يناديني (يا باش مهندس)، طافت الذكريات الجميلة في خاطري حتى استوقفتني محطّة ظلت تحفر داخلي

شجناً عميقاً رغم مقاومتي لها عن إرادة وتصميم.

هل سأراها هذه المرة؟ يهوى قلبي لقاءها لكني أقمع هذه الرغبة خوفاً من عواقبها، أشياء كثيرة حدثت في الماضي جعلتني حذراً ومتردّداً، كانت تقول لي باستمرار (إنك مختلف عن بقية الناس) فأنتبه إلى فخّها المطلي بمعسول الكلام، لهذا أصمت وأتركها تعبر حتى تيأس.

أدخل البيت الآن لأفاجئ أمي كمارد خرج لتوّه من الفانوس السحري، لكن مفاجأتي فسدت فقد كانت الدار خالية، تلفتُّ في كل ناحية وناديت بأعلى صوتي:

ـ أمي، أبي، خليل، فوزي، حسين.

خرجت الخادمة من حجرتها مترنّحة، سألتها:

ـ لا أثر لأحد؟

نفضت عن عينيها بقية نعاس:

ـ لا أعرف أين ذهبوا.

ـ وأمي؟

أشارت ناحية جارنا (أبو هيثم) وهي تتعثّر في الكلام:

ـ ماما ذهبت لعزاء الجيران.

دُهشت:

ـ عزاء الجيران؟!

غمّ وجهها:

ـ عزاء أحلام.

نزل الخبر كالصاعقة على رأسي.

خرجت إلى فناء الدار مذبوحاً وألقيت نظرة خاطفة على بيت (أحلام) وقد نصبوا سرادق العزاء كما أفضت الخادمة، فالمقرئ يرتّل القرآن وصراخ النساء دلَّ على حرارة الحدث، فكّرت أن أقتحم العزاء وأهتف بأعلى صوتي (أحلام.. لقد عدت) بَيدَ أني تمالكت أعصابي، ولبثت أهيم حول البيت خائفاً أترقّب، بكيت بحرقة وأنا أسرح في شباكها المقفل وطلتها المشرقة كل صباح، خلتها في زمن ما شمسي التي تتوارى خلف حجب الممنوع والحرام، تتكسف الآن في ظلمة القبر جثّةً هامدةً.

تفرق المعزون على مشارف المغيب ووقفت أنتظر أمي لأستعلم منها الحقيقة، أقبلت من بعيد بوشاحها الأسود وحينما رأتني فتحت ذراعيها لَهفَى:

ـ حبيبي، حمداً لله على سلامتك.

احتويتها شارداً، فسألتها دون مقدمات:

ـ كيف حدثت وفاة أحلام؟ هل تعرّضت لحادث؟

أشارت أن أصمت وشدّتني من ذراعي لندخل البيت حتى تُفضي بالسرّ.

ألفيتها تسألني عن دراستي، حياتي الخاصة، لكني قاطعتها متوتّراً:

ـ أمي، خبّريني أرجوكِ، كيف حدثت الوفاة؟

أعربت بعد تردُّد:

ـ انتحرت.

صحت مذعوراً:

ـ انتحرت؟!

أطرقت وهي تكابد حيرة وألماً:

ـ لا أعرف بالضبط، فقد أشيع أنها كانت....

قاطعتها قبل أن تكمل:

ـ أمي أرجوكِ.

- أستغفر الله ربّ العالمين.

- يقال إنها عابثة.

تساءلت وأنا أغلي:

- عابثة؟!

اقتربت لتهمس في أذني:

- قيل إن أخاها قتلها والقضية قيد التحقيق.

ارتعدت فرائصي وغصّت الكلمات في حلقي:

- قتل؟! إلى هذه الدرجة؟ في أي عصر يعيش هؤلاء الجهّال؟

حاولت أمي أن تبدّد مناخي القاتم لكن برغمي يتغلغل الحدث داخلي بآلامه المريرة وذكرياته الأليمة.

سألتني لتنتشلني من هوّة سحيقة:

- ماذا تحب أن تأكل على العشاء؟

- أنا متعكر المزاج وأحتاج بعض الوقت لأهدأ.

وعدت أستفسر عن أبي وأخوتي قبل أن أَلِج إلى الحجرة.

- سيحضرون بعد قليل من ديوانية عمك.

ثم همت أمي بالهاتف لتخبرهم بعودتي.

دلفت إلى حجرتي لألفظ جمرات حزني المكبوتة، ألقيت جسدي المنهك على السرير وكل ذرة في كياني تكابد حزناً وكمداً، تذكرت (أحلام) قبل رحيلي آخر مرة، جاءتني ترتعش مرعوبة فلطالما تعرضت للضرب المبرح من شقيقها الموغل بالسادية، فقد سيطر على كل من في البيت بضراوة حيوان مفترس، فتاة كزهرة الأقحوان نضارةً ورقّةً تنتهك أنوثتها ظلماً وعدواناً وما لها من مغيث أو معين.

تعاطفت معها:

- لِمَ لا تحتمين بأبيكِ وأمكِ؟

تمسح طرفها الندي:

- أمي؟ أبي؟ إنهما سلبيان لا طاقة لهما على فعل شيء.

- كيف يحدث ذلك و هما لا يحرّكان ساكناً؟

- أمي امرأة أنانية سلّمت قيادي لأخي المريض وأبي رجل مدمن غاب عن الحياة.

أذكر في بعض الأحيان كيف ينجلي حزنها السرمدي ويقطر من وجهها الأزهري ندىً أنثوي يفيض حلاوة فتختلج داخلي مشاعر مخيفة خصوصاً حينما تعبّر بفحيحها العذب:

ـ أشعر بحاجتي إلى حبك يا (مختار)

كنت أخشاها حينما تنتفض أنوثتها البكر وتهاجمني مشتاقة فأتصلّب كي أشلَّ مقاومتها وتسقط سهامها على بوابة قلبي الموصدة، وفي أحاديثنا المشتركة نصحتها أن تجتنب مواطن الشبهات وأن تحفظ كرامتها كإنسانة، وتصون عفّتها كفتاة، أخذت بنصائحي ولمستُ عن يقين تحوّلاتها الإيجابية وتعلقها الشديد بي، فكلما أخذتها إلى درب الاستقامة آمنت بي وخضعت، فقد تمكن منها إحساسٌ بالانتماء الراسخ إلي، بتُّ مسؤولاً عنها أخشى عليها أكثر من نفسي وأقلق على غيابها، كانت مخلوقة مضطربة تعاني خوفاً متأصّلاً في نسيجها، حينما تفارقني لأيام أشعر بها تجول في صدري كنبضة حائرة، كنَفَس شائق يتردد، جاءتني يوماً باكية تصطلي بعذاب الحرمان فوجدتها أمامي ممزقة بين جحيم بيتها وجنّة حبي وحناني وأعربت عن أمنيتها في أن نجتمع تحت سقف واحد وعلّلت أني مازلت طالباً جامعياً لا أملك مؤهّلات الزواج، بكت وهي ترتجف كطير مذبوح (لكني أحبك فأنت حياتي، أنت كل أهلي وعزوتي، أنا بدونك ضائعة، شريدة، خذني معك يا مختار).

أتجمّد في مكاني كالصنم لكن في قلبي حمماً تلتهب، وحينما

تغادرني أستغرق في التفكير وأجد نفسي متورّطاً بهذه العلاقة، فأحلام تكبرني بسنوات ومن أسرة وضيعة تفتقد الاتزان والاستقرار، وأسباب نفسية كثيرة تردعني عن هذا الارتباط، ربما جرأتها المخيفة أحياناً تجعلني مرتاباً قلقاً، ولهذا قررت أن أختلق أسباب الصدّ قبل سفري كي تيئس مني لأني مدركٌ أن التجاوب معها يقودنا إلى طريق مسدود، لكني مطمئن إلى أني وضعتها على الطريق السليم وأضأت في دربها شموع الهداية كي تسير آمنة مستقرة، صرخت بعد هذه التصريحات ثائرة:

ـ لكني أريدك أنت.

نهرتها:

ـ أرجوكِ افهميني، لستُ مهيّأً للزواج الآن.

ـ أنتظرك!

ـ لا.. لا تفعلي، أنتِ الآن مؤهلة للزواج والانتظار يأكل سنين شبابك.

جُنّ جنونها:

ـ لا أقوى على فراقك يا مختار.

ـ سأدع أختي سميرة تعتني بكِ في غيابي.

وكادت أن تخترق أسواري لكني صفعتها:

- لا تفقدي صوابك.

طرق الباب أنقذني من حمأة الذاكرة الهادرة.

يقتحم أخوتي الحجرة فنتبادل التحايا والأحضان، يتساءل أبي وهو يتفحّصني بعينيه:

- لونك مخطوف.

علّلت:

- مُجهَد من عناء الطريق.

ثم اجتمعنا في الصالون واستغرقنا في التفاصيل الرتيبة لكني بالكاد أتظاهر بالانسجام، فألمي أكبر من أن أحتويه أو أداريه، ولبثت أنتظر أختي سميرة لأعرف منها ما أُخفيَ من أسرار، اتصلت بها في بيت زوجها وأخبرتني أنها مشغولة مع طفلها المريض وسألتقيها صباحاً.

قضيت الليل مسهّداً أرمق السماء الصافية عبر نافذتي مناجياً ربي، حزيناً، مهموماً، ثم اتجهت بناظري نحو نافذة أحلام المقفرة، لمحتها واقفة بقامتها الملفوفة تومئ بذراعها كعادتها في كل مرة وتشير بأصابعها لتحدّد موعد لقائنا في الحديقة، فثلاثة

أصابع يعني الساعة الثالثة، فقد ابتكرت لغة خاصة بنا أطلقت عليها لغة الأصابع وهي في ظنها أجمل لغة في العالم، كانت تقول (لقد بتُّ أعشق أصابعي وأقبلها كل صباح لأنها حلقة الوصل بيني وبينك)، انسابت دموعي حينما أدركت أن المشهد ما كان إلا محض خيال، فأحلام قتيلة، ترقد الآن في قبرها للأبد، أجهدني التفكير بها وأرّقني انتظار سميرة، جاءتني ملهوفة، جلسنا نشرب القهوة على ضفاف الشهيدة، تنهدت سميرة وهي تجترّ حمماً ثقيلة:

- لقد تعذّبت في فراقك حتى المرض وكنت مضطرة إلى أن أدفعها إلى مزيد من اليأس لتنسى فكرة الارتباط بك.

- وما قولك إنها كانت عابثة؟

استنكرت سميرة فعلّلت غاضبة:

- من يقل ذلك فهو آثم، المسكينة كانت تتعرّض باستمرار إلى الضرب المبرح، فقد كنت أرى آثاره على ذراعيها ووجهها وما من معين أو سند، حاولت أن أدفعها إلى مخفر الشرطة لتشتكي لكنها ترفض خائفة حتى حدث قبل وفاتها بأيام إذ هربت من البيت بحثاً عن الأمن والأمان وظل أخوها يبحث عنها في كل مكان فوجدها لائذة بصديقتها، بعد هذه الحادثة سمعنا صراخ أمها حيث وجدتها

جثّة بلا حراك، فقد التهمت أقراص المنوم كاملة، وثمة خبر تسرب على ألسن الخادمات مفاده أن أخاها خبط رأسها بالجدار فنزفت حتى فارقت الحياة.

- ألم تحقق الشرطة في القضية؟

- نعم التحقيق جارٍ الآن.

انهارت أعصابي وأخذت أجلد ذاتي بمنتهى القسوة.

- أتظنين يا أختاه أني السبب في هلاكها؟

- لا يا أخي، لا تلم نفسك، فقد كنت أميناً صادقاً معها لآخر لحظة.

- أشعر بالغصة في قلبي.

- لا تؤنّب نفسك عزيزي، إنه قدرها وقد استراحت من همّ الدنيا.

- أشعر باللوعة والحنين إليها وكأن جزءاً من روحي قد مات، قطعة من كياني قد تحطّمت.

دهشت سميرة:

- أتحبها إلى هذه الدرجة؟!

ـ لا أعرف بالضبط حقيقة مشاعري، إنما شيء داخلي يبحث عنها، يناديها في كل مكان، ربما إحساسي بالذنب، شعوري بتأنيب الضمير، فقد هجرتها في أحلك الأوقات.

ربتت سميرة على كتفي:

ـ إنها مشيئة الله يا مختار، فلا تعذّب نفسك أكثر من ذلك.

استخرجت كتاباً من حقيبتي:

ـ لقد اشتريت لها قصة (الفضيلة تنتصر) لـ (بنت الهدى) من المطار، فقد نويت أن أقدمه هدية لاقتراب عيد ميلادها، لكن للأسف، الشرّ غلب الخير في هذه الدنيا.

حاولت سميرة تسربة همّي:

ـ اذهب لتزرَ قبرها فإنها الآن في حاجة إلى دعائك.



زوجة صديقي

همسة: مِن يقرأِ المرأةَ قراءةً واعيةً يمتلك قلبَها للأَبد.

فرّقهما الزمن، وأخذتهما الحياة في دروب شتّى، غادر (سليم) إلى أمريكا ليدرس علم الاقتصاد، بينما التحق (علي) بكلية الهندسة، جمعهما (الفيس بوك) مصادفة فقررا أن يلتقيا في المقهى المجاور لمدرستهما القديمة.

جلس (سليم) في إحدى زوايا المقهى ينتظر (علي) وعيناه ترصدان الباب بلهفة، يتذكّر (علي) زميله أيام الثانوية بقامته النحيلة وجبهة عالية وَشَت عن عبقرية مضطهدة لم تنفذ بعد إلى حيّز التجربة.

صرير الباب يتواطأ مع ضجره لكن هذه المرة لم يخب رجاؤه، لقد دخل (علي) وعيناه تحومان في المكان بحثاً عن (سليم) حتى وقعتا على الشاب البدين الذي تطفر حمرة الحيوية في خدّيه النضرين، تعانقا طويلاً ثم أخذا مقعديهما.

علّق سليم باشّا:

- صورتك في الفيس بوك مختلفة عن حقيقتك تماماً.

- لقد كبرنا يا عزيزي وغزانا الشيب.

ثم مازح صاحبه:

- وأنت أيضاً يا سليم لم تفلت من قبضة الزمن فقد فضحتك صلعتك!.

وبحركة لا إرادية تلمّس سليم صلعته وهو يحمرّ:

- للوراثة حقٌّ يا صاحبي.

سأل علي:

أين تعمل الآن؟

- تخرجت من أمريكا وأعمل في إحدى الشركات، وأنت؟.

- أنا مهندس في شركة البترول.

ثم طلبا القهوة وبعض الحلوى وهما يستطردان في استحضار الذكريات أيام المدرسة وزملاء الدراسة وظروف الحياة وأوضاع البلد السياسية حتى انتهيا إلى الجانب الخاص الذي يحذره الإنسان دائماً لكنه - ودون أن يعي - يرجع إليه كنقطة مركزية في دنياه، سأل سليم صاحبه وبدون مقدمات:

- وكيف رأيت الزواج؟.

انكمشت ملامح علي:

- لا تذكّرني بأتعس قرار اتخذته في حياتي.

دهش سليم:

- لماذا؟

- لأن لي زوجة أعوذ بالله منها، نكدية، عصبية، تكثر من الصراخ بدءاً من استيقاظها صباحاً وحتى ساعة النوم، لا تهدأ ولا تستكين، تنزل السلّم وتصعده مئات المرات في اليوم الواحد، لا تكل ولا تمل، تصرخ بالأولاد وتتشاجر مع الخادمة، وتعاتبني، وتثرثر في الهاتف، إنها مزعجة إلى حدٍّ كبير، عندما تهدأ بعض الشيء لتسامرني في سهرة شاعرية سرعان ما تعود إلى طبيعتها فتقفز ذاهبة إلى المطبخ لتطفئ الموقد، أو لتجهز قالب الحلوى لابنها الصغير، زوجتي تتعبها الراحة ويرهقها النوم كأنها دينامو يعمل بطاقة جبارة وأنا بالمقابل متهم بالكسل والخمول والإهمال، أنا واثق من وضعي الطبيعي لكنها تعمل فوق معدلي بآلاف المرات.

قهقه سليم حتى طفرت الدموع من عينيه.

بهت علي:

ـ لك الحق في أن تضحك يا عزيزي، لأنك لم تجرّب حالة الطوارئ المزمنة في بيتي.

ـ بالعكس يا علي فلتحمد الله أن وهبك زوجة متوقّدة، حيوية، نشيطة، فهذا النوع من النساء لا يشيخ أبداً لأنها كالشمس تلتهب ناراً ونوراً فلن تخبو معها أبداً، المصيبة عندي يا صاحبي!.

بُغت علي:

ـ عندك؟.

تنهّد سليم وهو يلملم أفكاره:

ـ نعم يا علي، فزوجتي كائن محنّط، جسد هامد، وكيان ميت، خاملة، عاطلة، ذات عزيمة خابية حتى وهي تبادلني الحديث تجترّ الكلمات من حبال صوتها المرتخية بمشقّة فأتململ منها لبطئها، لفتورها، أشعر كأني أغطس في ماء بارد، ساعات نومها أكثر من صحوها فالخادمة تدير البيت وترعى الأولاد وتطهو الطعام، تزعجني تلك الفوضى، أثور عليها وأتعمد تجريحها تتجاهلني وكأن الأمر لا يعنيها، بيتي بارد، كئيب، ممل، لأن ربة هذا البيت منطفئة فانعكس ظلُّ كآبتها على كل من في البيت، تميل إلى الصمت وكأنها تمثال شمع، تأوي إلى فراشها في حدود العاشرة مساءً فتأتيني

الخادمة لتتفقّدني ما إذا كنت أحتاج إلى شاي أو قهوة، وقد تجرأت ذات ليلة فسألتني لِما أنت حزين يا سيدي؟ وهل بإمكاني مساعدتك؟ تخيل أن الخادمة تتحسّس مشاعري عن قرب بينما زوجتي تهملني!!.

دهش علي:

- يا للهول، إنها نقيض زوجتي تماماً.

- أنت في نعمة يا علي وزوجتك مدهشة. -

وتناهت في ذهن (علي) فكرة طريفة:

- إنهما متطرّفتان، زوجتي في نشاطها الوافر وزوجتك في خمولها الشديد، فماذا لو أذبنا خواصهما في بوتقة لكان الناتج مذهلاً.

- علق سليم:

- ونقسم الناتج على اثنين نصفه لي والآخر لك.

وعاد سليم يسأل:

- أتزوجتها بعد قصة حب أم كان زواجاً تقليدياً؟.

- علي: (زواج تقليدي فقد خطبتها أمي بحكم اختلاطها

بالعائلات المحافظة، فأنا لم يسبق لي أن مررت بتجربة حب لأني لا أؤمن بالحب أصلاً).

غام وجه سليم فانبرى يقول:

ـ أتدري أني أحببت زوجتي قبل الزواج، فقد عرفتها جذابة في غموضها، ساحرة في هدوئها، مثقفة ذات عقلية راجحة، لم أتوقع أنها ستتغير بعد الزواج وستنطفئ بهذه السرعة، حتى إني أحياناً أشك ما إذا كانت صادقة في حبها لي، فالمرأة التي تحب زوجها تجتهد في إرضائه وإسعاده وتغار عليه إن أبدى إعجابه بامرأة غيرها.

قاطعه علي:

ـ الغيرة؟! فحدّث ولا حرج، فزوجتي بركان غيرة حتى إني أضطر عندما أخرج من البيت إلى قفل هاتفي حتى لا تلاحقني باستجواباتها المزعجة، والويل لي إن عدت إلى البيت فاقداً شهيتي للعشاء لأنها لن تغفر لي أبداً هذه الجريمة إذ تحاصرني بأسئلتها الاستفزازية كما لو كنت آتياً من موعد غرام قد أشبعتني الأخرى لذيذ الطعام. يا سليم، أنا من أحسدك على زوجتك لأنها لم تقيدك بحبالها الغليظة وتطاردك بشكوكها المريضة وتتصيد عثراتك لتدينك بها، أشكر الله فأنت حرٌّ طليق.

استدرك سليم:

ـ ألا تعتقد أن هذا من الحب؟.

سخر علي:

ـ حب؟ لا أريد هذا الحب، أريد أن أعيش كأي رجل طبيعي، أريد حريتي التي حرمت منها، فزوجتي قيدٌ يشعرني بالتعاسة.

تمنّى (سليم) في قرارة نفسه لو كانت زوجته بهذه الخواص بَيدَ أنه كتم ذلك الإحساس خشية افتضاح إعجابه.

تساءل علي:

ـ ما بك صامتاً؟.

قال سليم بعد تفكير:

ـ سأكشف لك سرّاً طالما عذّبني.

دنا علي بالقرب من سليم وهمس:

ـ خيراً إن شاء الله.

ـ لقد أخطأت مع الخادمة، فقد قصدت ولأكثر من مرة غوايتي، ربما كان لحضورها الطاغي في حياتي موقع خاص، ففي كثير من الأحيان أقبل على زوجتي ملهوفاً لكن جفاءها يطفئ رغبتي فيها، كم

تمنيت لو ألقي بنفسي في فيضان أنوثتها حتى الغرق لكن شواطئها الجليدية تصدم موجتي العارمة فأرتدّ محبطاً، فاحتوت (سالي) هزيمتي واستولت عليّ بحصارها الدائم بالرغم من أنها لم تكن جميلة أو يرشح منها ريق أنوثة، يحدث أن تشعر بفحولتك تراق بمهانة وليس حولك إلا الشيطان يتحفّز لتلبيتك حتى السكرة.

استدرك علي مأخوذاً:

ـ ألم تعرض زوجتك على طبيب؟ فلربما تعاني من مرض عضوي أو نفسي، فمن غير المعقول أن يعطّل خمولها كل جوانب حياتها ويشلّ حراكها.

أطرق صامتاً ثم واصل:

ـ أخشى أنك تبالغ يا سليم كي تسوّغ علاقتك بالخادمة.

انتفض سليم:

ـ أعوذ بالله ليس لي علاقة بها إطلاقاً إنما كانت لحظة ضعف وانقضت، وقد ازدريت نفسي بعدها وقرفت منها وتمنيت لو أطردها من البيت لكن ليس لي بديل لرعاية الأولاد.

ـ إذاً خذ زوجتك إلى طبيب.

سخر سليم:

ـ إنها تطير بخفّة الفراشة إلى الحفلات والولائم لاستعراض أناقتها، فعندما تُدعى إلى هذه المناسبات يدبُّ فيها النشاط فجأة وتتهندم بأفخم ما عندها من زينة وتهرب بحيوية الغزال خارج البيت.

ـ أنا متأكد أن ثمة حلقة مفقودة بينكما وعليك أن تستشير أخصائياً نفسياً ليرشدك إلى مفاتيح شخصيتها، أشعر أنها تطوي أمراً غامضاً لم تتفهّمه بعد.

تنّهد سليم وتابع:

ـ فكّرت في طلاقها إذ لم يعد هناك مبرر لبقائها في حياتي.

ـ لا تتسرّع يا عزيزي حاول إصلاحها، توجيهها، ألم تصارحها بالمشكلة؟.

ـ نعم صارحتها فردّت بكل برود أن هذه شخصيتها ولن تتغير وإذا لم تعجبني فبإمكاني أن أتركها.

صمتا وهما يتبادلان النظر حتى انبرى علي قائلاً بعد تردُّد:

ـ يبدو أنها لا تحبك.

ـ وهذا ما تأكّدت منه.

غمغم علي وهو يفكّر:

ـ المرأة لغز كبير، تبدر منها تصرفات غير متوقّعة أحياناً.

استرسل سليم في حديثه:

ـ العلاقة الزوجية التي ينقطع فيها التواصل بين الطرفين علاقة ميتة، فنحن لا نتحدث أبداً ولا نتشاجر ولم أسمع لزوجتي صراخاً أو تذمراً، فالزوجة التي تحتجّ وتصرخ وتعتذر إنما هي تريد زوجها، تريد أسرتها، حريصة على أن تستقيم الأمور بالشكل الذي تعتقده صائباً وإن كان أسلوبها فظاً وغليظاً ففي النهاية تذكرك أنها تحبك وتلاحقك لأنك جوهرة ثمينة تخشى أن تخطفها الأخريات، فهذه نيتها، ضميرها، قد تخنقك، تستفزك، تبتز عواطفك، كل هذه الحيل تدور حول معنى واحد (هو الحب)، أنت لا تشعر بقيمة زوجتك يا علي لأنك مشبع، متخم، لا تعرف قدرها، بالضبط كمن لا يعرف قدر عينيه لاعتياده عليهما لكنه لو فقد بصره لأدرك أنه مات في هذه الحياة، اسأل من رقد على سريره دون لحاف كيف يرتجف من البرد، بينما تتلحف بلحافك لتدفأ، أيهما تفضل يا علي؟.

أطرق علي وهو يردُّ بصوت خابٍ:

ـ أكيد اللحاف الدافئ.

واسترسل سليم موضحاً:

- المرأة إذا لم تدفِئ زوجها وتحميه من برد الوحدة وصقيع الوحشة فلا قيمة لها في حياته، لا أهمية لها في وجوده أصلاً حتى لو كانت صارخة الجمال، مثقفة، فأنوثتها الدافئة هي التيار الذي يسري في نسيجه ولحمه وعروقه ودمه فينبت في كيانه الحب ويتأصّل مع الأيام فتأتي أخطاؤها العَرَضية وزلّاتها غير المقصودة منغّصات مزاجية يمكن أن تُغتفر، فالمرأة سكن الرجل والرجل سكن المرأة وهي ثوبه الساتر كما هو ثوبها الساتر كما يقول الخالق عزّ وجلّ (هنّ لباسٌ لكم وأنتم لباسٌ لهنّ)، هذا الذوبان والانصهار يعطي لحياتك وهجاً ومذاقاً فإذا لم تتحقّق هذه الكيميائية كان لزاماً على الزوجين أن ينفصلا.

استعاد علي وهو يصغي باهتمام صورة زوجته، بإحساس مفعم، وبنظرة استكشافية، فالتهب الشوق في قلبه وتمنّى لو يضمّها الآن ملء صدره، فوجئ بسليم يقف مستأذناً وهو يلقي نظرة خاطفة على ساعة المقهى:

- أعتذر منك فإبني ينتظرني في النادي.

صافحه بحرارة:

- كم سعدت بلقائك عزيزي وبخبرتك المدهشة في الحياة وأتمنى أن نتواصل.

- بالتأكيد.

وافترقا كلٌّ إلى غايته، وكانت غاية علي أن يشتري لزوجته باقة ورد، فقد حطّم النظارة السوداء التي جنحت به إلى السلبية والسوداوية في استقراء شخصية زوجته البديعة.

دخل البيت والابتسامة تشرق في وجهه، نادى زوجته وهو يشع ابتهاجاً:

- غفران، غفران.

أقبلت غفران ودبيب قدميها القويتين وهي تقطع السلم يُضحكه، فقد استرجع حديث سليم.. (تذكّر أنها امرأة حيوية!).

بحلقت في الورد مندهشة.

بادر علي:

- إنها تعبير عن تقديري وحبي.

سألته مرتابة:

- ماذا فعلت لتغطي ذنبك بهذه الحيلة؟.

هزّ علي رأسه مردّداً:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

حورية الجنة

همسة: (العفةُ قيمةٌ سماويةٌ لا يدركُها إلّا الشُّرَفَاءُ).

استيقظ على عتمة إلا من بصيص نور يغمر المكان من شقّ نابت في سقف الحجرة، تلفّت حوله مستحضراً ذلك الكابوس المرعب، شعر بالعطش فبحث بمشقّة عن ماء فما وجد سوى صفيحة معدنية مهترئة فيها النزر القليل، شربها بنهم رغم تعكّرها، اتكأ على الجدار منهاراً، فالتعذيب الذي لقيه نهاراً أفقده الوعي وترك أطرافه دامية وقد تروم وجهه من أثر اللكمات القاسية التي تلقاها من قبضات عملاقة، لم يَرَ وجوههم إنما حفظ أجسامهم الضخمة التي فاحت منها نتانة أثارت اشمئزازه، والصوت المكثّف يلتقطه من شبح ينتصف الحجرة متخفياً بدخان سيجارة يظهر بشكل واضح عندما تختفي الأذرع الممتدة لتعذيبه، يسأله:

ـ من هو قائد المجموعة؟ اعترف.

ـ أقسم بالله العظيم إنها تهمة كاذبة، فأنا إنسان لا يدَ لي في هذه الأمور.

الصرخة تقلعه من جذوره:

ـ كذّاب، فقد أثبت رجالنا المخلصون أنك كنت مجتمعاً مع مجموعة مخرّبة.

ـ أنا بريء، كيف تريدني أن أعترف بشيء لم أفعله أبداً.

لكمة قوية تدوخه فيشعر بدوار، يوشك أن يسقط إلى الأرض لكنّ كفين قويتين تتلقّفانه.

يرشّ رذاذ الماء البارد على وجهه:

ـ أفق لتعترف بالحقيقة.

قضى (عماد) أيامه خلف قضبان الظلم يصحو نهاراً على التحقيق والكرباج ينهش لحمه ويسلخ جلده بوحشية.

ما ذنبك يا عماد؟ ما هي جريرتك؟

شاب في مقتبل العمر، له من الوسامة والجاذبية ما أوقعه في براثن امرأة جبّارة ذات فتنة ونفوذ، تذكّر ـ يا عماد ـ نبي الله يوسف (عليه السلام) حينما استحسن كرامة السجن على الحرية المبتذلة، لونه القمحي المعجون بحمرة المغيب وعينان فتّاكتان قهرتا

امرأة متزوجة خرافية الثراء اعترضته حينما توظف في شركة زوجها، لمحته واقفاً إلى جانب زوجها الكهل الذي تراخى جسده وانحنى عوده حتى غدا شبحاً، يتباحثان في شؤون العمل، كان مطرقاً بمهابة، صوته الأجشّ ينساب كتيار دافئ فوق صقيع قلبها، جسده المفتول يتفجّر قوة وشباباً، يتدفق العنفوان يتدفق من نظرته المتنمرة، حينما دخلت استأذنها وخرج منحني الرأس، الجاذبية الممغنطة فيه تركت إشعاعه متوهجاً برغم غيابه.

سألت زوجها وهي تتبع عماداً بنظراتها:

- أليس هذا الشاب بن الحاج عبدالله؟

ردّ زوجها رغم انهماكه في قراءة التقرير:

- إنه (عماد حسين) صائغ برامج توظف قبل شهر.

استحمقت وتظاهرت بعدم الاكتراث.

رفع زوجها عينيه عن الملف ثم تساءل:

- نوّرتِني بزيارتك.

طوقته بذراعيها ممهّدة الطريق:

- أعجبتني سيارة (بي أم) جديدة ذات لون أحمر فلم أصبر مررت عليك لأخبرك عنها.

ولم يجادلها، فرضاها غايته.

ـ حاضر ستكون ملك يديكِ.

قبلته واتخذت لهجتها الجدية:

ـ إذاً لن أعطّلك سأسبقك إلى البيت.

فور أن خرجت من مكتب زوجها سألت أحد العاملين عن قسم الكمبيوتر فقيل لها في الطابق الثالث، وهرعت من فورها إلى المكان الذي اكتظ بأكبر نسبة من الموظفين، تحرجت بعض الشيء فكلهم يعرف مدام (نور) زوجة مالك الإمبراطورية المالية وأجمل سيدة مجتمع عرفها الناس، مطمع الكاميرات المتعطشة إلى الجمال المدهش والأناقة الباريسية الأخاذة، ترصدها الصحافة أينما حلّت أو ذهبت، ذات مشية ملكية تفيض أنوثة وطلة مهيبة تدير الأعناق.

حبست الموظّفات أنفاسهن انبهاراً حينما خطرت أمامهن بجمالها الباطش ورونقها المتجدد، من يصدّق أنها على مشارف الأربعين؟ فالخصر منحوت والبطن ضامر والوجه قمري في استدارة طفولية بديعة، تهافتوا حولها بحفاوة فأظهرت التقدير والثناء وعلّلت حضورها المفاجئ بحاجتها إلى صائغ كمبيوتر مميّز يستطيع أن يبرمج جهاز الكمبيوتر الجديد الذي اشتراه ابنه قل أيام.

تسابقوا لتقديم هذه الخدمة حباً وكرامة بحماس مبطّن بنفاق لكنها اختارت عماداً.

انبرى أحدهم بشيء من الحسد:

- إنه موظف جديد لا خبرة له.

علّلت:

- لكنها فرصة ليثبت مهارته!

طأطؤوا رؤوسهم أمام صاحبة الملك الطاعة وخضوعاً.

وبنبرة رصينة فيها من الوقار قالت موجهة حديثها لعماد:

- أستاذ عماد، سنكون بانتظارك غداً في الساعة التاسعة صباحاً.

شعر عماد بالزهو والافتخار أمام زملائه الذين تغامزوا بإشارات ذات مقاصد سيّئة.

صوت الحارس الواقف عند زنزانته:

- العشاء.

- تنهّد عماد بحرقة، فهو يعرف أنهم يأتون بالعشاء كل ليلة ليتقوى جسده على التعذيب في النهار.

ـ لا أريد العشاء.

زمجر الرجل فكان لصدى صوته دوياً مرعباً:

ـ وهل ستبيت جوئعاً كما فعلت في الليلتين السابقتين؟

ـ أرجوك لا أريد هذا العشاء، الخبز اليابس المعجون بالحصى والرمل سبب لي آلاماً وتقرحاتٍ في المعدة، أعطني ماءً لأتوضّأ.

اختفى شبح الرجل، وقع أقدامه وهي تبتعد يشعره بالاطمئنان.. ورجع إلى ذاكرته ليسترجع الحدث والصباح الذي أشرق في حياته بنكهة مختلفة حينما ذهب إلى (مدام نور) استقبلته بلهفة واحترام شفّا عن امرأة متمرّسة بطقوس الضيافة، جلس في الصالون المطل على حديقة فيحاء تتوسّطها نافورة تمثّل جسد امرأة عارية تحمل على كتفها دلواً ينسكب منه الماء، كانت تعيش طرازاً ملكياً لم يعرفه إلا في القصص الخيالية، فهو شاب بسيط من أسرة متدينة تحفظ تقاليدها الصارمة برغم تبدُّل أطوار المجتمعات، شاغلته بأحاديث خاصة لا علاقة لها بالعمل وكان ينتهز الفرصة بعد كل وقفة ليسألها محرجاً عن جهاز الكمبيوتر كي يؤدي مهمته وينصرف، لكنها تعلّل أن ابنها قفل باب الحجرة ولا تدري أين وضع المفتاح فأبقته حتى عودة ابنها، شرب (عماد) العصير المثلج وهو منكمش غائص في مقعده.

عرضت عليه أن يدرّبها على برامج الكمبيوتر وإذا أمكن توظيفه في مكتبها بعد الظهر لأنها ـ كما أخبرته ـ بصدد مشروع جديد، لم يستطع أن يرفض لها طلباً، لكنها استحلفته أن يتكتم هذا السر لئلا يحسده الموظفون في الشركة! وستضاعف أجره بالتأكيد، وقد ظن عماد أن صاحب الشركة على علم بمشروع زوجته فكان راضياً مستسلماً للقرار الجديد ولم يفطن أبداً إلى نواياها وما تضمره في سريرتها رغم الإشارات الواضحة التي تمهد له الطريق، لأن جل تركيزه كان في عمله وفي مضاعفة راتبه لكي يتسنى له أن يتزوج ويبني أسرة، وقرر أن يجتهد ويبذل ما في وسعه ليكون على مستوى عالٍ من الكفاءة حتى كان ذلك اليوم الذي خلا فيه مكتبها من السكرتيرة وبعض الموظفين استفردت به فغلقت الباب وأخفت المفتاح في الدرج وهي الفرصة السانحة لمحاصرته.. أقبلت عليه في مكتبه بعد أن كشفت عن مواطن فتنتها.

وبصوت يختلج:

ـ عماد.

ارتبك، وجدها متأهبة، تنتفض، يتضرج وجهها حمرة، تفترسه بعينيها الوقحتين.

ـ منذ رأيتك وأنا أتعذب.

وقف مذعوراً:

ـ معذرة سيدتي، سأرحل في الحال فقد انتهيت من عملي.

هاجمته وهي تشده بقوة وأنفاسها تلهث:

ـ لا.. أرجوك لا تتركني، اجلس معي سأعطيك المال والجاه والمنصب، فقط أريد أن تبقى لي صديقاً حميماً.

ابتلع ريقه واضطرب:

ـ سيدتي أرجوكِ.

وشعر بفحيحها المتوهّج كاللهب فوق وجهها الظالم الحسن والرغبة الشيطانية تعتمل داخلها، اختلت رؤيته وتذبذبت إرادته، إنه المأزق الذي يجعله على مفترق طريق، مشى بخطا مرتبكة نحو الباب فوجده مغلقاً.. تذكّر يا عماد (يوسف الصدّيق) عندما غلّقت زليخا الأبواب وأخلت القصر لتهيئ مناخ الفاحشة، قاوم يا عماد كما قاوم يوسف امرأة العزيز أجمل نساء زمانها، لكنه نبيٌّ معصوم أما أنت فشاب محروم وقعت بين كفيك أشهى تفاحة فلا تفوت الفرصة، وتستبدّ (نور) في غوايتها المحترفة مستجدية

استجابته بمذلة، وكاد أن يجن ويفقد صوابه لكنه أغمض عينيه متخيلاً العجوز (أم عمران) بوجهها المتغضن ويديها المبتورتين وفمها الضامر، كانت تشحذ في طرقات الحي، تتفاوت الصورتان ويتناقض المشهدان فترتبك أحاسيسه وينطفئ السعار كلما اشتعل.. فاضطر إلى أن يفكّ رباط حزامه وهو يلهث، ابتسمت منتشية بالظفر، ها هو يستعد، استرخت وقد فترت عيناها، لكنه خيب أملها حينما رفع الحزام ليسوطها ويقهر شيطانه ويهزم النمرة الضارية.. انتفضت قواه الخيّرة فتراجعت نور خائفة مذعورة تغطّي وجهها بكفيها لتحميه من ضرباته القاسية وهي تصرخ:

- أيها المجرم.. توقّف.. توقّف عن الضرب.

وكأنه يخوض أشرس معركة في حياته:

- افتحي الباب وإلا قتلتك في الحال.

ضمرت فتنتها وانكمشت كفأرة حقيرة ملطّخة بالوحل تمشي نحو الباب وهي تتعثر خوفاً، فتحته فهرب من قبضتها الناعمة ومن شباكها العفنة التي ستستدرجه إلى قاع الخطيئة الآسن.

لكنه دفع ثمن عفّته باهظاً، انتقمت منه نور شر انتقام، حينما

لفقت له تهمة انتساب إلى مجموعة مخربة وكان مدير السجن متواطئاً في خسة بعد أن التهم الثمن مقدّماً، قبض على عماد وهو يصلّي الفجر صائماً شاكراً ربّه أن نجّاه من هذا البلاء.

اقترب موعد صلاة الليل وتهجده في وقت السحر، الساعة الغريزية داخله تحدّد له مسارات الزمن بدقة، كان يتقوى بالنبي يوسف (عليه السّلام) ويتّعظ بمحنته وبلائه.

نادى الحارس:

- يا عم، أريد الماء لأتوضأ.

لكن الصوت أرجعه الصدى، تيمّم في الحال واستقبل القبلة، فجأة شعّ نورٌ أمامه وارتسمت في الأثير هالة من النور تقلصت حتى انحسرت عن وجه كاللؤلؤ بياضاً، امرأة خلابة تخطف الأبصار. خفرة، ذات ألق بديع وجسد ملائكي يفيض طهراً ونقاء.

ارتجف حتى كاد أن يسقط مغشياً عليه، لكن المرأة الجالسة أمامه انبرت تناجيه بصوت كقيثارة الملائكة.

- أنا حبيبتك الموعودة في الجنة، أنا يا حبيبي أنتظرك بشوق حتى تنسلخ عن جسدك المادي لترجع لي محض روح.

مسّدت رأسه وجسده فاستردّ قوته وعافيته.

حدّق بها مبهوراً:

- من أنتِ؟

- أنا حورية الجنة، جئت لأسلّيك في وحدتك.

تنهد:

- وكيف وجدتِ الدنيا؟

- الدنيا تغرُّ الأحمق الجاهل الذي هجر نعيم الآخرة من أجل لذّة زائلة.

- ومن أنا لتحبيني؟

- نحن حوريات الجنة لا نتزوج إلا الرجل الذي تعفّف عن الحرام وزهد فتنة النساء في الدنيا وترمّض صبراً وجهاداً.

اغرورقت عيناه بالدموع حينما تذكّر غواية نور التي كادت أن تجره إلى أسوأ مصير.

- أسألك، وماذا لي في الجنة؟

- في انتظارك يا عماد باقةٌ من الحور العين، ونهر من العسل واللبن، وطعام له مذاق لا يخطر على قلب بشر، أبشر فالسعادة السرمدية والحياة الأبدية هناك لا في الدنيا.

خفق قلب عماد فخرّ ساجداً شاكراً ربه داعياً يتضرّع: يا رب حبك هو مبتغاي ورجائي، وما أكرمتني من نعيم فهو من فيض نعمائك وآلائك.

عانقته الحورية عناقاً حاراً فوهبت له قوة أربعين رجل فتفجّرت ينابيع الحيوية والعنفوان وتسوّرت حوله هالة تتكسر عليها ضرباتهم الماحقة، فكلما همّوا بتعذيبه تطّوقَ بغلاف غير مرئي لكنه متماسك كالفولاذ.. خارت قواهم فجعلوا يتهامسون في دهشة:

- من أين لك تلك القوة الخارقة؟!

وعكف على قراءة القرآن الكريم والمناجاة الليلية: يارب وهبتني هذه الكرامة ثمناً لصبري وجهاد نفسي فشكراً لك يا أرحم الراحمين.

وينتظر النور البهيّ كلما اشتاق إليها

- حوريتي أين أنتِ؟

إن السجن أحبُّ إليّ من قصورهم، وأنتِ أحبُّ إليّ من نساء الدنيا، فمعك السجن جنة من السعادة، وتفترش الحورية جناحيها النورانيين في حجرته وتجلس بين يديه مترعة بنضارة الجنة ومعطّرة بريحانها العبق.

أسرّك يا زوجي المنتظر بأنك آتٍ وستزفّك الملائكة لي عن قريب لنعيش في روضة من رياض الجنة.

رمقها بنظرة متسائلة:

ـ أجل حبيبي، سيدسّون لك السمَّ في الطعام وستموت في ظرف ثلاثة أيام وتلحق بي في عشنا البرزخي حيث مستقرُّنا حتى يوم القيامة.

ومن ثَمّ..

قُيدت القضية أن السجين مات منتحراً!



القبيحة

همسة: بالبَصيرةِ نرى ما لا نَراهُ بالبَصَر.

بالرغم من بشاعة طلّتي إلا أني راضية بقدري لم أتوجس خيفة من تداعيات القبح على حياتي، بَيدَ أن هذا الهمّ لا يبارح أمي بل ينحت داخلها قلقاً مزمناً خصوصاً عندما ركبت معظم بنات الأسرة قطار الزواج وبقيت في المحطة وحيدة، فمن يملك قدرة جبارة على أن يهضم وجهاً بهذه الدمامة؟ ثمة هاتفٌ يراودني باستمرار أن الله عزّ وجلّ قد ادّخر لي في طيات الغيب زوجاً مختلفاً عن كل رجال الأرض وأعلّل نفسي بهذا الأمل وأنا في قناعة تامة.

تدهشني نظرات الإشفاق في عيون الناس حينما أخطر بقامتي القصيرة الناحلة ووجهي الدميم... ابتسم ابتسامة تحمل مضامين عميقة لا يفهمها إلا النوادر!

ربما لو رسمت كاركتير وجهي لكان أبرز ما يثير الضحك

أنفي الأفطس والعينان الضيقتان المنسيتان على استدارة وجهي الساذج، تصاحبني الفتيات الشحيحات الجمال كي يبرزن حسنهن في مقارنةٍ تصالحهن على ذاتهن، أغض الطرف عن هذه التفاهات بابتسامة تحمل مضامين عميقة لا يفهمها إلا النوادر!

نهم الرجال إلى فتنة النساء في عالم فضائي مشبع بالإثارة والجنون يقلق كل أنثى تفتقد ذات المعايير الخلّابة لكني أنطلق في فضائي الخاص بابتسامة تحمل مضامين عميقة لا يفهمها إلا النوادر!

دعتنا إحدى القريبات إلى حفل زواج فجاءت بنات خالتي لينقبن في هيكلي الطيني عن منبع حسن فما وجدن إلا عمقاً قاحلاً، أقرت نسرين (يمكنك ببعض عمليات التجميل إصلاح عيوبك).

وباستعلاء الواثق أسرّح شعري وكأني أجمل فتاة، يتبادلن نظرات الدهشة خلسة وأمي تقف خلفنا تترقّب ملهوفة لعلّي أقتبس من ضياء الحسان الملتفّات حولي بعضاً من نور، تفرقن بعد يأس ولكني صامدة في إيماني بذاتي فكل محاولات ابنة خالتي (نسرين) باءت بالفشل.

أسمع أمي تقترح: (لو قصّت شعرها!).

نسرين يائسة:

- على العكس، فالشعر الطويل يغطي أذنيها الكبيرين.

تضع (سهيلة) في قدمّي خفين بكعب عالٍ:

- سيضيف إلى طولك بعض السنتيمترات.

حاولت أن أتوازن في مشيتي المرتبكة لكني هويت على المقعد:

- لم أعتد عليه، آسفة جداً.

خبت دوافعهن وعيونهن تنضح حيرة، وجه أمي المكفهر المنعكس في المرآة وقد اغتمت بشدة تثير شفقتي!

التفتُّ إليهن قائلة:

- دعوني وشأني، فهذا هو المقدّر لي من رب العباد، وهو سبحانه أعلم بتصاريف شؤوني.

في إبهار عبّرت (وسن) ابنة خالتي الصغيرة:

- سبحان من كمّل عقلك، فهدوءك وبرود أعصابك حجّة علينا، فمنذ أسابيع ونحن مستنفرات في قلق متأهبات في جهوزية تامة كل همنا أن نظهر أمام الناس في أبهى حلّة وأجمل طلّة.

وعلّت أمي:

ـ هذه المناسبات كفيلة بالانفتاح على الناس وفرصة لتوطيد علاقتنا بهم بقصد تزويج بناتنا.

وعقّبتُ جازمة:

ـ كل شيء بأمر الله وإذنه.

ـ أكيد بإذن الله يا ابنتي لكن عليكِ بالسعي.

استنكرت:

ـ أسعى في أيِّ شيء يا أمي؟ أن أخادعهم بزينة كاذبة وبريق خدّاع؟

أردفت وسن:

ـ تحتاجين هذا البريق لخطف الأبصار!

لم يؤثّرن في قناعاتي، قلت:

ـ هذه أنا، بملامحي، بصورتي، بهيئتي، إن لم يجد أحد فيّ ضالته فلن أفرض نفسي عليه.

أمسكت عن الكلام مستقرئة في وجوههن ردود الفعل، لكني عقّبت بهذه المقولة:

ـ والزواج قسمة ونصيب.

خرجن بعد هذا الاجتماع وهن يسترجعن أفكارهنّ بشيء من الشكّ.

غادرت معهن إلى الحفل بشعري الأسود المنبسط بنعومة ووجهي المنشقّ عن ابتسامة عميقة لا يفهم مضمونها إلا النوادر.

كلُّهم مساكين!

لا يدركون إلا ذلك الصلصال المعجون بالدم، أديم الأرض المسحوق تحت أقدامنا فبصيرتي هي مرآتي الحقيقية التي أعرض عليها نفسي فينكشف جوهر الجمال المدفون وأجدني في منتهى الجمال وفي منتهى النور، ينقدح من أعماقي ضوءٌ يخترق ظاهر الطين وسطح الجسد ليشفَّ عن حورية مذهلة الحسن قامتها تشمخ حتى السماء الدنيا محبوسة في تركيبها البدني معتقلة في سجن من طين، أراني في كل حين واقفة على شفا روضة غنّاء، فيحاء، ترفل في جنائنها ملائكة ونساء كالحور أغرف من ثمارها الشهية لذة تغنيني عن لذائذ الدنيا الزائلة، وهناك من يأتيني كل مساء بشوق جامح ليمنحني أطيافاً من النشوة وفي ارتقاء يجنح بي نحو كمالات السعادة الأبدية في معراج روحي يسبق الزمان ويفوق طاقة الإنسان القاصر، هل يفهم هؤلاء الناس انعتاق الروح والذوبان الأعمق حتى الغياب عن الوجود؟

طفت آفاق فضاء لا محدود فانتزعت ذاتي الملتصقة بهذا الجلد المشوه الذي كان يحميني من رجال هم في أدنى مراتب الكمال.. اشتكيت لمحبوبي بعد أن حطّت أرواحنا المنتعشة على سرير النور وثوبي الأخضر السندسي يغطّي جسدي اللؤلؤي.

ترهقني العودة إلى الأرض وأمي المسكينة لا تفقه لغتي، اغتسلني بأمطار أنفاسه فشربت من معين عينيه الصافيتين ذوبَ الحب السرمدي.

(سأهبط إلى الأرض كفارس خلاص).

أفقت من غيبوبتي وقد اضمحلّت عن ناظري تلك المشاهد النورانية والتي تراودني كلّما صعدت درجةً في سلّم الكمال، فالجبل الذي تسلّقته سنينَ طويلة حتى بلغت القمة، استنزف جهدي وإرادتي، فجأة وجدت نفسي أبصر من فوق عالماً صغيراً، حقيراً، تافهاً يتلظّى تحتي بسعار الرغبات المميتة للروح والقاتلة للهمة، وصعودي لم يكن وليد مصادفة أو محاولة تجربة بل قرار اتخذته منذ وعيت أني تعيسة في الحياة ولا أعرف سبب تعاستي، وسألت نفسي: (هل قباحتي هي السبب؟) لكني وجدت أجمل نساء الأرض يترمضن على جمر الشقاء والتعاسة، هل لأني يتيمة الأب فكثير

من أيتام العالم سعداء بحكم العظمة والسؤدد الذي حرضهم في سيرهم نحو القمم.

وسألت مئات الأسئلة فما وجدت الأسباب التي افترضتها مسوغات للتعاسة حتى اهتديت إلى سرّ وجودي في الحياة وذلك حينما داهمتني نوبة ربو فاختنقت وكدت أن ألفظ روحي وتراءت أمامي أشباحٌ ضبابيةٌ وهياكل نورانية غريبة ولون الدنيا يتلاشى من أفق حياتي، ومذاق الموت المرير بنكهة حادة يتغلغل فيّ فيحبس شهقتي، وانتبهت بعد صحوتي أني منتشية بالدنيا رغم تعاستي ولازمني رعب فراقها فترة طويلة فشئت أن أبدّد هذا الخوف والذعر، أقدمت على قراءة المصحف والاستغفار وصلاة الليل والتهجد في الأسحار وانطويت على هذه الحقيقة أعلّل نفسي بأمنيات الفوز بالرضى والتسليم، وهنا اكتشفت سعاداتٍ بطعم ألذ مذاقاً، وانغمرت في العمق حتى الأعمق، زهدت الدنيا وروضت حواسي على ترك المعاصي ونأيت بنفسي عن مجالس الغيبة والنميمة، توحّدت في عالم أصفى حتى تلاشت كل الألوان إلا الأبيض الأنقى، واقتطفت من جنان سيري المعنوي زهور سعادتي الدائمة النضارة، قطعت مراحل صعودي بصبر وتأمُل ووقفت في كل محطة وحيدة أتلفت

حولي فإذا بالناس غير الناس الذين عرفتهم، صرت أرى صوراً ملكوتية تناقض حقائقهم الباطنية، فعيناني قد تحررتا من عقلة المادة وأضحى بصرهما حديد ينفذ بعمق إلى منابت الكائنات.

الارتقاء بالنفس لا يعرف حلاوته إلا من روّض روحه على الزهد ومزّق شرنقة المادة التي تضيق عليه الخناق وتقطع عليه طريق السفر إلى الله.

انتظرت فارس أحلامي كما وعدني.. لم يحدّد لي الزمان أو المكان، زوجي المقدّر في عالم الذر، لابد أن نبحث عن مسوغات الالتحام المادي في الدنيا، فكّرت أمي بترميم بيتنا العتيق، إنها أمنيتي لاستقطاع جزء صغير من مساحته للحديقة، إذاً نحتاج إلى مهندس يعيد التصميم.

- (محمد عبد السلام) مهندس بارع صمّم بيت ابني.

هكذا أقنعتنا جارتنا (أم صلاح).

وذهبت إلى مكتبه، شاب، أمين، ترتاح لعينيه المحلقتين خلف أسوار الدنيا، يحدّثني بصوت ترحل فيه الحمائم البيضاء إلى أعشاشها في الجنة، تجاذبنا بلغة لا يفهمها الناس وبنبرة لا يسمعها البشر حتى أدركنا الأمنية المختبئة منذ دهور، فكان البيت

وكانت خطوبتي صدمة لم يفق منها الناس لّا على حفل زواجي.

يتأملني بعينين تشهقان دهشة:

- لم أرَ مَن هي أجمل منكِ.

العيون المتلصّصة يتطاير منها شرر الحسد:

- مهندس جميل وغني، كيف رضي بهذه القبيحة؟

- انظري كيف يلتهمها بعينيه!

- كأنه لم يجد لها مثيلاً في الدنيا!

- إنه الحظّ ذلك اللاعب الماهر الذي يقهر كل أسباب الفشل!

- فعلاً محظوظة!

- لكن ألم تلاحظي أن تحديقهما ببعضهما فيه كثير من الغرابة والغموض؟!

- نعم إنه يحلّق ببصره إلى شيء بعيد!

- هذا يؤكّد أنه مسحور!

ابتسم تلك الابتسامة العميقة التي لا يعرف مضمونها إلّا النوادر!

الشوق والصبر المر

همسة: أخطاءُ الآباءِ يدفعُ ثمنَها الأبناءُ.

ينزف قلبي وأنا أطلُّ من نافذة القطار المتجه إلى مدينة (كامبردج) لألتحق بالجامعة هناك، السماء غائمة تنذر بزخة مطر شديدة تتواطأ مع مشاعري الغارقة في الحزن، أتذكر عينيها الشاردتين ولوعتها الممضة، لمحتها قبل أيام هزيلة، شاحبة، حاولت على عجالة أن تختزن صورتي قبل أن أغادر ما استطاعت، أهدتني المصحف الصغير وكتبت عليه (فليحفظك الله)، لم أكن أتوقع قرار البعثة بهذه السرعة ومبادرتي في خطبتها هيجت المواجع وقلّبت صفحات الماضي وأعادت ذاكرتي إلى الصفر، فالخلافات المستمرة بين الأخوين تركت الكره والغلّ يمزقان أوصال الأسرة ويغتالان كل معاني المحبة والمودّة، رغم أننا كنا نحب بعضنا صغاراً ونلتقط ونحن نلعب تصريحاتهم الطريفة والدعابات المحبّبة: (ريم لطلال) وأننا خُلِقنا لبعضنا، والفكرة حينما تستوطن ذهنك تسري

في دمك كالقدر وتبلور قناعاتك بالرغم منك، وفي طور صبانا انفصلنا بحكم التقاليد لكن بقيت روحانا متلاحمتين ببعضهما.

آه يا (ريم) إن لحضورك في الذاكرة المنكوبة سطوة لن تتبدد، الإحساس المعتّق في العروق لن أستطيع أن أهرب من طعمه مهما حاولت.

قصتنا المعروفة بين الأهل قوّضت كل مساحات الفرقة بيننا ووسمت رباطنا المقدس بوسم التوءمة، حتى إذا ما دخل الأخوان في ذلك المشروع الآثم وقعت الخسارات وإدانة بعضهما دون أن نفهم صلب الحقيقة وضمير الموقف، فاستشرى السمّ في نسيج الأسرة حتى القطيعة والهجران، واستولى الشيطان على القلوب، خبثت السرائر وفسدت الضمائر وبقينا أنا وأنتِ أصفى قلبين نتنفس من رئة واحدة يحدونا الأمل بزيجة مباركة تتوّج حبنا العفيف.

جاءت أمي لخطبتك مدفوعة برغبة سلام لعلّ زواجنا يردم الفجوة بين الأخوين.

هل تتذكرين يا ريم كيف عادت أمي من بيتكم في ذلك اليوم؟

اعذريني رغم حبي وشوقي الجارف فلن أعيد الكرة ثانية، أمي المتغربة عن وطنها جاء بها أبي من جنوب العراق وهي صغيرة،

يتيمة، انقطعت بها سبل الاتصال بأخوتها فكنا لها الماضي والحاضر والمستقبل، كنا أولادها، إخوتها، بل كل عزوتها في الغربة، علمتنا معنى الرجولة وقيمة الشهامة، ألفيتها منهارة، باكية، مكسورة القلب، وداهمتها ليلاً نوبة صداع حادة اضطررنا أن نأخذها إلى المشفى وخشينا أن تتأزم صحتها بسبب ارتفاع ضغطها المفاجئ.

أمي التي لعقت جرحها وابتلعت الغّصة تطمئنني وهي في شبه إغفاءة بعد أن حقنها الدكتور بمهدّئ لتنام: (لا تحزن يا ولدي، فريم من نصيبك).

اعذريني.. قلت لها وأنا في موجة غضب: (والله لو كان زواجي من ريم ماء الحياة فلن أفعل طالما مسّت كرامتك يا أمي).

لا تظني أني تغيّرت بعد هذه الحادثة، أو حقدت عليكِ وضمرت لكِ الشر، وقد تعلّلين أن ليس لكِ يد في كل ما حصل لأمي، فأنا فعلت ذلك نيابة عنك يا حبيبتي وأكثر ممّا تتصوّرين لكني لن أتحول إلى مخلوق أناني يدوس الناس في طريقه من أجل رغبة نفسه، فما بالكِ بأمي التي شربتُ من مَعينها أصفى المحبة والحنان؟

وجدت نفسي في ذلك المساء الكئيب وأنا أجهّز حقيبتي للسفر

أدمن على التفكير فيكِ وكأن قرار انفصالي يذكي شوقي وحنيني إليك، فوجهك الحزين يتكثّف في ذاكرتي بشكل أقوى وأشد، لا تعتبري موقفي انهزامياً بل هو ردّ اعتبار لأم مظلومة أسقطها الزمن في غابة من الوحوش الضارية، تفتك ببعضها من أجل حفنة دنانير زائفة، وتقطع أرحامها طمعاً في سراب خادع، أمي بطيبة قلبها، بحنانها العذب، برقّتها الفطرية جاءت إليكم بمعاهدة صلح وظنت أن مبادرتها جسر نعبر من خلاله على جراحاتنا المتأزّمة، ففي ليلتها جلست معها نتحدث وبحسن نيّة أن الخطوبة كفيلة بتوثيق الروابط وأن خلافات الأخوين أشياء عارضة يذوبها الزمن وتمتصّها الأحداث لكنها تفاجئت باعتراض حاقد عبّر عن عجرفة وغلٍّ دفين رغم أن أبي قد حذرها من هذه التجربة فهو أعلم بأخيه الأكبر وما يضمر لنا من شر بَيدَ أنها استهجنت موقف أبي متعالية على تاريخنا الموبوء واقتحمت السدّ المرصوص بالنوايا السيئة كفارسة تحمل باقة ورد بيضاء وقلباً أخضراً، محاولة سلمية لرأب الصدع، أمك تجاهلتها وتركتها تنتظر لفترة طويلة في الصالون حتى جاء أبوكِ ـ عفواً: عمي ـ ليهددها بالطرد فـ (ابنته لن تهبط إلى درك الفقر المدقع والواقع يقتضي أن يحترم الناس هذه

الفوارق)، لكنها حاولت أن تتجلّد وتتشبّث ما استطاعت بالأرض التي تدور بها ونسفت جدار الوهم:

(طلال ابن عمها ويحبان بعضهما منذ الطفولة وهو متفوق الآن وفي طريقه لإعداد الماجستير في الهندسة، فما العيب أو النقيصة يا أبا ريم إن تزوجّا؟)

نهرها بشدّة:

(اخجلي من نفسك وعودي من حيث أتيتِ)

هل تصدّقين أن أبي لا علم له بهذه القصة؟ فقد تكتمت أمي كي لا تغذّي علاقة الأخوين بمزيد من الكره والعداء.

فحينما لقيها باكية تظاهرت أنها فشلت في تحقيق أمنيتي وأن رفضهم كان مهذّباً.

أرأيتِ يا ريم كم هي نبيلة وعظيمة؟ فكيف أفعل ما يسيء إلى شخصها الكريم ويهين كرامتها ثانية؟!

تخيلي موقفي، فأنا في خيار صعب، بين حبي الراسخ لكِ وبين كرامة أمي، لابد أن أردَّ اعتبارها ولن أسامح نفسي بعد أن وضعتها في هذا المشهد الحَرِج).

وأنتِ تعلمين أن أبي متحصّنٌ بكبرياء زائف وأبوكِ جبّار طاغٍ

لا يلتفت إلينا بنظرة رحمة وحبنا البكر يستشهد في مذبحة الأرحام الدموية وسقم النفوس الضعيفة التي نسيت الله فنسيها، وأمكِ المتكبّرة على أمي والمصرّة على طعنها باتهامات كاذبة وأنها متطفلة على عائلتنا، عرفت كيف تسحر أبي فجُنَّ بها عشقاً وأشاعت هذه الأباطيل بين الناس غيرة وحسداً.

(ريم) نوارة عمري، أعرف أنكِ من صنف آخر، فأنتِ ملائكية الطبع، صافية كالماء الزلال، نقية كندى الأقحوان، لكنّ هناك جراحاتٍ لا تندمل تتجدّد عندما نذرّ عليها الملح فتهيج ثانية.

أطلقت أمكِ على أمي المسكينة نعوتاً شائنة كـ (الجاهلة، الساحرة، المتخلّفة) وهي تعلم أنها سليلة بيت متدين، صالحة عابدة، مفطورة على السماحة والطيبة، جوهرها كالذهب نقاوة وصفاء، هي من كانت تحرّض أبي على الصلح والتنازل من أجل أخيه الأكبر، وكانت على استعداد لأن تضحي بحقوقنا من أجل أن تنطفئ جمرة الحقد، وحذّرت أبي من عقاب الله ومن مغبّة قطع الأرحام لكن الغضب أعمى قلبه فترك الشقَّ يكبر بينهما بسبب العند الأحمق والطمع الأعمى.

ريم..

أعتذر لعينيكِ اللتين طالما كانتا تشرقان في صباحاتي لتبشّراني بالغد الجميل، أعتذر لقلبكِ البريء الذي لا ينساني بالدعاء حينما يخشع لله عز وجل، أعتذر يا محبوبة روحي وشهقة صباي، فـ (طلال) قرر أن ينحر فؤاده ويدفن حبه في مقبرة الزمن، فالقرار المرّ اتخذته بدافع من شهامة ورجولة وفي منعطف قاهر إذ لم أزن الموقف بموازين الواقع، فخاب أملي وانقطع رجائي وتأبى عليّ مروءتي أن أعلقكِ بحبال واهية وأمنية سراب وأنتِ في نضرة الشباب، زهرة متفتحة تنتظر القطف، فالهدف الذي كان يعتمل داخلنا تسمم بمرارة الغموم والهموم، فلم نعد نعرف عواقب علاقتنا والمستقبل أمامنا غامض، وإن العقل والمنطق يدفعانني كي أقمع مشاعري وأحرّركِ من عهدي.

أقولها وأنا أكابد آلامي حتى إني أشعر بقلبي جمرة تلتهب، تزوجي يا ريم، فالله عزّ وجلّ كفيل بأن ينسيكِ الماضي أو على الأقل محاولة نسيانه، فلا أرضى أن يقرض الزمن شبابك بمقراضه القاسي ولا تنتظري محبة عامرة في بيت ملغوم بالحقد، أخشى أن تأكل السنين حيوية صباكِ فتندمي على الانتظار المرّ، فكيف أعدك بأمل وأنا واثق أن معطيات تحقيقه صعبة ومستحيلة، وأنتِ

تعرفينني جيداً لن أسمح لنفسي أن أظلم أحداً وأخوض مغامرة مجهولة العواقب.

كنا في الماضي نحب بعضنا على أمل الزواج ولم نتوقّع أن يد الدهر الخؤون تباغتنا فتحطّم بمعولها جسور الأسرتين فيتحول الأخوان المحبان إلى خصمين متحاربين ويجرّان في هذه الحرب كل أفراد الأسرة دون تفكير ومنطق، وحسب تقديري أن لا انفراج لهذه الأزمة وإن انتظرنا على أمل أن تنصلح العلاقة فلابد أن يكون الثمن عمرك وحتماً تؤمنين أنكِ جوهرة ثمينة عندي ولا أريد أن يطحنها الزمن فيتركها فتاتاً.

كل الوساطات فشلت، وهذا قدرنا الذي يدفعنا باستمرار إلى أن نغيّر اتجاهاتنا بشكل مختلف، لو لم تكن أمي المهانة لتقدّمت إليكِ مرات ومرات ولاقتحمت حصونك العالية وأنا أحمل درعي كمحارب وأواجه الطعنات بكل قوة وشجاعة، لكنها أمي الغالية، أمي التي طُعنت في صميم كرامتها، أمي التي خرجت من بيتكم مهانة، الواجب يدفعني إلى أن أردَّ اعتبارها حتى لو حطّمتُ فؤادي وقمعت طوفانه الجارف وحممه الضارية التي فتكت بصحتي وعافيتي.

كان يجب أن أهزم ضعفي وهوى نفسي من أجل أن تظل أمي

مرفوعة الرأس، فأرجوكِ أنصفيني وأنا في الغربة والضباب البارد يلسع جلدي في أشدّ لحظات الحياة مرارة، أنصفيني من كبرياء نفسي العنيدة فقد كابدت حتى تركت بيت عمتي المكتظّ بالزّوار في ذلك المساء حينما جئتِ لتودّعيني بنظرات منكسرة وحينما غبتِ لم أستطع أن أحبس سيل دموعي المنهمرة رغم أن عمتي حاولت تعزيتي بأمل كاذب، خرجت هائماً على وجهي واتجهت شطر البحر وبكيت بحرقة وشكوت إلى الله ظلامة أهلنا وقسوة قلوبهم، تركت فؤادي المطعون هناك، هل تذكرين المكان الذي كنا نلعب فيه صغاراً؟ (الحوش الكبير لبيت جدّنا الحاج أبو أحمد) حينما كنتُ أتسلق شجرة (الكنار) لأقطف لكِ الحبات الناضجة قبل أن تنهشها العصافير بمنقارها، تأكلين وعيناكِ منتشيتان ووجنتاكِ المتضرجتان تحت حماوة شمس النهار، لفتاتك الواعية كانت تأسرني لأني أشعر أنها تؤكد عمق المحبة، وصمتك المتطرف غالباً ما يدفعني إلى قراءة أفكارك في سياق التخمين والحدس فصرت وعلى مرّ الأيام أجيد لغة خاصة بكِ حتى بتُّ أدرك البواطن بحذاقة ملفتة للأنظار، تركتِ داخلي تاريخاً يصعب نسيانه، غذّيتِ فيّ العزم والشكيمة فتفوّقت، وليالي رمضان حينما كنا نقضيها في

العبادة حتى الصباح، تبعثين رسالة تعبرين فيها (أن ليلة القدر التي أحلم أن أقضيها معك وأنا في بيتك زوجة، أقف مع الأولاد خلفك لنصلّي) ما أروع أحلامكِ يا ريم! إنها تتبلور في ذاكرتي مواثيق محبة.

لا تبكي بعد اليوم عزيزتي.. ثقي بالله أن من ترك هواه من أجل قيمة عليا لن يخيب أبداً، اغسلي أيتها العفيفة جراحاتك وكفكفي دمعكِ وقفي كنخلة باسقة، شمّاء عالية لتكافحي هذه الجريمة كي نصل الأرحام المقطوعة ، فإن هدفنا الأكبر يتحدد في هذا الموقف الذي سنحاسب عليه يوم القيامة، جاهدي يا ريم هذا التيار الفاسد الذي نخر أسرنا بكل قوة وبسالة وسأفعل من جانبي.

وثقي أن زواجنا في مناخ ملوّث بالكره والغلّ حتماً سيفشل، ولهذا أصر على أن نخرج من دائرة حبنا الضيقة ونفكر في ردم الصخور الصلبة التي تقف حائلاً بين الأسرتين.

ريم.. أيتها المحبوبة الغائبة.. سيصل القطار إلى محطة المدينة وسأضطر إلى أن أغلق جهاز "اللابتوب" فاقرئي رسالتي بعمق وافهمي مرمى تفكيري وضميري الصامت وغفر لي عجزي وتقصيري، فيداي مغلولتان، عاجز عن الوفاء بوعدي ولا أفتعل

بطولات على حساب غيري.. سأدفن ذاتي في المروج الخضراء الممتدّة حتى الأفق لألفظ آلامي في فضاءات نقية كي تلتئم جروحي.

انتبهي إلى نفسكِ وتذكّري أنني قبل كل شيء ابن عمكِ وأخوكِ وسندكِ في الحياة.

دمتِ موفّقة بإذن الله.

المحبّ ـ طلال



قطة مفوضة

همسة: (المرأةُ جبَّارةٌ على الرجلُ الضَعيفِ).

يخفق قلبه كلما لمحها واقفة بانتظار باص المدرسة كل صباح، زهرة نقية كثغر الفجر الناصع قد تورع أن يخدش هذا الطهر بنفحة من أنفاسه فاختبأ خلف ستارة النافذة المطلة على الشارع يختلس إليها النظر وما أن يغادر الباص حتى يقفل النافذة ويعود إلى المائدة ليتناول فطوره.

انتبهت أمه لشروده:

ـ أراك مشغول البال؟

ابتسامة هائمة تطوف في وجهه:

ـ أعتقد أن لجارتنا (أم صالح) ابنة في الثانوية.

ـ تقصد (سمر)؟

ـ في الثانوية أليس كذلك؟

اختصرت أمه الطريق:

- هل أعجبتك؟

- جداً، وأفكّر في خطبتها.

بُغتت الأم:

- إنها صغيرة على الزواج، فشابٌّ ناضج مثلك في حاجة إلى زوجة تقاربه فكرياً.

غضب:

- لا أرغب بزوجة تقاربني في عقلي، فالنساء حولي لا يُثِرن داخلي أية مشاعر بل أقرفهن بشدّة، الناضجات اللاتي نافسنني على رئاسة القسم كنّ شديدات المراس، عنيفات يصعب ترويضهن، وغيرهن ممن صادفت في حياتي.

وشدّدت الأم على اعتراضها:

- ستعاني في زواجك من فتاة صغيرة لأنها تفكر بطريقة مختلفة عنك.

- بالعكس، إنها ستكون عجينة طريّة بين أصابعي أشكّلها بمزاجي وذوقي.

استاءت:

ـ توقّع الرفض مقدَّماً.

ـ لا أعتقد، فراتبي ومركزي يغويان أصغر وأجمل البنات.

إنه يحلم بفراشة الربيع الهفهافة، زوجة تنعشه بخفرها المثير، ببريق عينيها، بوثبته حينما يقتحم الشرنقة الخجول، فالصغيرة صفحة نقية لم تدنسها خربشات الزمن، وحدك من تحفر حروفك وشماً أبدياً لا يُمحى، تتخيل في الهدأة رجفتها كعصفورة مبتلة بالعرق، وشهقة خوفها حينما تطفئ الضوء وشهب الذعر تتلبد في عينيها الواسعتين، حينذاك تسكن رجولتك المضطربة، فالفريسة لا حول لها ولا طوّل قد جهلت كل أسباب المراوغة التي تجنح إليها المرأة الناضجة لملاعبة شريكها.

كم من المرات انتفضت بنات حواء عليك بمخالبهن النمرية، تصفّح ذاكرتك، ستستفرغ قرفاً من خيباتك المريرة وهزائمك المهينة أمام قواهن الناعمة كـ (نسرين) امرأة شامخة تتفجر قوة وجاذبية أذكت شعورك بالنقص فهي الأخاذة بمهابتها لم تستطع أن تهيمن عليها ولن يفعل إلا الرجل المتميز، و (هنادي) قد فاقتك ذكاءً وحيوية، و (سميرة) بجرأتها ودهائها هربت منها ذات صباح

فطريقها ملغوم ومبادئها أشواك، ضؤهن الساطع بدد حضورك الشاحب، فهن نماذج قوة تنسف واقعك البسيط وتحرج رجولتك الغضّة، لم تصمد في المناورات الصعبة لتقود بطلات، اتخذت طريق الجبناء فهجرت بلا تسويغ، أسقطت عجزك وفشلك عليهن وتحايلت على ضعفك بأعذار.

لا، لا، هذه الأفكار تأتيه من ماض اختبأ في عقله الباطن، الموروثات التقليدية التي صنفت الرجولة تصنيفاً بدائياً غذّت فيه مبدأ الاستحواذ الذكوري على الأنثى وربما رغب ببعض التطمينات كي يخدّر ضميره الواعي ويعزّز في ذاته تلك النزعة.

يغرق أبوه في نوبة ضحك:

ـ أيها الخبيث، اخترت قطة مغمضة!

وبنشوة الظافر:

ـ ما رأيك يا أبي؟

ـ لقد فتحت شهيّتي!

لكزه وهو يغمز بطرف عينه:

ـ لا تخبر أمك، فهي أصحبت عجوزاً هرمة وأفكر بصبية تجدّد شبابي.

نفخ (أبوه) دخان الأرجيلة وهو يتمتم شارداً:

- كلما كان الفارق أكبر كانت متعة الرجل أكثر.

وتناهت إلى ذهن الأب فكرة:

- يعني حينما تبلغ الأربعين تكون زوجتك في الخامسة والعشرين ربيعاً.

اقطف هذه الزهرة يا (عادل) قبل أن تعبث بها الأيدي.

ثم تابع بعد أن لفظ الدخان:

- أتدري أن الصغيرة تتعلق بك وتعشقك بجنون، فقلبها طريٌّ تزرع فيه محبتك فتشتدّ وتقوى مع السنين، بينما ترتاب من الفتاة الناضجة التي قد تكون إحدى محطاتها العابرة.

اغتبط عادل، فوالده المجرب عزز موقفه ودعم قناعاته، فما حاجته إلى زوجة تناطحه كندٍّ وتحاور عقله فتحرمه لذّة الإحساس بسطوته، فالرجولة الآن تفقد خصائصها كنتيجة لجبروت المرأة المتعطّشة إلى منافسة الرجل والاستيلاء عليه.. مسترجلة بكل ما تعني الكلمة من معنى.. لا أجد رمق أنوثة في أية موظفة صادفتني طوال سنوات عملي، وفتاتي الصفيّة النقيّة، اللوحة البكر رسمتها

بأصابعي ولوّنتها بألوان الطبيعة الخام لن تعرف أحاسيسي معها العطب أو الملل.

كانت حججه وافيه لأمه كي تخطب فتاته فأقبلت على جارتها (أم صالح) في إبطاء وتثاقل، فالفكرة المجنونة لا يهضمها العاقل ولا يتقبّلها المنطق، رحّبت بها الجارة وأفاضت معها في أحاديث شتى حتى ابتدرتها أم عادل:

ـ أين ابنتك سمر فمنذ زمن لم أرها تلعب مع بنات الجيرة في الحديقة.

ـ مشغولة في المذاكرة.

صمتت أم عادل وهي تتلفّت حولها في حرج لأنها تدرك أن هذه الخطبة فاشلة بكل حيثياتها، فربما رفض أهلها عرض الزواج، قالت:

ـ ابني رئيس قسم في وزارة العدل وبمرتّب مغرٍ ومؤهّلاته كفيلة بأن يتقدّم لابنتك سمر و.....

ـ لا أريد أن يصل الخبر لابنتي الآن فتنشغل عن المذاكرة.

ثم استأذنتها.

ـ سأجهّز لكِ القهوة.

ومن فورها اتصلت أم عادل بابنها لتخبره بقرار الأم وفجأة دخلت سمر تحمل صينية القهوة، مازال وجهها البكر يرشف من رحيق الطفولة براءته، قامة ضامرة الأنوثة، تمشي بارتباك، أجفلت أم عادل فهذا اللون الشاحب من الجمال لا يروي ظمأ رجل ناضج مهيب القامة.

ـ أهذه عروس ابني الوحيد؟.

استنكرت.

رجعت محبطة قد بالغت في نقل انطباعاتها السلبية كيما يجفل عادل، فالفتاة تبدو أصغر من سنها لفرط نحولها وشحّ أنوثتها لكن الشاب مقصده (البراءة) أن يحبس قطته المغمضة في قفص الزوجية للأبد فلا تفتح عينيها إلا على وجهه ثم تغمضهما ثانية وهي ذائبة فيه.

لم تثنهِ محاولات أمه عن قراره:

ـ سأنتظر يا أمي ريثما تتخرّج وأعتقد أنها تستحقُّ صبري.

وعاد يترقب حلمه من وراء النافذة كل صباح مستأنساً بحضورها البهيّ وطلتها الخجول حينما تخطر على الشارع بثوب المدرسة وحقيبتها الثقيلة تستريح على ظهرها، مشوارها اليومي

المطبوع في ذاكرته، المشهد الجميل الذي يفتح شهيته للإفطار كل صباح.

بَيدَ أنه افتقدها فلم تخب إلى الباص هذا الصباح كعادتها كل يوم ولهذا انصرف بعد دقائق عدة، قلق (عادل) وأوجس أنها مريضة أو ربما عارض سيء ألمّ بها.. ولكن كيف له أن يتقصى خبرها؟ لبث في مكانه يفكّر في أمها حتى لمحها تخرج إلى الشارع بثوب المدرسة تضم حقيبتها إلى صدرها حقيبتها إلى صدرها وتتلفت في ارتباك فمشيتها المريبة تثير الشكّ وعندما اطمأنت إلى خلو الطريق من المارة أشارت إلى سيارة كانت تنتظرها على ناصية الشارع اختطفتها بلمح البصر.

ترك عادل النافذة ليحلق بالمجرمة الآثمة التي استغفلته طوال هذه المدة، تلفّت حوله كالمجنون فما وجد لها أثراً.. فقد ذهبت فتاته مع الريح وبدّدت معها كل أحلامه.



أيام الخطوبة

همسة: مَن يتّخذ قراراً في لحظةِ غَضَب.. فإنّ مصيرَه النّدم.

أنتظر عقد القران بفارغ الصبر، فمازالت أمها تؤجّل بمسوغات تثير غضبي.. أستفسر في كل مرة لعلّ اختباراتها نجحت، تزعم أننا لم نفهم بعضنا بعد.

لكن تردُّدي على (مليحة) طوال هذه الأشهر يسيء إلى سمعتها.

محاولة لاختصار المسافة.

تصفعني الأم بردّها:

- إنك تدخل بيتنا بإذنٍ منّا.

وحينما أختلي بمليحة أحرّضها على أمها كي تعجّل في زواجنا فالانتظار عبء يرهقني.

تصمت فتستفزّ أعصابي:

ـ ألا تشتاقين لي؟

ـ مشتاقة أكيد.

وأضغط بقسوة:

ـ لا أظن وإلا لتحمستِ لزواجنا.

اغتمت:

ـ هذه إرادة أمي يا محسن لها مبرراتها.

اتصلت أمي بأم مليحة خطيبتي لتستحثّها على إتمام الزواج:

ـ يا أم محسن، أليس من حقنا التأكد من توافقهما كي لا يجدان عذراً للانفصال مستقبلاً.

تعترض أم محسن:

ـ ثمانية أشهر أظنها كافية وآن الآوان لكتب الكتاب.

وعلّلت:

ـ ألم تسمعي عن زيجات حُلَّ رباطها في ظرف أشهر والسبب استعجال الطرفين؟

ـ اسمحي لي، إنك لا تثقين بابني وإلا لما تردّدتِ بهذا الشكل.

ـ لم أتردَّد، إنما أتخذ التدابير المناسبة للحفاظ على سعادة ابنتي.

غضبت أم محسن:

ـ وابني؟! إنه في حاجة إلى الاستقرار، فكّري في إحساسه، في رغباته، لقد صبر بما فيه الكفاية.

لانت أم مليحة:

ـ صدّقيني إنها إجراءات عادية، وسيتمُّ الزواج وهما في حالٍ أفضل.

قضيت اليوم طوله أفكّر في اليوم الذي ترقد فيه مليحة قربي نعيش لحظاتنا الحميمية بدفء وانسجام، تقلّبت على جمر اللوعة، تغويني عيناها الناعستان يطفح منهما بريق الوجد، طرأ لي خاطر، فاتصلت بها، صوتها الدافئ ينساب في عروقي كالبلسم، خضوعها السلبي يشحن رغبتي في ضربها، ردودها الغامضة تشحذ غيظي فأطاردها برغباتي الجامحة فتختبئ في قوقعة الصمت:

ـ لمَ لا تحبينني؟

حشرجات صوتها وهي تبكي على الهاتف تستعطفني، تهمس:

ـ الله يسامحك.

ومضيت في هجومي:

- أنذركم وأمكِ على وجه الخصوص إن لم تستعدوا للزواج خلال أسبوعين يذهب كلٌّ منّا في طريقه.

هتفت بتوسُّل فاستنفرت كل جوارحي شوقاً:

- محسن.. انتظرني.. أنا أحبك.

حسمت أمري:

- لن أتراجع عن موقفي ودعي أمكِ تقرّر عنكِ.

تركتها لأيام تعاني من مرارة الكأس التي شربت منها، فلتقاوم استبداد أمها المتسلّطة، فأمرها نافذ حتى على زوجها المسكين الذي سلّم قياده منذ الليلة الأولى وفتاتي رقيقة، حالمة، تدفن رغبتها خشية أمٍّ جبّارة تهوى السيطرة الحمقاء دون منطق وعقل، نصحتني أمي أن أهجر خطيبتي وأبحث عن أخرى خشية أن تستضعفني أم مليحة فتقودني ضمن قافلتها البائسة، استشرت قلبي فكان هواي في مليحة النموذج المغاير لأمها.

بعد تهديدي بأيام جاءني هاتف ناري أحرق كل مراكبي وقطع عليّ خط الرجعة:

- كيف تسمح لنفسك أن تفرض علينا شروطك التعسفية؟

صوت الأم ينذر بعاصفة.

احتفظت بهدوئي:

ـ فكّرت أن أتحرّر من سلطتك.

ـ سلطتي؟!

ـ وموقفي هذا لن يتغيّر، سأنتظر اتصالك القادم لنحدّد موعد الزواج.

ـ أتفرض علينا رأيك؟

ـ بل أنتزع حقي.

وتحدت:

ـ آسفة.

ـ وأنا آسف أيضاً.

فسخت خطوبتي وشرعت أفكّر بالبديلات لأردَّ اعتباري بعد هزيمتي هذه، وقرّرت أن أسحق قلبي تحت قدمي حتى لا أسمح لامرأة جاهلة أن تهدر كرامتي فقد خاب ظني بمليحة، توقعت أنها ستنتفض وتحطم قيد جبنها وتقاتل من أجل استرداد حبنا، لم تتصل ولم تبعث رسالة توضّح موقفها.. اغتظت منها وتأكدت أنها

وأمها نسيج واحد، تأسفت على أيام عمري التي ضاعت في الانتظار هباءً، طويت الماضي واستأنفت البحث عن زوجة فخطبت إحدى قريباتي وشرطت أن يتمّ الزواج في ظرف أسبوع ولبت أسرتها طلبي، عشت مناخاً مضطرباً وضعني في فوضى انفعالية تفقدني ضبط مشاعري، فزوجتي (سميرة) قدّمت لي مائدة شهية مترعة بكل صنوف اللذة والمتعة لكنّ في أعماقي شيئاً لا يفسّر ظل يتوارى خلف جدار الإهمال والتعتيم لكنه عاد ليظهر بوضوح حينما سمعت صوتها يهمس في أحد صباحاتي:

- إن نسيتني.. فأنا لم أنسَك.

خفق قلبي المرهف فهتفت ملهوفاً:

- مليحة!

- مازلت على عهدي وسأظل حتى آخر رمق في حياتي.

كابدت دموعي:

- أرجوكِ أنا لا أستحقّ حبك، وغير جدير بوفائك، ولكن قلبي مشغوف بك ينتظر طلتك كل مساء.

بعد خلافي الأخير مع أمك لم أعرف موقفك بالضبط، وظننت أنك متواطئة معها.

ـ أخذت مني التليفون وحرّمت عليّ الاتصال بك وعندما سمعت خبر زواجك اطمأنت أن لا عودة لنا.

عنفتها:

ـ لِم هذه السلبية، لم رضختِ لقرارها؟

أقفلت الهاتف، فقد لهثت حتى تغلغلت أنفاسها في شراييني فاشتعل الشوق في دمي.

الفتاة التي همت بها نحرت قلبها بقرار ظالم، جذورها رابضة في أعماقي لم تُجتثّ أبداً رغم زواجي وانهماكي في المسؤوليات، عدت إلى البيت وأنا منشغل بها، لمَ أقفلت الهاتف؟ مؤكّد أنها لا تملك تعليلاً واحداً لموقفها المتخاذل، بلغ بي الفضول لأعرف ما ستؤول إليه حياتها بعدي، إنها قطعة مني لا أستطيع أن أبترها بقرارات واهية، تاريخها المطبوع في ذاكرتي يتجدد كنور الشمس فألفيت نفسي أفكّر فيها بحسرة وألم، خصوصاً بعد الضجر الذي ألمّ بحياتي. زلزلني هاتف أمها الأخير:

ـ مليحة مريضة بسببك، أتدري كيف تلقت خبر زواجك؟!

استجمعت أعصابي وصرخت:

ـ أنتِ السبب.

ـ نعم أنا السبب، لكن أرجوك لا تتركها، تحتاج إليك الآن.

لم أتصوّر أنها تطوي كل هذا الحب بين ضلوعها وأن خلف جليد الصمت حمماً تغلي، هل أخطأت التشخيص أم غلبني القدر؟ فردود افعالها الساكنة أوحت لي أنني رجل تقليدي لم تعبر معه خط النار، تعابيرها السطحية شككتني بنواياها وما موقفها الأخير إلا المحك الذي ترجم انهزامها السريع.

زوجتي سميرة تستنطق صمتي:

ـ محسن، هل كنت مجبراً على الزواج مني؟

فوجئت:

ـ ولم تسألين هذا السؤال؟

ـ لأنك لا تحبني، حتى في أوقاتنا الحميمة عيناك تنافقاني وأصابعك تنفر مني.

عبّست وجهي، فلا طاقة لي على الحديث:

ـ هكذا أنتن النساء لا يستقرّ أمركن إلا بالنكد!.

صدمتني بالدليل:

ـ لأنك سهوت وذكرت اسمها.

خلجت ولم أجد عذراً جاهزاً، فعلّلت:

- إنها شكوك ووساوس.

- ربما.

النار في صدري لا تخبو وزوجتي (سميرة) محدودة الأفق وتعيش الحالة الزواجية في إطارها الجاف، لم تتغلغل إلى شراييني وتنفعل مع نبض قلبي، تعطيني جثة متبرّجة وفي جهوزية محرّضة لكن روحي تتلظّى وتنوء بهمٍّ ظل يراودني حتى تمكّن مني.

تُقت إلى مليحة فذهبت إليها بإذن من أمها وانتظرتها في الصالة التي كنا نلتقي فيها أيام خطبتنا، مازالت الطاولة الخشبية المستديرة على حالها وبقايا القهوة على المفرش وساعة الحائط يلفظ لسانها كل ساعة طيراً يغرّد كنا نغرق في الضحك وكأنما شرطيٌّ يحذرنا من غيبوبة العشق، الزفرات الحارّة حينما نرغم على البعد أسبوعاً كاملاً، خوفنا من أمها وأبيها وأخوتها وهم يتلصّصون علينا كي نحذر أية ملامسة، هذا المكان شهد أول نبضة حب في حياتي، ظننت أني حينما فسخت خطبتي أنسلخ عنها والغي قدراً له طعم البقاء المرّ في روحي، في هدأتي تخترقني موجات قلبها المعذّب وهو يصطلي بلوعة الفراق.

جاءتني متلفّعة بروب أزرق، نحل عودها واحتقن وجهها من حرارة الحمى، صمتت كعهدي بها لكني تركت عينيّ تغزوان سطحها الصامد لأتغلغل إلى بركانها المتوقّد، فهمت الآن شعاع عينيها كيف يسلبني الوعي وبريق الشوق يتقادح في نظراتها.

أطرقت منهاراً:

ـ أعتذر لما حصل يا مليحة.

طفرت الدموع من عينيها.

ـ كنت أقاومك حتى لا أظهر في حياتك ثانية فأدمر زواجك.

ـ وأنا قاومتك أيضاً فما استطعت، كنت معي حتى وأنا في أكثر الأوقات قرباً من زوجتي.

علّلت موقفي:

ـ كنت في فورة غضب وتحدٍ لقسوة أمك، شُلَّ تفكيري فتزوجت أول فتاة وافقت على شروطي.

تنهّدت مليحة:

شهور وأنا أعاني يا محسن، زواجك كالخنجر في صدري، هانت عليك محبتي فهجرتني.

وقفت وأنا أنتفض:

ـ سأطلق زوجتي في الحال لأني لا أحبها وهي تعلم ذلك ولا أريد أن أظلمها أكثر وأعدك أننا سنعقد قراننا على الفور، فحياتي دونك صعبة ومستحيلة.

استنكرت الأمر:

ـ لا تظلم زوجك، لن أبني سعادتي على حطام غيري، أرجوك لا تحمّلني ذنب هذه المسكينة.

لكن الفكرة اختمرت في رأسي فصمّمت على أن أفاتح سميرة بموضوع الطلاق لأني لا أحتمل امرأةً قلبي نافرٌ منها.

وبينما كنا على مائدة الغداء وجدت الفرصة سانحة لأضع النقاط على الحروف لكنها تنحنحت لتمهد حديثاً يغرغر في حلقها، فابتدرتني دون مقدّمات:

ـ أنا حامل.

غُمَّ قلبي وانعقد لساني.

ـ متى؟ وكيف؟

ـ ذهبت هذا الصباح إلى الطبيبة وفحصتني وتبيّن أني حامل في شهرين.

تمتمت وأنا شارد:

ـ مبروك.. مبرو...

وبلسان قاطع ردّت:

ـ مبروك علينا نحن الاثنين.

تراجعت عن قراري الأخير وأنا أفكّر في قرارة نفسي عن مخرج لأزمتي العاطفية!



شلة الأنس

همسة: الطّريقُ إلى جهنّمَ مَفروشٌ بالنّوايا السيّئَة.

الطريق إلى "الشاليه" كان غامضاً بعض الشيء رغم أنه اهتدى بالخريطة المفصلة أمامه فقد صادفته منعطفات مجهولة لا يدري أي منها يقوده إلى الهدف حتى أدرك مخرجاً فرعياً قاده إلى صحراء رملية قاحلة، التفت حوله فوجد أسلاكاً شائكة تسوّر مصفاة للبترول، بحث عن منفذ قريب يأخذه إلى الشارع العام فما وجد سوى رقعة شاسعة تبتلعه لوحده، تقدَّم إلى الأمام لعلّه يخلص من ورطته فما وجد إلا طريقاً يستدير به فيعيده إلى نقطة البدء، الشارع العام كان مكتظاً بالعربات والشاحنات ويبدو أنه قريب المسافة لكنه لا يعرف كيف يصل إليه، يحسبه على بعد خطوات فينطلق ملهوفاً بَيدَ أنه يحبط، فما ظنَّه خلاصه لم يكن إلا سراباً، توارت شمس النهار خلف غلالة حمراء، فنورها الذي اهتدي به قد شحب.. انتبه إلى نفاذ وقود السيارة، خبط بكفه المقود غاضباً

فقد ترك تعبئة الخزّان على أمل أن يتزوّد من الوقود في محطات الطريق، (إنه يوم سيّئ جداً)، تمتم منزعجاً.

اتصل بـ (سامي) مستنجداً فكان تلفونه مغلقاً، وهاتف آخر:

- أرجوك (شهاب) أنقذني من هذه الورطة فقد دخلت متاهة لا أعرف كيف أخرج منها.

وطفق شهاب يرشده إلى تفاصيل الطريق بينما ذبذبات الهاتف اللاهثة تتواطأ مع ظرفه الحَرِج، يقلق من نفاذ البطارية، لكنها خذلته أيضاً فقد خمدت أنفاسها وانقطع الاتصال.

اغتاظ:

- اللعنة على الشيطان.. ما أتعس حظي!

ادلهمّ المكان وشابه خوفٌ وحذر، ترك سيارته وافترش الأرض بخرقة بالية وطفق يفكّر، يطيل النظر في السماء الداكنة وقد غطت سحب الدخان فضاءها الكئيب، شمّ الرطوبة المشبعة بالقطران الأسود فضاق صدره وخشي أن تدهمه نوبة ربو فترديه أشلاء.

تلثّم بغترته وأطلق بصره في الرقعة الشاسعة ربما يصادفه شبح إنسان ينجيه من هذا المأزق، لفظ أنفاسه المحبوسة بمشقّة، إنه مغلول اليدين، لا حول له ولا طول، ليس أمامه سوى تلك السماء

العابسة في وجوم قد أضفت عليها هدأة الليل مهابة مريعة، بكى كطفل فقد أمه وأطلق العنان لروحه المنقبضة دون كابح من وقار الرجولة.

ثمة أملٌ في عامل داخل المصنع أن يخرج مصادفة لينقذه، كل شيء محتمل المهم أن يقاوم اليأس، لكنه متعب ومرهق فهو لم يتناول شطيرة الجبن التي اعتاد عليها كل صباح، ساعات طويلة وهو يدور في الدوامة تائهاً حتى استسلم لقدره محبطاً، فأنّى له أن يعبر هذه المسافة وإشارات الخطر تردعه أينما اتجه، صور الجماجم المرعبة تذكره بالموت فربما سيحل ضيفاً على هذه المقبرة!

المصفاة الشاهقة تبدو في سكون الليل كأحد زبانية جهنم، فالنار الملتهبة في جوفها تتوعّده بجحيم أحمر، يشعر أحياناً أن يداً مجهولة ستأخذه وتغلّه في قعرها للأبد بينما شلّة الأصدقاء تنتظره، كل شيء حوله مبهم ومقيت، محرقة التكرير، الرطوبة اللزجة، عرقه، أنفاسه المختمرة بلعاب بائث.

- ليتني اعتذرت!

- ليتني رضخت لإرادتها!

أطرق ساهماً يتذكّر شجاره في الأمس مع (نرجس) وفي نبرتها غيظٌ دفين:

ـ ألا يمكنك الاعتذار.. فغداً نحتفل بتخرج أخي الصغير، وسيجتمع الأهل فبماذا أبرر غيابك؟

عجز عن الرد فتعلّل بسبب واهٍ:

ـ ويحرجني أن أرفض دعوة صديقي إلى الشاليه.

حاولت أن تكتم غيظها:

ـ الأقربون أولى بالمعروف.

ـ قولي أنني متوعك.

ـ من عادتك أن تضعني في أحرج المواقف، تخيّل أن جميع أخواتي سيحضرن برفقة أزواجهن بينما أدخل الحفل أغلّف تقصيرك بأكاذيب.

ـ هذه المناسبات تخنقني فلا تضغطي عليّ أكثر من ذلك.

وأدبرت نرجس عنه في السرير ولم تخفّ إليه كعادتها كل صباح لتجهز له فطوره، ارتدى ثيابه "من سكات" وخرج من قبل أن تعرقله مستجدّات أخرى، فالحلم بليلة حمراء في الشاليه يراوده في يقظته ونومه، فقد استعدّ صاحبه (سامي) لأمسية تجمع شلة

من صحبه في اللعب واللهو، فمنذ زمن وهو يخطّط لهذا المشروع وقد عرف بطرقه الخاصة أن يحصل على بعض المشروب وكل مستلزمات السهرة الحمراء كالورق وأفلام مثيرة ووعود (ريهام) بإحياء حفلة راقصة حتى يشقشق الفجر على بقايا فتنتها.

فمنذ متى وهو عازف عن الدنيا زاهد في أطايبها وملذّاتها رهين زواج كالسجن المقيت وزوجة باردة تفقد نكهتها كلما طال بها الزمن وتقدَّم العمر، فقد لهفت نفسه إلى أجمل أيام حياته وقت أن كان عازباً يسهر بحرية وينهم ما لذّ وطاب من متع الدنيا الشهية حتى تزوج وانصرم شبابه في الواجبات الثقيلة والروتين البغيض، ونرجس دفعته إلى هجر ماضيه متخذة من مدار أهلها المحدود وطناً لا يفارقه إلا بشطحات من المكر والاحتيال، وحينما دعاه (سامي) إلى ليلة الأنس أقسم ألّا يفرط بهذه الفرصة حتى لو كانت زوجه ممددة على فراش الموت، إنه يحتاج إلى قسط من الحرية ليمارس الأشياء التي غبت منذ زمن، ويلقي بجسده المترهل في البحر كي ينسى وجه نرجس الصارم الذي يبقى محتفظاً بسمت الناظرة حتى في أشد اللحظات حميمية، أن يفجر نبع الرغبة الذي عطب من قبل الأوان، بلغ الأربعين وكأنه أقرب إلى الستين، شاخ

من قبل أن يحصد سنابله، فقد أنهكته زوجةٌ متطلبة، تمنى يوماً أن تمزّق أغلال تحفظّها لتلين بين يديه كدمية لعوب، نسيته كرجل وفرضت عليه طقوس الأبوة باكراً (أبو ليث) النداء الحازم رهين ضوابط ثقيلة تلجم نزوته، تمنى لو تلاطفه باسمه المجرد كفنانته المحبوبة عندما مثّلت بغنجها الأنثوي المستدر للرجولة مشهداً مثيراً وزوجها العاشق يلاعبها كقطة أليفة فتموء حوله بصوتها الدافئ حتى تدرك غليله.

نرجس تتجاهل رغائب نفسه الدفينة فهو يشمئزّ حينما تقوم وتقعد لاهثة، فجسدها البدين ودمها البارد يخمدانه، إنها تغتال رجولته مع سبق الإصرار والترصُّد!

كان جاهزاً لينطلق، فقد مهّد الطريق وفرشه بالأمنيات اللذيذة، محظوظ بهذه الدعوة التي تمرُّ كسحابة صيف في حياة رجل أربعيني يطوي شبابه ومن العقل أن يغتنمها دون تردُّد.. لكنه لا يدري في أية لجّة من الحيرة وقع فقد خسر الليلة النادرة عندما ابتلعه ذلك التيه ولا يدرك سره ومعناه ولبث يتخيل في حسرة متعة أصدقائه بينما هو في الصحراء يكابد وحيداً.

انتصف الليل فاستولى عليه همٌّ وضيق، الفضاء من حوله

يغرق ـ في العتمة، استوحش واستبدَّ به خوفٌ عميق، ارتعشت أطرافه واستحوذته أفكار الماضي وتوقه إلى نرجس يوم كانت غضة، تذكّر بشيء من الحنين دفء بيته، سريره، الشاي المعطّر الذي تعدُّه زوجه كل ليلة وهو جالس أمام التلفاز، ثمة حزنٌ ينهشه ويطبق على قلبه، توسّل إلى ربه مستغيثاً لكنه تراجع فاتراً فهو يدرك ـ في قرارة نفسه أيَّ سبيل اتّخذ؟ طريق ملغوم بالنوايا السيئة فهل تستجاب دعوته وهل تهطل عليه أمطار الرحمة بعد أن خطّط لدرب الفاحشة عن قصد وعمد؟

- إنه عقابك يا ربّ.. حكمك العادل.. جزاء من استهان بحكمك.

ها أنت تقف لوحدك ـ في صحراء مظلمة، نائية، قد تلدغك أفعى فتقتلك أو عقرب سام يقرصك، ربما ذئبٌ يفترسك، ستظل هنا منسيّاً ـ في متاهة حتى تفارق الحياة، بلع ريقه الناضب فقد جفّفت الشمس منابع مائه فأهلكه العطش، الطقس حار والهواء ملوث بالدخان، وضع بائس، لا يدري كيف ينجو بنفسه، أصعب موقف صادفه ـ في حياته، لو تصفّح أوراق عمره لجاز له أن يجعل من يومه المنحوس هذا محطة مفصلية مهمة تنقله من هاوية الضياع

إلى قمة السفح حيث يبصر كل انهياراته وخيباته الأخرى بعين الاستخفاف والتفاهة.

شرع يلعب بالرمل ويقلب بأصابعه حبيباته الحارة قلّب أفكاره نادماً، الصمت المقدَّس حينما يتغلغل بإشعاعه داخل الإنسان يبدد ظلمات الشيطان الرابض في النفس.

رفع رأسه فلمح من بعيد قطيع غنم والشاوي يهمّ باتجاهه، استبشر فقفز ملهوفاً يلوّح بذارعه إلى الراعي، الأمل الذي بزغ كنور الشمس وسط صحراء مقفرة، صرخ: (النجدة، النجدة)، حركة الشاوي وهو يتقدّم إلى الأمام بدت مضطربة، فقد حاول أن يدفع بعصاه الغنم كي تسرع الخُطا، نفذ صبر (أبو ليث) فركض نحوه حتى أدركه لاهثاً، بادره الشاوي مندهشاً:

- ماذا تفعل هنا؟

قال بعد أن التقط أنفاسه:

- حدتُ عن الطريق فضاع المقصود.

- أهذه سيارتك؟

- أشار إليها الشاوي بعصاه.

ـ أجل، لقد نفذ وقودها بينما كنت أبحث عن المخرج إلى الطريق العام.

أشار الشاوي بعصاه نحو الشمال:

ـ في هذا الاتجاه تخرج إلى الشارع العام.

بُهت وكاد أن يبكي:

ـ من هنا؟!

ـ نعم.

ـ ولكني مررت في هذا الاتجاه ولم أنتبه فقد حسبت أنه مغلق.

ـ مقدّر لك يا أخي، ربما هي حكمة اقتضت أن تمر بهذه التجربة، فكل شيء عند الله بمقدار.

انتفض من أعماقه وبكى وهو يغمغم (هل استوعبت الدرس أيها الأحمق؟).

وصل إلى الطريق العام وأشار إلى سيارة أجرة مارّة في الطريق وكان عليه أن يقرّر عندما سأله السائق عن وجهته: إما يواصل السير نحو الشاليه المشؤوم أو يعود إلى البيت، (لن يكمل المشوار إلى آخرّه فقد أنذره الله وحذره).

استيقظت نرجس على صرير الباب وهو يفتح:

ـ عدت؟!

ـ تعطّلت سيارتي في الطريق السريع.

ارتابت من أمره لكنها لزمت الصمت، بينما خرج إلى الحجرة الأخرى يهاتف (سامي) ليعتذر، دهشته نبرة صديقه الحزينة وهو ينعي فاجعة صديقه:

ـ كانت سهرة كارثية، فقد خرج (أحمد) ليعوم بينما كنّا نشوي اللحم نرتع ونلعب على الشاطئ وفي موعد العشاء انتبهنا لغيابه، بحثنا عنه فلم نجد له أثراً، ابتلعه البحر، هكذا وبغمضة عين، اتصلنا بالنجدة والإسعاف فعثروا عليه بعد مشقّة جثّةً هامدة، تركنا كل شيء وعدنا نجترّ الحسرة والندامة.

انهار جسده فاتكأ على الجدار وهو يتمتم كالمخبول:

(وهذا الدرس الثاني.. رحماك يا ربّ).



جرح النمرة

همسة: لا يتكبّرُ إلّا وضيعٌ.. ولا يتواضعُ إلّا رفيعٌ.

هكذا عادتي كل صباح..

أقصد المارينا - وتحديداً مقهى (بوول) - لأتناول فطوري: كوب الكابتشينو وقطعة الكرواسون، أنتظر النادل ليأتيني بالطلب بينما أتابع أعمالي في "اللاب توب" الذي بات يرافقني كحقيبتي اليدوية.

أردُّ على الإيميلات المرسلة إلي من المراكز التجارية وشركات التجميل لأقتني أجود وأندر السلع، فأنا أملك مؤسسة تجارية تعمل في استيراد وتصدير أدوات التجميل والماكياج والعطور والساعات الثمينة.

قرّرت أن أنحت في الصخر قدري كي آخذ وكالة إحدى الماركات العالمية، فقد تغلغلت في السوق وعرفت أسرار التجارة فسوقت بضاعتي وغطيت جميع المحلات والحوانيت ولي طموح أن

أبلغ العالمية في إنتاج عطر مميز أو سلعة تذهل الناس، استهوتني التجارة فانغمرت فيها حتى العظم.. فالأرقام استولت على تفكيري، عقلي "ماكنة" تهضم الأشياء وتحوّلها إلى أرقام، حتى الناس حولي أقيمهم كأرقام ويلاحظ زوجي (هيثم) أن لساني يعدد في منامي جداول من الأرقام تارة أجمعها وتارة أطرحها فذاكرتي آلة حاسبة دقيقة وسريعة، ربما أغفو أو أفقد الوعي لكن تبقى الأرقام مهيمنة على ذهني، الأرقام تعني لي الشيء الكثير: رصيدي في البنوك، أرباحي، خسائري، إنها مكونات حياتي الأساسية، حينما نجلس على المائدة تثير تساؤلاتي أطباق الطعام فطبق الأرز الذي نتناوله كل يوم لا نفكّر كيف ارتفع سعره في السوق، البطاطس التي نحسبها سلعة رخيصة يتضاعف ثمنها دون أن يعرف المستهلك ما وراءها من عمليات حسابية محضة، المقياس الرقمي يشغلني عن مذاق الطعام ولذّته، بل إنه يغدو مُرّاً حينما أتذكّر جشع بعض التجار واستغلالهم.

- ألم تعجبك الكفتة؟

يوقظني (هيثم) من شرودي.

لم أعرف إلا طعماً واحداً ألا وهو سعر اللحم المتذبذب هذه

الفترة، استرجعت في ذاكرتي الحروب الباردة التي يشنّها بعض التجار على بعضهم البعض لغزو السوق والاستفراد الجشع بالساحة.

ابنتي (منال) رقم واحد، لم أرغب في إنجاب غيرها، فلا وقت عندي للاختباء أربعين يوماً تحت ذريعة فترة النفاس ولا طاقة لي على تحمُّل أعباء الرضاع، يكفيني أنها كبرت وكنت أقيس طولها وحجمها بالأرقام، كان هذا شغلي الشاغل حتى كبرت وغدت فارهة وبحجم مثالي، الأشياء الأخرى التي تثرثر بها الأمهات مجرّد قضايا فارغة عقيمة لا تعنيني، فالأم الناجحة هي من تبني صحة أولادها بالحجم والطول المثاليين، الأرقام أخذتني إلى غابة من الوحوش تفترس بعضها بعضاً حتى تطرد الضعيف عن دنيا المال شرَّ طردة، كان عليَّ أن أربّي مخالبي وأنيابي وأدخل معارك شرسة مع ثُلة من الثعالب والنمور، وكلما ربت ثروتي تعطش العربيد داخلي إلى التهام الخصوم بينما حلمي الموعود يبرق سناه في ضباب حياتي فأنجذب إليه كالمسحورة: (تأسيس أعظم إمبراطورية مالية في الشرق الأوسط).

ـ مزيداً من القهوة؟

يسألني النادل.

أقفلت جهاز (اللاب توب) لأغادر المقهى.

ابتسمت وأنا ألقي "البخشيش" على الطاولة:

ـ أكتفي بهذا القدر.

خرجت إلى مكتبي منتعشة يرشح جسدي من رذاذ الصباح البارد وندى النهار الرهيف وأتذكّر أن بانتظاري ساعات عمل مرهقة إذ لا يمكنني مباشرتها إلا بعد أن أنعش مزاجي بفنجان قهوة ساخن، حينما أدخل يقف في استقبالي طابور من الموظفين والموظفات أشقّ الصف متبخترة كالطاووس غروراً وتكبُّراً، فالتفخيم والتعظيم يطربانني لأنهما حصاد كفاحي المرير وثمار جهودي الجبارة، إنها عقليتي الفذة التي أهّلتني لهذا الطراز بعد أن طويت الماضي يوم كنت ذرة نكرة فوق ثرى الفقر ورفلت بفضل نجاحي إلى السماء كالثريا، الأيام تصقلني من جديد فتبلد إحساسي وما عدت أشعر إلا وأنا أطحن ذاتي وأدور بآلية وقسوة لأصنع الثروة، الروتين اليومي يفقدني المتعة بالحياة والإحساس بالناس، أنفق المال في بذخ فاحش ربما لأشبع غروري ولأضفي مسحة الطغيان على حياتي المثيرة.

دُعيت إلى مؤتمر سيدات الأعمال في (جنيف) وكنت على أهبة الاستعداد، ذهبت إلى السوق للتبضُّع، استهوتني الثياب الرسمية ذات اللون الرمادي والأزرق الداكن، الكنزات الرجالية استرعت انتباهي فهي تضفي على طلتي مهابة ملكية، ولمحت الأحذية المعروضة في الفاترينات فوقع ناظري على المسطحة فالكعوب العالية لا تليق بسيدة أعمال جبّارة!

أما الحقيبة الأنثوية فوجدتها نشازاً مع هيئتي الرسمية، عرجت في طريقي على أشهر صالون تجميل تؤمّه نساء الطبقة الثرية، تركت رأسي لـ (حسناء) أمهر كوافيرة على الإطلاق.

- أتحبين استايل (هيلاري كلينتون؟!)

حسناء تعجبني لأنها تستقرئ ذوق الزبونة بذكاء.

وسألت في خجل:

- ألا تجدين أن ثمة شبهاً بيننا؟

هكذا عادتها في استمالة الزبونة:

- بل أنتِ أجمل بكثير.

خشيت أن تضعني في مصاف المذيعة العالمية (أوبرا) فأنا لا أملك ملامحها الوحشية وجثّتها الضخمة.

أعددت نفسي لهذه الرحلة تمام الاستعداد، ذاكرتي الرقمية تأخذني باتجاهات عملية بحتة فنسيت وأنا في غمرة انشغالاتي زوجي (هيثم) وابنتي (منال) فقد وكلت شؤونهما إلى خادمتي (ميشيل) فهي تنوب عني في غيابي، إذ لم تعد هذه التفاهات البيتية ذات قيمة في موازيني الرقمية، أسافر وأرحل في المواسم والفصول وأنا باردة الأعصاب، ناضبة المشاعر، فالزمن استلّ ذلك الحسَّ الرهيف داخلي ربما أمرّ في حالة انقلاب في كيميائية جسمي مع انحلال نسيجي الأنثوي ورقتي الفطرية فكل من يعاشرني يلمس غلظة طبعي وفظاظة خلقي، لم أنتبه إلى تبدُّلات مزاجي إلا عندما فرّطت بقلائدي وأساوري فهي قيود وأصفاد تشعرني أني جارية، الألوان الزاهية والثياب المزركشة تغادر خزائني وأدراجي لأنها أدلّة ضعفي وسذاجتي، أغاظتني (منال) عندما اشترت لي في عيد الأم عقداً من اللؤلؤ لتلف رقبتي بطوق خانق، ما عدت أميل للتبرج والزينة.. (هيثم) لا يعبأ بي إنما يترك لي الحبل على الغارب.. ربما اتقى شرَّ نمرة متحفزة للهجوم، يشاركني المائدة صامتاً مجتنباً كل حديث صادم لعلّه يهاودني مرغماً كي يجتنب قتال الأزواج.. اعتزلته في حجرة خاصة عن قصد.. فالاحتضان يجفف

منابع الشوق، والبعد يضرم في الرجل حيوية، وجدته يهضم أفكاري بسهولة ويعفيني من صراع الزوجات وهن يكدحن لتلبية الرجال.

عدت باكراً هذه الليلة بعد اجتماع استنزف طاقتي وألقيت جسدي على السرير فغفوت، استيقظت فجأة وتذكّرت أنني لم أتناول قرص (الليبيتور) الخافض للكولسترول، خرجت إلى المطبخ لأجلب الماء، استوقفتني همهمات الخادمة.. اقتربت من حجرتها وأرهفت السمع إلى الحسيس المريب تجمدت في مكاني، دفعت الباب فضبطتهما معاً..

وبوجه جامد خالٍ من أي انفعال اعترف هيثم:

- إنها زوجتي على سنّة الله ورسوله.

هجمت عليهما لأفترسهما وأنا ثائرة:

- خادمة؟! تخونني مع خادمة أيها السافل.

تقف ميشيل بصلافة وهي متلفّعة بقميصي الأصفر:

- لم أعد خادمة.. بل سيدة مثلك.

صفعتها:

- اخرسي.

لم يتوار عن خجل أو يتورع عن خوف بل ألفيته يتحداني ويشعل فتيل غيرتي انتقاماً:

ـ أحبها وليس لي تعليل آخر.

ثم رمقني بنظرة ازدراء:

ـ سأخرج مع زوجتي لأعيش معها في أي جحر في العالم، فلم يعد هناك ما يربطني بك.

وبلمح البصر جهّزت (ميشيل) حقيبتها لتغادر معه.. وفي طريقه صفعني بإهانة جرحتني في الصميم:

ـ آسف، لا أستطيع أن أعيش مع رجل!

وفي ومضة تراءت أمامي مشاهد خيانتهما وانغماسهما بعلاقة عاطفية استوت ونضجت في غفلة مني.

أعلن هيثم زواجه على الملأ فطالتني الأقاويل المهينة، امرأة بهذا الوزن يتزوج عليها الأحمق خادمة!! وأحسست أن سياط اللوم لا ترحم والألسن النبّاشة لا تصمت وكأني بأصابع الناس تشير عليّ ساخرة (النمرة استبدلها زوجها بفأرة).

قاومت الواقع لأثبت لنفسي أنني في أوج قوتي لكني ـ وللأسف الشديد ـ سقطت في وحل الضعف والهوان، اغتظت منهما وتمنيت

لو أقطعهما إرباً إرباً، كيف استغفلني واتخذها زوجة؟ أريد أن أسترجع كبريائي المهزوم أمام الشماتين والمغرضين، لكن لا حول لي ولا طوَل.

ـ ماما أنتِ السبب.

طعنتني ابنتي بخنجر ولذت في صمتي عاجزة وانتابتني بعد هدأة وسكون نوبات غضب عارمة تفترسني بشراسة.

ـ الحقير الذي استبدل بي حشرة.

تقيّأت كل الأرقام التي ابتلعتها طوال هذه السنين حتى انتهيت إلى خواء وصرت أغذي في نفسي أنه رجل تافه لا يستحقُّ إلا أن أبصق في وجهه، لكن أربأ بمكانتي كيف تحتلها خادمة.. فجرح قلبي لا يطيب.. القصة افتضحت نفختي الكذّابة وعظمتي الوهمية، الأيام المريرة تعيدني إلى الصفر حيث لم أكن شيئاً، ففي اجتماعاتي أنسى ما أعددت من برامج، وتكرّر النسيان وضعفت ذاكرتي المستنزفة في التفكير الانتقامي ورغبتي في تحطيمهما تشغلني ليل نهار، هل ألفق للخادمة تهمة لأطردها خارج البلاد؟ خيالي الإجرامي يجنح إلى الثأر منهما!! كم من الاجتماعات ألغيت، وكم من الدعوات سوَّفت

رفضت، هل هانت عليّ نفسي لأحبسها في سجن المرارة والعذاب؟ لم أنم طوال هذه المحنة.

خرجت باكراً هذا الصباح لكني لم أعرّج على المقهى كعادتي لأتناول فطوري بل ذهبت إلى المحكمة لأرفع على (هيثم) قضية خلع، فقد رفض أن يطلقني عنداً وانتقاماً لعلّه يسترد رجولته المهمشة طوال سنين الماضي.. الآن عرفت أن صمته انفجر بعد طول كبت!



حنين وحرمان

همسة: جوهرُ الحنينِ هوِ إدراكُ أنَّ ما كانَ لن يعودَ أبداً.

(ايزنهاور)

جلست أمام التلفاز شاردةً ترتشف الشاي برتابة وملل، النور الخافت يلقي بظلاله على صفحة خدّها الأسيل، اجترّت حسرات الوحدة والحرمان، سنوات زواجها تنصرم في القلق والفراغ فقد تناهبت زوجها مطامع الثراء والسلطة فهمّشها على رصيف الحياة.

استلقى على الأريكة وأخذ يثرثر بما لا تطيق فثار غضبها:

ـ شركاتك لا تعنيني، صفقاتك لا تثير اهتمامي، فأقفل هذه السيرة أرجوك.

ترك المقعد ونام على سريره، خرجت إلى الصالة تقلّب قنوات التلفاز لعلّها تجد فيها بعض السلوى والعزاء، تذكرت نوبات طفلها

فغالباً ما يصحو مفزوعاً بفعل كوابيس غريبة تراوده في منامه، أقبلت لتطمئنّ عليه، سحبت عليه الغطاء ووقفت تتأمّله وترتشف من مَعين براءته فيضاً من الراحة والهدوء، حائرة، لا تدري ما تفعل فقد ضيعها (صالح) في زحام الحياة، سنين طويلة وهي بانتظار أن يفهم لغتها كأنثى تتعطّش إلى الحب، كم تتمنى لو ينتبه إلى إعراضها ونفورها فيمنحها بعض الحنان، دلفت إلى حجرة النوم وقد غطَّ (صالح) في نوم عميق، شخيره يدكُّ رأسها كالمطرقة، انتبهت إلى القصص والروايات التي فرغت من قراءتها قبل أيام، قلبتها وكأنما تتعرف إليها للوهلة الأولى، معظمها يدور حول قلوب متعطشة إلى الحب، استلقت جواره، حاولت أن تنفض عنها الوساوس لعلها تغفو، لكن شخيره المزعج يستفز أعصابها، شدت ذراعه:

ـ صالح.

انتفض مذعوراً، همهم وهو شبه غاف:

ـ نعم.. نعم.

ـ أرجوك كُفَّ عن الشخير، نم على جنبك الآخر.

أدار ظهره فصفع أحلامها بكل قسوة.

هزّته بعنف هذه المرة:

ـ انهض لتكلّمني.

لم يعرها التفاتة.

امتعضت وكان لابدَّ أن تجد منفذاً للهروب من كوابيسها المتأزمة فما وجدت غير خيار واحد.. (النوم).

تمدّدت وكل خلية في جسدها متشنّجة وقد أحسّت أن في مخيلتها جداراً سميكاً يفصلها عن زوجها، مالت بوسادتها ودون وعي منها إلى طرف السرير وتبرمها من حياتها بلغ حدّاً لا تطيقه.

الزوجة العصابية التي تنتظر طلوع النهار بشغف، تزيح الستارة القاتمة لتستقبل شمس الصباح، الضجة اليومية تنتشلها من تفكيرها القاتم، الخادمة تجهز الفطور، طقطقة الملاعق والصحون، ماكنة العصير، همهمات أحمد على المائدة، وقع نظرها مصادفة على الشجرة المجنونة وقد تعملقت فغطت جدار الحديقة، وتساءلت كيف سقتها يد الغيب حتى ضربت جذورها باطن الأرض فاستوت قوية شديدة تتمايل غصونها كقدود الحسان، فهي صامدة رغم حرارة الصيف تقاوم بشجاعة وصبر.

نداء صالح يقلب المعادلة:

ـ هيّا يا (هدى) لنتناول الفطور.

تكلّفت الابتسام، لفّت جسدها بقميصها الحريري، وتفاءلت ربما الشاي هذا الصباح مليء بالأمنيات الرائعة، دفعت إلى زوجها كوب الشاي:

ـ نحن مدعوان هذا اليوم على الغداء.

ـ أين؟

ـ في بيت عمي إذ رجع (مصطفى) من فرنسا وقد أعدّت والدته مأدبة غداء بهذه المناسبة.

أعرض ببرود:

ـ اذهبي لوحدك.

قاطعته:

ـ وأنت؟

علّل:

ـ أنا لا أستطيع، مشاغلي كثيرة وأرجو أن تعذريني.

غاص قلبها في صدرها فعبّرت باستياء:

ـ إنها ساعات قليلة ثم تعود إلى شغلك.

حسم أمره:

ـ أعتذر جداً، بلغي تحياتي إلى عمك.

ارتدى أحمد ثياب المدرسة وطفق يشد ذراع أمه قائلاً:

ـ ماما فلنذهب إلى المدرسة.

الواقع يلفها في دوامة من الروتين والرتابة ولم تعد قادرة على التكيّف معه، خرجت تقطع مسافات الحيرة والضياع ثم انعطفت نحو حيٍّ هادئ صُفّت على جانبيه أشجار النخيل في نسق واحد، الحياة تأخذنا في متاهات كثيرة وتنعطف بنا نحو محطات غير متوقّعة.

فتحت باب السيارة، قفز أحمد كالقطّ مستطرقاً بوابة المدرسة وقبل أن يغيب أومأ إليها بذراعه مودعاً وابتسامة حب ترتسم على شفتيه، وبادلته بقبلةٍ حنون، اطمأنت على أن الشريان الأمومي مازال ينبض بحرارة، فطفلها هو الأمل الذي تستمد منه روح البقاء، لم تشأ العودة إلى البيت، ثمة قوة عارمة تدفعها إلى التجوال في هذه الطرقات حتى هداها التفكير إلى بيت عمها.

ـ مازلتِ جميلة ورشيقة.

مصطفى يحاصرها بشاعريته، ثم تابع مستجدياً بعض التفاعل:

ـ ولكنّ في عينيكِ حزناً دفيناً.

احمرّ وجهها، تلعثمت، لا تدري ما تقول، حاولت أن تبدّد هذا الارتباك، باغتها:

ـ هدى، أراكِ قد تغيّرتِ كثيراً!

تنهّدت:

ـ كل شيء في الدنيا يتغيّر يا مصطفى.

ـ إني أرى فيكِ ما لا يرون!

تنقبض في حسرة.

ويمضي مقتحماً حصنها:

ـ أنا الوحيد الذي....

قاطعته متوسّلة:

ـ مصطفى، أرجوك كفّ عن هذا الحديث.

تنهّد وعيناه تسبران غورها في لهفة:

ـ أشعر أنكِ مازلتِ تحتفظين بشيء من الودّ ناحيتي.

اضطربت، تودُ لو تغوص في باطن الأرض.

- مصطفى.. ارحمني بصمتك.

تركها ملتاعة، هذه المرأة التي طالما كتب فيها شعراً، ملهمته التي ملكت عقله وقلبه زمناً تهرب من عينيه قصداً وعمداً، غاب مع ضيوفه وترك هدى في مزاج حاد، تأكل بعصبية، تتحدث بانفعال، وولدها لصيقٌ بفكرها يشدُّها إلى الواقع ويذكّرها أن لا وجود له دونها.

شعرت بالحرّ والضيق.. وتمنت لو تغادر المكان.

تحاورنها جليساتها وتجيبهن شاردة.

تدعوها زوجة عمها:

- خذي قطعة من الحلوى.

وبحركة آلية تجد نفسها تلتهمها، ليس فيها حلاوة السكر، فكل طعوم الحياة وأحاسيسها ذابت في نكهة هذا الرجل، (مصطفى) الذي خطفها إلى غيمة ضبابية فتاهت عن الدنيا، شحب لونها، خشيت أن يعود إليها مرة أخرى ويؤجّج إحساسها الكامن.

- هدى هل تذكرين...

- أرجوك (مصطفى) اتركني لوحدي.

هتفت متمنّعة وعيناها تهربان منه.

بعد ساعات عاد ابنها من المدرسة.

يربت على ظهر ولدها أحمد:

ـ إنه يشبهك.

صمتت وهي مطرقة:

ـ هل تحبين أن أوصلك إلى البيت؟

نظرت إليه مستجدية:

ـ مصطفى.. الماضي انتهى وأنا الآن سيّدة متزوجة.

ـ ولكنكِ بالنسبة إلي هالة من نور تسطع في ظلمة حياتي، أنا لا أريد أن أجسّدك كامرأة آدمية، إن يروكِ طيناً فأنا أراكِ محض روح.

خرجت مفزوعة وهي تلهث.

قادت سيارتها بسرعة جنونية حتى اصطدمت بزوجها كان واقفاً كالحجر الأصمّ، تساءل مدهوشاً:

ـ لقد عدتِ بسرعة.

جذبت نَفَساً عميقاً:

ـ كنت أفكّر فيك.

أجاب مقتضباً:

ـ لقد تغدّيت مع رجال أعمال ـ في الشيراتون.

افتعلت ابتسامة:

ـ ما رأيك لو نتناول قهوتنا معاً؟

ـ لا بأس.

وجلسا ـ في الصالون وعلى غير عادته بادرها:

ـ هل قضيتِ وقتاً ممتعاً ـ في الزيارة؟

ـ نوعاً ما.

ـ أراكِ متجهّمة.

وبلسان رطب جميل يشوبه شيء من التودُّد:

ـ لأنك لست معي، المكان الذي يجمعنا معاً هو عندي السعادة ذاتها.

بشّ وجهه، فعبّر بتلقائية:

ـ أصبحتِ شاعرة.

كان لابدّ أن تُقحم نفسها ـ في عالمه المقفل وتبدّد صمته الثقيل.

ـ لماذا لا نحب بعضنا كما كنا سابقاً؟ لماذا جفّت عواطفنا فغدت حياتنا خالية من الرواء؟ هل تحبني يا صالح؟ هل تفهمني؟! هل تعرفني حقَّ المعرفة؟ إن في قلبي حاجة كبيرة إلى حبك واهتمامك، أبحث عنك فلا أجدك أبداً.

وفي غمرة انفعالها رنّ هاتفه، كان صاحبه (عبد العزيز) الدلّال ذكّره أن ثمة لقاء مهمّاً مع بعض العملاء:

ـ أرجو المعذرة عزيزتي، ألا يمكننا تأجيل الحديث؟!

سقطت دموع الخيبة فوق مرارة قهوتها، خاطبت نفسها أنَّ الزمن كفيل باحتواء جموحه، إنه مجرّد نزق، قد تكون النسمة الباردة تعويضاً لقيظ الروح ليس سوى (مصطفى) ابن عمها، رفيق صباها مازالت صورته تتوهج في رأسها كالطيف، كان حلماً وانقضى، فقد ولدا في بيت واحد وكبرا تحت النخلة التي حفرا على جذعها اسميهما، كان يحميها من الخوف والبرد ويشدّها من ضفيرتها الطويلة عندما تلعب مع صبيان العائلة، وكلما بكت يأخذ دراهمه من الحصّالة ليشتري لها هدية.. وكبرت العائلة وانفصلت البيوت واحتجبت عنه، فهو من يفهمها ويحسُّ بآلامها أكثر من أي مخلوق آخر، مشاعرها نحوه خليط من الأخوة والحب فرؤيته مبعث

أنسها ولهذا عندما ابتعث إلى فرنسا ترك في قلبها وحشة وحرماناً، وبقيت بصماته تحفر في ذاكرتها أجمل الأوقات، لم تستطع الأيام أن تمحو مشاعرها، فهي تسري في عروقهما كالدم.

استلقت على سريرها تفكر:

لماذا عدت يا مصطفى بعد هذه السنين حاملاً سوط الذكريات لتلسعني وأنا في قمة الحرمان وتنشب مخالبك الفتيّة في جدران قلبي الفارغ لتغرس حبك وشعرك ورداً يتضوّع في مساماتي على الدوام؟

رنّ جرس الهاتف وتهيّأت لتردَّ، كان المتحدّث مصطفى:

- كيف حالك هدى؟

تلعثمت، خفق قلبها واضطرب.

- بخير.

صمت كأنه يجترّ الكلمات من الأعماق اجتراراً.

- كنت أودُّ أن أهديكِ ديواني الأخير، فقد طبعته وترجمته إلى الفرنسية.

ردّدت بشيء من الإعجاب:

- أبهذه السرعة؟! إنه إنجاز عظيم يا مصطفى، إنه مبعث افتخاري واعتزازي!

- كنت أريد أن أقرأ على مسامعك الإهداء.

اشتدّ ذعرها، إنه فخٌّ، انتبهي يا هدى.

- أنا متعبة الآن.

- أرجوكِ.

استسلمت بعد تردُّد:

- تفضّل.

تنهّد فسرت جمرات أنفاسه في أوصالها الجافة:

- إلى ملهمتي الحلم، زهرة عمري التي لن تذبل مهما فرقنا الزمن وباعدت بيننا الأيام.

ارتجفت كالسعفة اليابسة، لا تعلم أهي ينابيع سعادة أم ألغام خطرة قد تنسف حياتها وترديها حطاماً؟، ردّت بصوت حزين عبّر عن انكسار قلبها:

- كلمات رائعة وإهداء جميل.

وبدا كأنه يستزيد:

- جواب مقتضب، ليست كلمات (هدى) التي تشحذ عزمي وتستفزّ طموحي، إنه انطباع سطحي لامرأة عادية.

- أرجوك يا مصطفى لا تحاصرني.

- هذا يعني أن هناك شيئاً من الحب يدفعك إلى المقاومة.

غضبت:

- أنا أحبُّ؟! لا.. لا أظن.

ويستثيرها أكثر:

- لو لم يكن في قلبك شيء من العاطفة نحوي لما استنفرت قواك بكل هذه الحدّة.

- وهل تظن من المناسب أن أبادلك المشاعر كالسابق؟ أنا الآن متزوجة وشرع الله بيني وبينك.. وضميري يلسعني كلما استرخيت على ضفافك.

وبثقة يعلّل:

- أنا لا أريد منكِ شيئاً.. أنتِ فقط مبعث ارتياحي ولا أحمل لكِ من جانبي أية نوايا آثمة.

تستجديه ثانية:

- أرجوك يا مصطفى لا أحتمل هذا الصداع، مع السلامة!

وتستغيث بزوجها.. بحاضرها.. بواقعها.. بطفلها.. لتحتمي بهم من لسع الحب، إنها متأزّمة.. (مزيد من القهوة يا هايما) تأتي الخادمة بفنجان القهوة.. آه لو كنت أعرف أن لهذه الدعوة تداعياتٍ ما ذهبت.

عليّ أن أفرمل جموحي وأحسب حساباً للغد الآتِ.

جاء زوجها مترنّحاً بنشوة النصر، فقد ربح في صفقته الأخيرة، تمدّد على الكنبة وهو يتمغّط، ثم انبرى قائلاً:

- الليلة سنتعشّى خارج البيت.

أطرقت صامتة.

- أراكِ مكتئبة؟

تنفض سكوتها بضحكة مفتعلة:

- أتمنى ذلك.

وفي هدأة الليل حيث السكون يخيّم على طرقات المدينة والأضواء تتراقص احتفاءً بهما، اختار لها أفخم مطعم، جلسا على المائدة، ران عليهما صمت ثقيل، لم ينتبه صالح إلى نحولها وشحوبها، دفع إليها الصحن:

ـ تفضّلي السلطة فأنتِ تحبينها.

ـ وماذا أحب أيضاً؟

اندهش.. لم يفهم مقصدها.

ـ أعتقد الفواكه والألبان!

فجأة وجدت نفسها تنفجر:

ـ هل حقاً أنا أعني لك شيئاً؟

تذمّر، وانكمش منزعجاً:

ـ لماذا تصرّين على النكد دائماً؟

تداركت غضبها:

ـ أريدك أن تلتفت إلى أمري.

اعترضها:

ـ انقلبت فرحتي إلى تعاسة.

أشار بعصبية إلى النادل قائلاً:

ـ هيّا تناولي طعامك بسرعة لنعود إلى البيت.

كانت شاردة تتأوّه، هل تسلّلت يا مصطفى إلى كل ذرة في عروقي واستحوذت على دمي فلم أعد قادرة على التفاعل مع زوجي.

رن هاتف البيت ولم يجب أحدٌ.. تذمرت الخادمة.

وتكرّر الأمر لمرات عدة طوال النهار، ومصادفة ردّت هدى، فوجئت بـ (مصطفى) يعبّر بلهفة محمومة:

ـ افتقدتكِ كثيراً.

غضبت:

ـ أظنك لا تردك العواقب.

وفي رقّة حالمة تطوي أشواقاً ذائبة هتف:

ـ ألا أستحق منكِ الزيارة؟

تحاول أن تردع زخمه العاطفي المتدفّق:

ـ دعها للظروف، مع السلامة.

استوقفها قائلاً:

ـ أرجوكِ اسمعيني، لقد كتبت قصيدة جديدة تمنيت أن أقرأها على مسامعك.

تأفّفت غاضبة:

ـ مصطفى إنك تصرّ على مطاردتي.

يستجديها:

- هدى، أنتِ شقيقتي المخلصة ولا أحمل لكِ إلا المشاعر النبيلة.

عنّفته:

- لكنك تحاصرني، تطاردني، أنا زوجة ولا يليق بي أن أبادلك هذه الأحاسيس.

خضع في نبرته:

- هدى.. يا أغلى مخلوقة عندي في هذا الوجود.

نهرته بقسوة:

- مصطفى، ابتعد عني أرجوك.

أقفلت السماعة هائجة، أوشكت أن تنهار إذ لم تقوَ على حمل نفسها جلست على أقرب كرسي، أسعفتها الخادمة:

- ماذا دهاكِ سيدتي؟

- كوب من الماء بسرعة.

وارتشفته حتى آخر قطرة كي تطفئ غلّها.

إنها تجاهد كي تفلت من قبضة هذا الإحساس المستعر في صدرها.

يتأمّلها صالح بإشفاق:

- هدى، أراكِ متعبة عزيزتي، أنتِ في حاجة إلى قسط من الراحة.

تنتفض في ذعر، فمطرقة الواقع توقظها من هذا الكابوس.

يفاجئها بنقيض ما تتوقّع:

- أنتِ مرهقة على غير عادتك! سآخذك في رحلة استجمام إلى القاهرة بعد أيام.

تفرّست في وجهه واجمة لا تصدّق ما ترى:

- هل تشعر بي يا صالح؟ هل أحسست أني أتعذّب؟

جثى قربها وألقى بظلال حنانه فوق أرضها العطشى.

- كم أتمنى أن أسعدكِ.

استغاثت به وهي تبكي:

- لا تتركني يا صالح، الوحدة قاتلة، قربك الدائم مني يحميني من نفسي، يشعرني بالأمان، أنا أحسُّ بالبرد، كل أطرافي ترتعش، أنا أحبك رغم غيابك الطويل.

كان يسمعها وهو يترمّض، هل أقول لها (أحبك) وهي أحرف عاجزة تلهج بها الألسن الفاترة لأن ما في قلبي أعمق وأشد.

اقترب منها:

ـ لا ترهقي نفسك عزيزتي، لا أحب أن أرى عينيكِ باكيتين لأنهما أغلى ما عندي في الوجود.

بُهتت:

ـ صالح أنت تدهشني!

انطلق لسانه هادراً:

ـ لقد أحسست بكِ هذه الأيام مكتئبة، حزينة، صرتِ جسداً بلا روح، أبحث عنكِ فلا أجدكِ، تتآكلين يوماً بعد يوم، بتُّ أشعر بوحدة، بضياع، لا أدري ماذا أصابكِ في السابق كنتِ معي بحزنك، بفرحك، بحضورك الواعِ، بينما الآن تتلاشين، تغيبين وتغيّبينني فأتهمّش رغم فخامة وجودي.

غاص قلبها في صدرها، ماذا تسمع؟ أهذا حقيقة أم خيال؟ كانت تظنه حجراً أصمَّ أصبح يلفظ كلمات كالجمر، لا أصدق! أهذا أنت يا صالح؟!

حدّقت به طويلاً كأنها تتفحصه ثم تضمه في عينيها منتشية.

قطع صمتها قائلاً:

ـ بالمناسبة، اليوم اتصل عمّك ودعانا إلى العشاء.

نهته وهي تكاد تكمّم فاه:

ـ أرجوك لا..

دهش متسائلاً:

ـ ولماذا؟!

ـ لأني أحبك وأريد أن أكون لك وحدك.

انبسطت أساريره:

ـ وما الضير في هذه الدعوة؟

ـ اعتذر من أجلي.

ثم أطرقت هنيهة تفكّر.. تختبر أعماقها في صمت: (وما سرُّ هروبي؟ هل أخشى مصطفى؟ فلأستجمع شجاعتي وأواجه الواقع بكل ثقة).

ـ سنلبّي هذه الدعوة معاً يا صالح.

قهقه ملء قلبه:

ـ سبحان مغيّر الأحوال.

تنهّدت تحدّق بزوجها مستهامة:

ـ هذه الليلة.. سأضيء في سمائك كالقمر!

فاعل خير

همسة: أصبرُ النّاسِ مَن سَتَرَ فاقَتَه، وأَغناهُم مَن قَنِعَ بما تيسر له.

انقشعت غمامة العوز والحاجة وانبلج صبح الرّخاء والأمل.. فهجرنا الشقّة الضيّقة بجدرانها المتآكلة إلى بيتٍ مُترَعٍ بأسباب الرفاهة والحياة، وعشنا أياماً مفعمة بالنعيم والسعادة، شكرت الله ساجدة أن وهبني زوجاً عصامياً فكّر ونفّذ، قرّر وفعل.

أدور في حجرة نومي مبهورة:

ـ أنا فخورة بك يا (مرزوق) فقد حقّقت كلَّ أحلامي.

خطفني بين ذراعيه:

ـ وأكثر ممّا تتصورين.. لو أستطيع أن آتيكِ بنعيم الدنيا لأضعه بين يديكِ ما تردَدت.

أرخيت رأسي على كتفه:

- أشعر أني أحلّق في فضاء السعادة.

التهمني بنظرة مستهامة:

- في المرة القادمة سأشتري لكِ المرسيدس البيضاء التي لهفت عليها نفسك.

اختلجت عيناي طرباً:

- حقاً حبيبي؟!

احتضنته ممتنّة.

- شكراً، شكراً يا أعزّ الناس.

- طالما خضعتِ لي فسألبيّكِ حباً وكرامة.

ابتسمت:

- قدّمت استقالتي؛ لأن الوظيفة ليست من أولوياتي وأنت تعرف ذلك جيداً.

رمقني بنظرة حانية:

- لا أحبُّ أن تقع العيون على وجهك الفاتن.. فأنا الآن مطمئنّ أنكِ بتِ لي وحدي.

وارتوينا برحيق الحب نرتشفه من مزنة سماوية قلّما يدركها

باقي الأزواج، كانت سعادتي فصولاً متكاملة، تَترى بتدفُّقٍ سيّال، تغرقني في عبابها إلى حدّ الغياب، لكن في إحدى صحواتي اختطفتني أزمة شديدة حوّلت حياتي إلى حطام، قبضوا على زوجي مع ثلّة موظفين بتهمٍ مركّبة ومعقّدة: اختلاس، وكل أوجه جرائم المال البشعة، كان ثمة مخطَّطٌ إجراميٌّ يستهدف خزينة الشركة، هكذا صارحني المدير (عبد الرحمن).

غام قلبي وحسبت أنني أعيش كابوساً مرعباً.

- سيدتي، الجرم فادح وعقابه شديد، فما فعله زوجك جريمة يعاقب عليها القانون.

إني أغرق في العتمة حتى اليأس، أتلفت حولي أنادي جَزِعة (مرزوق، مرزوق)، وطفلتي الرضيعة تصرخ جائعة، فاللبن جفّ من صدري، لا أعرف كيف أعتاد يومياتي دونه.

التقيته من وراء القضبان وأنا محبطة منكسرة:

- ليتنا بقينا في ذلك الجحر.

أطرق صامتاً.

وددت لو أحطّم القضبان وأصرخ ملء حنجرتي: (مخادع أفّاق).

حاول اجتناب نظراتي اللائمة.

- ارفع رأسك وواجهني.

مسح طرفه وهو يعلّل:

- كان غرضي رضاكِ.

استدركت وأنا أرتعد غضباً:

- ترضيني؟! بهذا الشكل المشين؟! ألم تفكّر بي؟ ألم تفكّر بعواقب جريمتك؟

حدجني غاضباً:

- سأطلّقك لتعيشي حرّة.

كدت أن أهوى على الأرض منهارة:

- تطلقني؟! أهكذا بقرار ترميني على الرصيف؟

- إن ما فعلته أقصى طاقتي.

تركته محبطة، عدت إلى البيت بقلب يصطلي على جمر ففاجأتني الخادمة بمظروف كتب عليه (فاعل خير) فتحته فوجدت فيه مبلغاً من المال، سألت الخادمة عن المصدر، فقالت: رجل من الجنسية الهندية طرق الباب وقدّم الظرف وهرب.

شغل مظروف المال تفكيري لفترة لأني حاولت أن أعرف اسم فاعل الخير فلم أهتدِ إلى أحد، وخمنت: ربما مدير الشركة، وفكّرت أن أسأله لكني تراجعت خشية أن أريق ماء وجهي وأكشف عن ضعفي أمامه فينتهز الفرصة ليقتحم حياتي وأنا وحيدة.

وهكذا تردّد علينا فاعل الخير طوال أشهر حيث يأتي الرجل كل شهر ليقدم الظرف إلى الخادمة في غيابي، كنت قلقة جداً وخائفة فلربما هذه المبالغ فخاخ منصوبة لاستدراجي إلى المنكر، ولبثت أترقّب كل شهر موعد (الهندي) فلعلّي أستعلم منه عن المصدر.. لكن يبدو أنه كان يراقبني جيداً فلا يقترب من البيت إلا عندما أغادر، تظاهرت ذات يوم أني خرجت فأخذت سيارتي وركنتها خلف البيت ووقفت في زاوية بعيدة أترقّبه، وبالفعل أتى في ذلك اليوم سائق هندي ووقف في محاذاة حديقة الدار وضرب الجرس فوثبت إليه مسرعة فقبضت عليه، وسألته:

- من صاحب هذا المال؟

أنكر وراوغ دون أن أصل معه إلى نتيجة، وفكّرت: إن من يقدّم لي هذا المال إما محب لم يرضَ لي عوز الحاجة، أو مذنب يكفّر عن ذنبه، فأنا يتيمة لا أهل لي أو معيل.. وحدسي يدفعني باستمرار إلى (عبد الرحمن) مدير الشركة فلأذهب إليه وليكن ما يكون.

طلبت لقاءه..

عبّر عن غبطة استثنائية فضرب لي موعداً بعد الظهر حيث تخفُّ الحركة ويتسربل الزمن بالهدأة.

ذهبت في الموعد، ألفيته جامحاً يداري اضطرابه، جلست أمامه أتضرَّج خجلاً، شعرت بحماوة نظراته واختلاسها أجزاء مستورة من جسمي، استجمعت شجاعتي:

- أستاذ عبد الرحمن أشكرك على هذه المبالغ وثق بأننا سنسدّدها فور أن يخرج زوجي من السجن بإذن الله.

تلعثم:

- أية أموال؟

وبذكاء حاصرته:

- لا داعي للإنكار، السائق الهندي لمحته قرب العمارة.

- لا أدري عن أي شيء تتحدثين.

وتابعت بثقة:

- لكني لا أعرف بالضبط أفعل الخير لوجه الله أم لشيء آخر؟!

فجأة ترك مكتبه واقترب مني فأحاطني بهالته الفخمة، ذعرت:

- أرجوك، قف بعيداً عني.

فقد وقاره فأخذ يهرف كالأبله:

- أنا وأموالي تحت أمرك.

دفعت المقعد كالملدوغة:

- أنت تهذي.

- منذ أن رأيتك وصورتك لا تفارق خيالي.

صرخت به:

- مجنون.. مجنون.

- سأتزوّجك رغم أنف زوجك.

طافت في رأسي الوساوس والظنون وخمّنت أن زوجي أُدخل السجن غدراً، تطايرت من عيني شهبٌ من الشرر:

- إذاً أنت من أدخلت زوجي السجن.

ارتبك:

- والأدلّة والبراهين؟!!

- كلّها مزوّرة.

- يمكنكِ الاستئناف.

انهارت أعصابي.. فاستطرقت الباب لأخرج، لحق بي وشدّني من ذراعي:

- جمالك خسارة برجل معدم مثله، أنتِ تحفة ثمينة تستحقين أكثر من ذلك.

سخرت ودموعي نثارٌ على قدري التعيس:

- تحفة؟ نعم ولهذا تستميت لاقتنائها.

- سأغدق عليكِ النعيم كالملكة إن رضيتِ بي زوجاً.

بصقت في وجهه وأنا أفلت من قبضته:

- بل سأكون أحقر امرأة لو قبلت بجلّاد مثلك!

دفعته وأنا أزمجر معنّفة:

- ابعد عن طريقي..

خرجت إلى الشارع لأبدّد الضيق عن صدري وأطهّر قلبي بنفحات نقية من الهواء، دخلت البيت فوجدت مظروفاً بانتظاري، فتحته بأصابع ترتعش وقرأت البلاغ القاتل ثم طويتها بقبضة كفّي

وأنا أتلوى كالذبيحة، فقد تركني مرزوق طعماً للذئب المتربص في غيابه.

جهّزت حقيبتي وحملت طفلتي الرضيعة وهربت، فلربما يضع الله في طريقي منقذاً يخلّصني من براثن وحش كاسر.



دموع العروس

همسة: الرَّجلُ الّذي لا يغفرُ للمَرأةِ لن يتمتّعَ بفضائِلِها الكَبِيرة. (جبران خليل جبران)

انصرف المدعوون فشمل الدارَ هدأةٌ وسكون، دخلت وعروسي حجرة النوم، أجلستها على الشيزلون بينما غبت في الحمام متذرِّعاً بقضاء الحاجة لعل الخلوة تردُّ أريحيتها فتستعدُّ للمجاذبة، أطلت المكوث في الحمام لأترك لها قرار خوض الجولة أو تأجيلها، فلتفكر على مهل فإقبالها أو إدبارها سيتضح دون مواربة، كنت أضطرب في لهفتي لكني أحاول قمع الانفجار كي أجنبها ذعر هذه الليلة، فتاة في ربيعها الثامن عشر تحتاج إلى مداراة ذكية وملاطفة حذرة كي تسترخي وتلين، فعبوسها وتشنُّجها يطويان رعباً يتطلّب مني قدرة جبّارة، بعد برهة خرجت إليها مدفوعاً بأمنية القطف كفارس عاشق، وجدتها جالسة على حافة السرير منكمشة.

ـ هدى حبيبتي، ألا تزعجك الطرحة الثقيلة؟

أشاحت بوجهها شطر الباب تحسُّباً لأي طارئ، رمقتني بعينين دامعتين وهي ترتعش.

أخذت المنديل لأجفّف دمعها:

ـ لا تخافي حبيبتي، سنقضي وقتاً ممتعاً في الحديث كأصدقاء، يهمّني جداً أن أراكِ مرتاحة.

لم تنبس بحرف..

ـ سأتركك الآن لتغيري ثيابك.

خرجت إلى المطبخ لأجهز بعض الطعام، أحسست أني أمام مخلوقة معقدة وعنيدة تأبى أن تفكَّ أغلال صمتها لتمهِّد لنا طريق الألفة.

تناهى إلى سمعي همهمات بكائها، عدت من فوري لأستعلم وبدافع من عطف هممت لاحتضانها، أجفلت كمن لدغها عقرب:

ـ ابعد عني، لا تلمسني.

نفضت يدي عنها وأنا أتراجع مأخوذاً.

ـ آسف جداً لم أقصد إيذائك.

خرجت مضطربة وهي تحمل رداءها قاصدة حجرة أخرى،

أقفلت الباب بالمفتاح، تركتها في مناخها الخاص دون ضغط أو ملامة فهي صغيرة وفي حاجة إلى ترويض ومهاودة وعليّ أن أتحلّى بالصبر كي لا أخسرها في الجولة الأولى.

مضت أيام ونحن متباعدان نجلس على مائدة الطعام كغريبين يتواريان بقناع التجمُّل والتكلّف وكنت أبادر دوماً في افتعال أحاديث شيّقة ومفاكهتها بظرف وحنان لتطمئن أنها في كنف إنسان عطوف يربأ برجولته أن يقتحم حصونها البريئة عنوة، فأنا أفكّر في المستقبل وإلى أبعد هدف، هي شريكة العمر ورفيقة الدرب وستقطع معي رحلة الحياة وعليّ احتواءها بحكمة وأناة.

اضطررت إلى أن أجلب بعض القصص والروايات العاطفية التي تستميل الفتيات في سنها الغض وقضينا معاً أوقاتاً ممتعة ونحن نقرأ قصدت إضرام فتيل عواطفها لأستدرجها بهدوء، في بعض الأوقات تقترب مني متوددة وتستثير أشواقي بفحيح أنفاسها يوشك توقي المكبوت أن يلفظ حممه لولا تجلدي وكبح سعار قلبي المضطرم، أقنعت نفسي أنها فرصة لنكتشف بعضنا دون تكلُّف أومواربة فإن غرضي تهيئتها كي تقبلني حبيباً لا ذئباً يتربص ليفترس براءتها، استغرقتنا الكتب وأضفت على يومياتنا الأفلام

الرومانسية التي أوقدت فينا دفئاً ناعماً غلب سطوة الجسد، آمنت أن الأيام كفيلة بصقلها وإخراجها من شرنقة العذرية الصلبة ونحتها بقالب أنثى هيّنة ليّنة.

أخذت تغويني فأيقنت أنها استوت ونضجت حتى غمرها طيفي بألوان قوس قزح فتلبستها ملهوفاً بَيدَ أنها نفضت على أمطار شوقي المنهمرة فدفعتني كارهة، ألجمت موجي بشراستها المرضية، أخذت مقعدي في الحجرة أفكّر ساهماً، الموقف يتعقّد في كل محاولة فيهتك رجولتي، تركتها تهدأ ثم عدت إليها بعد حين:

- لن أغصبك على فعلٍ لا تطيقينه.

انفعلت وكأني ضغطت على زرّ حسّاس:

- أرجوك افهمني.

أشفقت عليها:

- هدى حبيبتي، يبدو أنكِ مغصوبة على الزواج مني؟

صرخت بحرقة:

- أحبك، أحبك يا وسيم، لكن ما يحدث رغماً عني.

ثم هوت على المقعد باكية.

مسدت رأسها بحنان:

- لن أقترب منكِ بعد الآن طالما كنتِ مشمئزّة.

وابتلعت الغصّة على مضض ولبثت أداريها كطفلة صغيرة إنها تدهشني بتناقضاتها فحينما يبلغ شوقها الذروة تباغتني باندفاع محموم لتأخذني إلى نبعها المدرار لكني سرعان ما أعود خائباً فما حسبته ماءً لم يكن إلا سراباً لأني عندما أتمادى كرجل تقاومني بشدّة وهي تشهر مخالبها وأنيابها كقطة لئيمة ولن أجد في نفسي بعد هذه المثاورة إلا نافراً قد خَبَت كل دوافعي نحوها.

بكيتُ تعاستي وسوء حظّي، هربت منها، ما عدت أطيقها ولا رغبة لي فيها، نفذ صبري، فخرجت مع أصدقائي أستعيد حريتي كعازب باحثاً عن منهل الناضجات اللاتي لا يحتجن إلى استعداد ومماطلة.

في ليلة رجعت إلى البيت، استقبلتني بوجه مكتئب شاحب، كنت في مزاج نافر، تجاهلتها ونمت على كنبة الصالون.

جاءت مصرّة على نسف الجدار:

- وسيم حبيبي.. دعني أصارحك بما أعاني من جروح.

سخرت:

ـ تصارحيني بجرمك وجريرتك؟!!

ـ لا تظلمني أرجوك.

توكّأت على ظهر الكنبة، كنت مستعداً لفضّ هذا السرّ:

ـ هاتِ ما عندك كي ألق عني هذا العبء فأنتِ غامضة، تقبلين علي متلهفة ثم سرعان ما تتمنّعين بوحشية لا أدري لـمَ تتلاعبين بأعصابي.

غطّت وجهها بكفّيها وهي تجهش باكية

استوقفتني معاناتها فثّمة ما تطويه عني، ربّتُّ على كتفها:

ـ صارحيني حبيبتي.. لعلي أسرّب همك.

مسحت طرفها وهي تسترجع بمرارةٍ كارثةً ألّمت بها يوم كانت طفلة.

ـ وسيم أرجو أن يتّسع صدرك لتتقبل الموقف وإلا فأنت لست مجبراً على الاستمرار معي، أذكر أن السائق الذي كان يقلّني إلى المدرسة فعل فعلته النكراء وهرب، كنت في الصف الثاني الابتدائي مضطربة ومرعوبة لم أفهم إلا أنه أذىً وعذاب، كنت مهملة فأمي جاهلة أنانية لا تفكّر إلا بنفسها ولا تستوعب حجم الخطر الذي تقع

فيه طفلة صغيرة في براثن ذئب مفترس، انفصلت عن أبي ففقدت حمايته، لم تترك لي فرصة كي أعبّر عن ألمي، إنها مخلوقة من حجر أصمّ لا تسمع ولا ترى إلا ذاتها المريضة، قرفت من هذا الفعل وازدريته كرجس وقذارة.

لم أصدّق، كأني بمطرقة هوت على رأسي، انعقد لساني وشعرت أن قلبي يتمزّق شرَّ تمزيق، بكيت من الداخل إذ أشفقت على مخلوقة بريئة ظلت طوال هذه السنين تكابد محنتها دون عون أو سند، قررت أن أعرضها على طبيب نفسي ليطيب جرحها المزمن، ألمها الغائر، خوفها المحفور في المنابت، احتضنتها كإنسانة مظلومة، كقارورة مخدوشة، صنتها كجوهرة نفيسة لوثتها أيادي الظلم والإجرام.

استردت عافيتها مع جلسات العلاج المكثفة وأحسست بأزهار قلبها البكر تتفتّح محبة وعرفاناً تعلّقت بيّ فوهبتني قلبها، روحها، كل ما تملك راضية، ممتّنة، ولبثت تردد على مسامعي دوماً أنني كل حياتها وأملها لكني قلقت أن تخسرني خصوصاً بعد أن عرفت سرَّها، لهذا أدمنت التعبير عن مشاعري نحوها لأشبع حاجتها إلى الطمأنة والاحتواء، فالذنب ليس ذنبها إنه ذنب أم مجرمة تترك زهرة بهذا الحسن تُنهش في الظلام دون أن تحرك ساكناً.

ـ أنا مدينة لك بحياتي وروحي يا وسيم.

بنداوة ألفاظها تغتسل همومي وتُبدِّد آلامي.

انكشفت الغمّة وانفرجت الأزمة، استردت زوجتي (هدى) ذاتها الممزّقة فغدت امرأة رائعة في الحب، دافئة في الوصال، وشكرت الله عزّ وجلّ أن عوّض صبري خيراً ووفقني كي ألجم وحشاً مستبداً قد يفرط بحق بريئة فيغتالها دون رحمة، كنت مؤمناً أن من يخفض جناح الستر على روحٍ بريئة يحصد ثمار غرسه سعادةً وهناء، وزوجتي تلك المخلوقة الصامتة التي كبّلها المرض تكشف عن نفس مزدانة بالشمائل والجمال، بعد أن قضينا ليلة خرافية اتكأت هدى على ظهر السرير منتعشة تهمس في خفر وعذوبة ورأسها ملقى على كتفي:

ـ وسيم.. أنت أعظم نعمة في حياتي!



رحيق الأيام

همسة: (مِن غَيرِ أَلَمٍ لن تتعلّم). مثل روسي.

لا أحد يتخيل كيف يقذفنا القدر من شاهق الثراء إلى قاع الفقر، عندما تتلقى كارثة بهذا الحجم لن تجد نفسك إلا كياناً محطّماً.

عشت أجمل سنوات عمري ملكة، أتنعّم بالحرير والفراء، أمشي كإحدى أميرات الأساطير عزّاً ومهابة، امتلكت القصر العامر بالنعيم، الثياب الفاخرة من أرقى دور الأزياء العالمية، الحقائب، الأحذية، العطور، الماكياج، السيارات، كل شيء تمنيته تحقق ملء خاطري.

فزوجي رجل أعمال محنَّك يعرف بدهاء كيف يُحيل التراب إلى ذهب، فما من صفقة غامر بها في جولاته التجارية إلا وهطلت علينا أمطار الدولارات وفاضت وربت حتى غرقنا بنشوة البذخ والترف.

ولنا قصر عريق في أرقى أحياء العاصمة، يحبس المار أنفاسه إبهاراً ودهشة، فكل فنون المصمّم الإيطالي (فيليب) قد انصقلت في روعة هذا البناء، إذ يحسبه الناظر تحفة ورثناها عن سلاطين الأتراك أو أمراء الأندلس.

وظننت أن نبع الثراء لن ينضب ونهر النعيم لا يجفّ فأقبلت أغرف من بحر الدنيا بشراهة وأسكر برحيقها اللذيذ ولم أفق إلا لأنهم المزيد من ملذّاتها الخرافية حتى شاءت إرادة الله عزّ وجلّ أن أصحو على صدمة حياتي، فقد خسر زوجي ثروته بعد صفقة غامضة استنزفت آخر دولار من جيبه، حاولت أن أعرف بواطنها المشبوهة لكنه يصمت هارباً، هل استغفلك الزمن ليرديك في قعر الهاوية؟ رحلته الأخيرة إلى جنيف تركت داخلي قلقاً وارتياباً فالعدُّ التنازلي لثروته كان ينذر بكارثة غير متوقعة وعولت حينها على إمكاناته المدّخرة في تغطية الخسائر لكن الزمن استحمقني وضرب ضربته القاضية وخلّفنا رماداً.

اتصلت سكرتيرة مكتبه تخبرني بانهياره المفاجئ، خرجت إليه كالمجنونة ودخلت قسم الطوارئ الذي أسعفه في اللحظة الأخيرة، ألقيت نفسي عليه مذعورة:

ـ جاسم، جاسم.

وجدته جثة هامدة، وفي ثورة اضطرابي لمحت انحراف فكّه، سألت الطبيب مدهوشة:

ـ دكتور خبرّني ماذا حصل؟

شدَّتني الممرّضة من ذراعي بعيداً عنه.

وعدت أستفسر مرة أخرى وأنا جَزِعة:

ـ طمئنّي يا دكتور.

ـ جلطة مفاجئة.

صعقني الخبر فأفقدني التركيز:

ـ لماذا؟ كيف؟.... و....

الحقيقة التي يلقيها الطبيب بكل برود:

ـ ربما صدمة شلّت دماغه.

عدت إليه واهنة، محطَّمة، أهزّه ملء يأسي:

ـ جاسم.. أستحلفك بالله أن تجيبني.

رمقني بنظرة منكسرة اغتالت كلَّ ما تبقّى من آمالي فيه.

حجز البنك على كلِّ ممتلكاتنا ومقتنياتنا الثمينة ولم يبق لي

سوى صندوق المجوهرات الذي احتفظت به ذخيرة لليوم الأسود.

أفقت بعد هذه الزوبعة على نفس محبطة يائسة.

رمقت الشارع عبر نافذة الحجرة وشعرت أن الدنيا حولي مقفرة وأن الحياة الضاجّة قبر كئيب، أدبرت عني الأفراح ليكشّر القدر عن أنيابه متوعّداً بالشرّ.

انتظرت مبادرات أولادي خارج البلاد لعلّ حضورهم يخفّف عني وطأة المأساة لكنهم سلقوني بألسنة غلاظ، فالدجاجة البيّاضة أردتها الأيام موارد البوار فما عاد لوالديهم جدوى، بحثت عن سكن مناسب يؤويني وزوجي بعد أن غادرَنا الخدم والسائق والفلاح وفقدنا كل مقتنياتنا من أثاث وأنتيكات ثمينة لم يبق لي سوى ثيابي، ممتلكاتي الخاصة، ذكريات حفرت داخلي تاريخاً لا يُنسى، فلكلٍّ ثوب قصةٌ ومناسبة، أذكر ثوب الساتان التركواز اشتريته من متجر روما بعد أن ولدت ابني البكر (سامي) بأشهر، ومعطف الفراء كان هدية صلح من جاسم بعد فترة خصام مريرة، وثوب السهرة الذهبي أعجبني حينما كنت أتبضّع في محلات مونترو بسويسرا، اشتريته لأحتفل مع جاسم بعيد زواجنا العاشر، ذكريات ترسو على رصيف الذاكرة فتعصر قلبي وتهرف دمعي،

لكني قررت أن أسترد قوتي وأستبسل كي أواجه الحياة القاسية بشجاعة، فزوجي عاجز طريح الفراش، وأولادي بعيدون عني لابد من وقفة مع نفسي لأسترجع ذاتي، المهمُّ أن أتعايش مع الظرف وأتكيّف عليه دون تذمُر، فهي تجربة مرّة تستخلص معادننا وتغربل بواطننا لنعرف حقيقة أنفسنا، المهمُّ أني تقبّلت الواقع على مساوئه وشكرت الله على هذا البلاء وانطويت على نفسي في بياتٍ آمن كي أنفض شوائب الماضي، اعتزلت الناس بعد أن رموني بسهام الشماتة والتشفّي، فالحسّاد حولنا كانوا يتربّصون حتى تحين ساعة هلاكنا بعد خيبات مشؤومة.

تجاهلت المحيط حولي وتغلغلت إلى ذاتي لأستكشف جواهري الدفينة، فهل أنا كائن معدم من أية مزيّة؟ هل أنا صفر على الشمال؟ هل أنا دون الثراء خواء؟ هل أستسلم وأدفن نفسي حيّة؟ ماذا عليّ أن أفعل لأعيش، لأقاوم هجمة الإحباط على حياتي؟ لن أغرق مع كهل مُقعد، تركني لوحش الأيام فريسة، فالمحنة هذه جرّدت الناس من أقنعة النفاق والرياء وبرهنت لي أن الأقارب والأصدقاء المتملّقين كانوا أول الناس فراراً وآخرهم عوناً وسنداً ولا عجب أن ينقلب أولادي إلى ثعالب بعدما أعلن والدهم إفلاسه، فقد عززت

الحياة المادية نزعة الشرّ فيهم فتلوثت دماؤهم بأنانية مفرطة، لهذا قررت أن أحارب لوحدي وأستعدّ للمرحلة القادمة بكامل قواي فأنا إنسانة لي عقل وروح وقدرة وعليّ أن أتصالح مع نفسي وأقيم طاقتي لأثب وثبة نمرة جريئة وأشقّ الدرب بعزم وإرادة.

قررّت البحث عن عمل، فبعد سنينِ التقاعد استحوذ عليّ الكسل والفتور فخمدت كل مواهبي وخبت قدراتي واستقرأت الماضي لأقف على إنجازاتي فيه، التفتُّ إلى محطة مهمة ربما لم أنتبه إليها تماماً لعدم الحاجة، أما الآن فهي ذات قيمة ونفع، فقد تميّزت بصناعة كعكة الشوكولاتة وتفنّنت في الخلطة إلى درجة التميّز فكان كل من يتذوقها يسألني مدهوشاً عن سرّها فلها مذاق عميق ونكهة غنية، لم أبح بهذا السرّ الذي بلغته بعد تجارب عدة، كنت فيما مضى أصنع هذه الكعكة بمزاج رائق ولم أفكّر أنني لو عززت هذا التميز لكان مدعاةً لصناعة اسم أو ماركة، فالثراء الفاحش والنعيم الطاغِ قد يشغلان الإنسان عن حاجاته الجوهرية كالنجاح وتحقيق الذات وهما ثمرتا عمل وكفاح وأنّى لي أن أستوعب هذه القيم طالما كل ما تشتهيه النفس ملء عيني وكفّي

جذبت ولفرط إدماني على التفكير في العمل (أم مشعل) وهي

سيدة طيبة تمتلك مقهى نسائياً تؤمّه طالبات الجامعة والنساء العاملات، وعرضت عليها كعكتي على سبيل التجربة فإن راقت لها يمكن أن أزودها بثلاث كعكات يومياً ومنحتني الفرصة، قرّرت أن أجهّز مطبخي بلوازم العمل فاشتريت عدة المطبخ والمواد الأولية لصناعة الكعك كالطحين والسكر والحليب والمنكّهات المعطّرة.. بعد انتهائي من طهي الكعكة غلّفتها بورق سليفان وربطتها بشريط ذهبي وطرت بأمنية قلبي إلى أم مشعل، اندهشت من طعمها اللذيذ وطلبت رقم هاتفي لتتصل بي بعد أن تختبر إقبال الزبائن عليها، وعدت إلى بيتي أترقب النتيجة على قلق، وفي المساء هاتفتني أم مشعل وبشّرتني أن كعكتي التهمت على الفور حتى إن زبوناتها طلبن المزيد، لا أعرف كيف أصف مشاعري وأنا أتلقّى هذا الخبر، يكفيني أني حلّقت في سماء الفرحة طرباً أرفرف بجناحَي النشوة والسرور، ثمة أشياء بسيطة مرّت علينا زمناً لم نُعِرها أي اهتمام تغدو الآن ذات دلالات عميقة في أنفسنا.

انغمرت في عملي الجديد أجني الأرباح وأجمع مبالغ جيدة، تحفزت أكثر لتطوير هذه الكعكة بإضافة نكهات جديدة، انهالت طلبات الزبائن على الكعكة في أعياد الميلاد والحفلات فاضطررت

إلى مضاعفة ساعات عملي، النجاح فتح شهيتي إلى المغامرة في تطوير المقهى، وبعد فترة اتخذتني أم مشعل شريكة مناصفة في مشروعها وكان لابد من طلب عمالة تساعدنا في إنجاز العمل وكنت أدخل مواقع الإنترنت الأجنبية لأتعلم بعض الأفكار ولأطوّر صنعتي لأتماهى مع ذوق الزبون المتغير، بعد فترة أصبح المقهى من أشهر مقاهي العاصمة وأكثرها تجدداً وتطوُّراً.

انفصلت عن شريكتي أم مشعل فقد انتظرت ذلك اليوم الذي أستقلّ فيه بنفسي خصوصاً وأني ادّخرت مبلغاً مناسباً يساعدني على تطوير مشروعي الخاص، فأخذت ترخيصاً للمحل بمساعدة أحد أقاربي ودرست الخطة جيداً لأنطلق بحماس وشجاعة وأنا أحصد ثمار غرسي، وكان لابد أن أهزم اليأس وأتخلّص من وضعي البائس وأنا أجلس قرب رجل محنَّط لا حراك فيه ولا حياة، أطعمه وأسقيه فأذوي وأموت معه منتحرة بلا جرم أو جريرة، فانهماكي في العمل يجعلني أكثر تقبُّلاً لحياتي الجافّة وأكثر تكيّفاً مع متغيرات الزمن القاسية.

في هذه المحطة بالذات شكرت الله عزّ وجلّ وأنا باكية لأني أدركت ذاتي قبل أن تضيع في الفراغ والخواء، فحياتي في الماضي

ذات بريق زائف فالتخمة شغلتني عن نفسي وكينونتي ، ففقدت طعم الأشياء ومذاقاتها الحقيقية، لبست الحرير وداخلي حجر أصمّ، حينما تكافح تجني ثمار جهدك فتبتهج ذاتك المنتجة وهي تتفتح كالزهرة الندية على حياة كلها عطاء وعمل.

ذاك هو الرحيق الذي يرشح من أيامك المرّة عندما تعرف كيف تطوّع الزمن لصالحك.



محاكمة القبر

همسة: ليسَ الموتُ عَدَمَاً، إنّما هوَ فراقٌ للدّنيا وقدومٌ إلى اللهِ عزّ وجلّ.

اختفى الحشد وتلاشت الأصوات الآتية من شاهق، لا تعرف بالضبط مقدار المسافة التي تفصلها عن سطح الأرض، فهي مستقرّة في حفرة غويطة بحجم جسدها، وكلما رفعت رأسها اصطدمت بالسقف فينتشر نثار الغبار حولها، تتمنى لو تتحرّر من الكفن الملتفّ حولها، فلم يبق إلا قرص الوجه، المكان غارق في الظلمة، يطبق عليه سكون موحش، شملها فزعٌ ودهشةٌ فأينما ولّت بصرها تصطدم بحائل: صخور، تراب، أفاعي بروؤس سوداء، ارتعدت فرائصها واكتنفتها برودة أقرب إلى صقيع الشتاء، ذعرٌ من المجهول يشلُّ قواها، إنه ذات الإحساس حينما قادت سيارتها في درب الفاحشة، تحسب أن العيون ترصدها والسيارات تطاردها، وثمة شابان عابثان يتعقّبانها لغرض غريزي وبتحريض من طبق

الحلوى المكشوف على الذباب، خرجت قبل ساعة من بيتها متذرعة أنها مدعوّة على حفل زواج، تلفعت بأضيق ثوب وتعمدت إبراز النكهة الصارخة من فتنة جسدها المكتنز، لتطعم الآخر أشهى حلوى فتبصم الطعم في ذاكرته دون غيرها من الحسان.

- ما هذا؟ كرنفال جمال؟

زوجها يلتهمها بعينيه، تمتمت وصدرها يلهث بينما تغلق قرطها الماسي في ثقب أذنها:

- هذه الحفلات تشحذ غيرتنا نحن النساء لننافس بعضنا في الجمال والأناقة!

قبّلها مزهوّاً:

- طبعاً زوجتي (سناء) أجمل امرأة على الإطلاق.

- هل تحبّين أن أوصلكِ في طريقي؟

رفضت مضطربة:

- لا.. ربما أمرُّ على صديقتي (حبيبة).

- إذاً أتمنى لكِ حفلة رائعة يا زوجتي الحبيبة!

استوقفته:

- (حسّان) حاول أن ترجع بسرعة إلى الأولاد.

هز رأسه موافقاً:

- لا تقلقي

ألقت على المرآة نظرة أخيرة لتستوثق أن مشهد الافتتان متناغمٌ في تقاطيعه وسيفتك بالعاشق الأحمق!

نادت الخادمة وهي في طريقها إلى الباب:

- (سيتي)، اعتني بالأولاد ريثما أعود.

- إن شاء الله سيدتي.

فرت بجسدها المتأرجح في إثارة، متعة مسروقة تترك الباطن مضطرباً.

رسالة هاتفية متواطئة مع لهاثها الصاعد:

- حبيبتي، أنا بانتظارك.

حينما يتحدد الهدف تستقر النفس، أما سناء فمشتّتة في كل ناحية تتضارب داخلها الرغبات وتتصارع الأمنيات (هل ستعجبه؟ هل سترضيه؟) دافع الشوق خابٍ أمام هذه التحدّيات فالمهمّ أن تطمئنَّ على تأثيرها كي تحتل موقعاً خاصاً، (منصور) مديرها في

العمل تتنافس على تتنافس على استحواذه كل جميلات المؤسسة والتقطت الطعم ضمن هذا السرب فالتحدّي الأكبر أن تزيحهن عن طريقها لتستوطن قلبه ملكة.

تتمنى لو أن عطرها يسلب لبه، يا للمصيبة! لم تنتبه إلى طلاء الأظافر المتقشّر، لو سوّته قبل أن تخرج بلحظات، هل تشتري علبة حلوى ليمتزج مذاقها بمذاق الشكولا؟ ماذا لو صادفت زوجها عند الإشارة الضوئية القادمة حيث يتعطل السير في ذلك التقاطع؟ أفكار مشوّشة تزدحم في ذهنها، خوفها من الفضيحة، لـمَ ينظر إليها الناس وكأنها مذنبة؟ فلتتجاهل فضولهم، الشابان المستهتران يعاكسانها فيقفان بمحاذاتها، تجلدت كي لا تُفتضح فعلتها الشائنة، صوت المذياع يصدح بأغاني هابطة، استدراجٌ أرعن يذعن في إرباكها، الظروف تتحالف ضدها وعشُّ الغرام بعيد المسافة ورسائل منصور تترى حتى اضطرت لمحادثته:

ـ انتظرني، فالشارع مزدحم.

تنهد:

ـ عجّلي فأنا أتلوّع!

تتضرج حمرة، خشيت أن يفسد مكياجها المتقن فتظهر خطوط العمر، اغتمّت وداهمها غضب شديد فتحدت الشابين، نفدت منهما بسرعة جنونية، وموعد الغرام هدفها، تذكرت أن الرؤيا انعدمت حينما ارتطمت سيارتها بعامود النور ودوي عاصف أشبه بانفجار هز الشارع، نثار الزجاج انغرس في رأسها فتنطفئ الحياة، انتفضت وهي تتفسخ عن طبقات الجلد، حيث كينونتها المطمورة في هذا الطين، وقد نفذ القدر وحان الانسلاخ عن ثوب الصلصال لتخرج من رحم الدنيا محض روح روح فالانتزاع الأشرس حينما يتلقفها البرزخ، انحلال الروح من الجسد، كابدت بمشقّة، رأت جسدها ملقى على الرصيف بانتظار الإسعاف والدم يغمر وجهها المخدوش، كل شيء واضح أمامها تستقرئ حتى نوايا الناس الملتفّين حول الحادث، فهذا الرجل السمين الطافح بالغباء يختلس النظر إلى ساقيها العاريين، تلك المرأة المحجبة تقول متشفّية: (هذا جزاء مَن تتبرّج)، وذلك الملتحي يغضُّ بصره مشمئزاً يلعنها ويمضي بالمزيد.

الشابان انعطفا نحو الشارع الآخر بحثاً عن فريسة جديدة.

طافت روحها الشفّافة بمنصور فألفته مخلوقاً كريهاً، ثعلباً ماكراً، يعبث بقلوب النساء، زوجها ديّوث أفسدته ملذات الدنيا فكان أشبه بالبهيمة لا همَّ له إلا أن يأكل ويشرب ويعاشر فينام، أولادها الصغار الثلاثة كالقطط البريئة تموء بحثاً عن الطعام بينما سيتي مستلقية على الكنبة تثرثر بالتليفون ضجرة وترمي بفتات البطاطس على الأرض لتلتقطها القطط وعندما يشاغب أحدهم تنهره بشدّة!

- لمَ غابت عني هذه الحقائق؟

هاتفٌ كالرعد يجيئها:

﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢)﴾.

جسدك الجميل كان هو الحائل، شهواته، نزواته، رغباته، عميت بصيرتكِ فكنتِ في غفلة.

جثّتها المرميّة على الأرض وقد لفظت الروح تنقل إلى المشفى ثم تحفظ في الثلاجة لتدفن في صباح اليوم التالي، تؤخذ إلى المغتسل، تبكي على ضياع العمر في الإسفاف، فالدنيا سراب، حلم وانقضى، صورة زائفة، تُعمي الإنسان عن الحقيقة، تسمع المرأتين اللتين مزقتا عنها الثوب استعداداً لغسلها (غسل الميت) تسأل

إحداهما النساء المنتظرات في الخارج عن مزيل طلاء الأظافر، فتقول في إشفاق:

- الله يهوّن عليها حساب القبر.

تتنهّد الأخرى:

- لو يدري الإنسان خاتمته ما غفل.

تبكي سناء، تبكي أسى ومرارة، ونحيب قريباتها، أخواتها، يزيد من كربها، وأطفالها يتساءلون في حيرة بحثاً عنها.

تكفَّن ثم تدخل في تابوت الموتى، تسمع خلفها الهمهات:

- تحفة جميلة غدت مجرّد (جنازة!).

القبر المتحفز جاهز لابتلاعها، الدفّان العابس الوجه يمدُّ يديه ليستلم جثّتها، تدخل في قاع مخيف، أسود حالك ينحدر نحو لحد ضيّق، ترصُّ الجثة بين الصخور متخذة وضعاً جانبياً، تسمع من يلقّنها الشهادتين كي تستعدَّ لمحاكمة القبر وسؤال منكر ونكير، أكوام الرمل تنهال عليها فيختفي نفق النور الشحيح، الأقدام تنأى بعيداً فتنقطع صلتها عن الدنيا، تتمنّى بيتها المنعم، سريرها الوثير، حجرتها الدافئة، أطفالها الملتفّين حولها كل مساء، الحراك الروتيني الذي اعتادته كل يوم، أهكذا يقطع الموت طريق الإنسان

ليجد نفسه فجأة في جوف التراب جثّة مكفّنة، تتذكر رعب قبض الروح حينما باغتها رجل أسود، شعره منكوش رائحته نتنة، يلبس السواد، رجلاه طويلتان، طولهما ما بين السماء والأرض تخرج النار والدخان من فمه ومنخره، وعيناه حفرتان من جهنم، ذعرت فجحظت عيناها وتجمدت، خاطبها ملك الموت (أنا الموكل بقبض روحك) لم يدرك لناس ما يحدث خلف أسوار الجسد حينما ينطفئ مصباح الحياة بنفخة من عزرائيل، وها هي الآن ترقد في قبرها وحيدة تحمل أوزاراً وآثام.

تتساءل:

أين أنا؟

يأتيها صوتٌ مدوٍ يثقب طبلة أذنها (أنتِ في البرزخ).

تبحلق في رجلين يخترقان قلبها بنظراتٍ شرسة يحملان بين يديهما سجلاً ضخماً، لم ترَ من هو أشدّ منهما رعباً، فالنار تتلظّى من عينيهما وشعرهما يتدلّى إلى الأرض وصوتهما راعد، صاعق، وفي مشيتهما ريحٌ عاصفة تزلزل الأرض.

يقولان:

هذه صحيفة أعمالك، انظري.

تبكي:

إنها سوداء قاتمة.

ويحاكمانها عبر أسئلة عقائدية متوالية:

ـ من ربُّك؟ ما دينك؟ من نبيّك؟ كتابك؟ صلاتك؟ صومك، حجابك، .. الخ.

ترتبك في الإجابة ويتعثّر لسانها (لا أعرف، نسيت، لا أدري) ويهويان عليها بكرباج من نار فتصرخ صرخة طولها مئة عام، ثم تشعر بالقبر يضغط على جسدها فيرشح الزبد الأصفر من فمها وأنفها فيعنّفانها: (هذا لأنكِ لم تصوني جسدكِ أنكرتِ آياتِ الله ومضيتِ في طريق الفاحشة عنداً وإصراراً).

ثم يخرج من لسانها نارٌ تحرق وجهها فيمضيان: لطالما استغبتِ الناس فكان لسانك بذيئاً.

تذكّري أنك اتّبعت الشهوة واللذة الحرام، ومضيتِ في طريق الزنا دون خوف من الله فستمكثين في قبرك جيفة نتنة تنبعث منها الروائح الكريهة، فيقول كلُّ من يمرُّ على قبرك على سطح الأرض (ما أنتنَ هذه الرائحة) فيلعنك ويمضي، وسيخرج من جسدك المكشوف على الأغراب في الدنيا الديدان القذرة ستنهشك

وتقضمك حتى قيام الساعة.

اختفى منكر ونكير وتركاها في حفرة تصطلي بنار الجحيم، في كل حين تسمع نداء الأرض مدوياً:

(أنا بيت الوحشة، أنا بيت الوحدة، أنا بيت الديدان، من كان صالحاً كنت له روضةً من رياض الجنة، ومن كان فاسقاً كنت له حفرةً من نار جهنم).



حالةُ حبّ

همسة: الحبُّ الحقيقيُّ أن ينكِرَ المحبُّ ذاتَه من أجل إسعادِ حَبيبِه.

حفيف ثوبها وهي تستطرق الحجرة يلسع قلبي غيرةً، داريت ألمي بتجلُّدٍ كاذب وصبرٍ واهم، بَيدَ أن دمع العين فضحني.

لُذت بحجرتي الصماء، فلأول مرة يفارقني (عابد) ويتركني نهباً للفراغ والوحشة، لثمت وسادته الخالية وانتشيت بعطره الباقي في ثنايا الليل المنصرم، الأثير المنتعش بأنفاسه، بكيت حسرةً وندامة المساءات الدافئة المعبّقة برائحة البخور..

غفل عنا الزمن فغرقنا في أمطار الحب حتى فاضت مشاعرنا فكانت بلون الصحو، وحينما أدركنا الخريف واستعدّ الشتاء العجوز ليطوي صفحتنا من ذاكرة الوجود، تذكّرنا أننا بلا ولد بينما النعيم حولنا ينتظر الحصاد، صارحته على مضض:

- تزوّج يا عابد، فمحاولات علاجي عقيمة.

شهق مستنكراً:

- مستحيل.

- حبيبي يا نور عيني، إنه حقُّك ولن أفاصل فيه.

- أرجوكِ (إيناس) اقفلي السيرة.

أستشفُّ حبه للأطفال حينما يشتري الحلوى لأبناء الجيرة، لهفته على أولاد أخته تنضح أبوّةً، لا أحد يعرف حجم رغبته كزوجته، هي من تلتقط إشاراته العابرة وتفهم دلالاتها، حبي الخرافي له ونبله طوال سنينِ العشرة حرّضاني كي أنفّذ الفكرة الاستشهادية دون تردُّد.

وكان غرضي:

- حلمي أن أهدهد ابنك في أحضاني وأتوق إلى حمله لأنه من صلبك، فلا تحرمني هذا الشعور.

أدخلته في متاهة:

- أجرحُ شعورك؟! لا.. لن أفعل.

وأحرجته حينما قرّرت أن أقتلع قلبي وأطأه تحت قدمي، خطبت له جارتي (فوزية)، الشابة اليتيمة التي تعيش مع عمّتها، اضطرب واجتاحته حالةٌ من الذهول، لكني مزّقت صمته:

ـ توكّل على الله، فالبنت طيبة وفقيرة وسيثيبنا الله على هذا الفعل.

وكان العرس مأتم عزاء ندبت فيه رجل عمري، رفيق شبابي، وبررت أن ما حصل استحقاقٌ لأيام صبره على عيبي ونقيصتي، فلطالما احترم مشاعري وغض الطرف عن أنانيتي المزمنة وأنا أحاول الاستحواذ عليه ومصادرة حقه في الأبوّة وما شابت محبته شائبة أو ثاورني دفاعاً عن حقّه المغبون، المحطّات المستقطعة من تاريخنا المترّع بالتناغُم المشبوب بلورت لنا المحبة المحضة التي ننكر فيها ذاتنا من أجل سعادة شريكنا.

دخل عابد حجرتي بحلته الأنيقة وعطره يغمر المكان، وددت لو أترك نفسي تشرب من مَعِين مُحيّاه، تفرّست فيه شوقاً وعيناي دامعتان، ردَّ الباب في هيئة المذنب حينما يكل لسانه عن الاعتذار، قبّلني على عيني ثم لعق الرذاذ وهدهدني كطفلة يتيمة:

ـ تبقين الأولى والأهمّ في حياتي.

وسبقته:

ـ العروس بانتظارك.

تركته ورقدت في سريري:

ـ عابد، أنا متعبة وأريد أن أنام.

أخذ يفكُّ أزرار قميصه.

صحت مذهولة:

ـ ماذا تفعل؟!

ـ أحببت الرقاد هنا.

ـ اذهب أرجوك ودعني لوحدي.

ـ ولكني أحبُّ أن أقضي الليلة معك.

أجتر ألمي المكبوت:

ـ لا، شكراً على أحاسيسك النبيلة، لا داعي يا عريس!.

يُفتح باب الدار وتخرج العروس تتلفّت ضَجِرة:

ـ عابد.. عابد.

أشرت إليه وأنا ألعق جرحي:

ـ ألحق بها قبل أن تفطن إلى وجودك معي.

خرج إليها في فناء الدار، صوته يسوطني وهو يهمس فيدخلان الحجرة، أعرف أنه يداريني وهذا ما يقتلني في الصميم، انكفأت على جرحي ملتاعة، حاولت أن أهرب من تلك الصور القاتمة

والخيال الشيطاني يوسوس منتهكاً أسوار الحرام، الموقف الذي يغيظ الزوجة ويُلهب غيرتها بمجرّد أن تتخيّل زوجها في أحضان الأخرى، يلاطفها، يداعبها، الذوبان الذي يعمّق وصالهما، التحامهما ببعضهما والتفافهما كغصني شجرة في عناق يثمر برعماً أخضرَ، أتخيّل الوسادتين الملتصقتين في حافتيهما وانسيابهما في مجرى الزمن كياناً واحداً.

قلقي أن يدمن عليه، أن يجدها فتيلاً لرجولته فيزهدني كتحفة قديمة،الليل المتخم بحكايات اقترابنا تُضرم داخلي ناراً لا تخبو، قبضت على وسادته فعصرتها وأنا أعض شفتي في أنين المتوجّع وأُرهِف السمع إلى فضاء الفناء أتحسس آثارهما بفضول وقلق، ربما يشمئزّ منها، يُعرض عنها، يرجع إليّ نادماً.

(أستغفر الله وأتوب إليه، أعوذ بالله من شر الشيطان الرجيم)، تلوّث قلبي بالحقد الأسود حتى كأني أشعر بدخانه الصاعد في تأوّهاتي المتبخّرة في برودة الليل، إن كنت لا أحتمل زواجه فلأنفصل عنه، نعم، قرار الطلاق سيبتر الجذر الملتهب لأستريح.

يؤذّن المؤذّن وأنا يقظة أتلظى على جمر الغيرة، ولست متحفزة

لصلاتي بخفة كما الأمس، فالنفس المستسلمة لوساوس الشيطان غرقت في وحل الإثم ونوايا السوء.

لقد انتهيت من حياته تماماً وتهمَّشت وطالما عجزت عن الإنجاب، فلا ضرورة لبقائي في هذا البيت.

صلّيت الصبح وأنا مشتّتة الفكر، أتخبّط في قراراتي، وانتهيت إلى قرار الرحيل.

جهّزت حقيبتي وجمعت كل حوائجي، كمن تطوي تاريخاً، فالحاضر المؤلم لن يعدني إلا بمستقبل قاتم.

ـ اللعنة عليّ ، كم أنا غبية، لقد دمّرت حياتي بيديّ هاتين!

النار المتقدة في صدري لا تنطفئ أبداً والغربال المضطرم في قلبي يصطخب حتى بتُّ أكره عابداً وأكره زوجته وأتمنى لهما الموت.

تركني أحترق وكأني أجلس على جمر، ها هي الساعات تطول والباب عليهما مغلق، هذا يعني أنه استأنس بها، الشابة التي ستلد له وليَّ العهد، وأنا العجوز المهجورة تطحنني رحى الإهمال والنكران، ألهث انفعالاً وخيول البلاء تطأ قلبي وتحطمه.

لا أدري بالضبط متى غفوت لأصحو على صوته وهو يلامس خدّي بأصابعه، استيقظت ثائرة:

طلقني، طلقني.

ردَّ مأخوذاً:

- سلامتك يا نور عيني ما بكِ؟

كمن مسّها جنون:

- لا أطيق هذه الحياة.

شملني بنظرة يتحفز فيها للهجوم ويتلبد فيها الشوق، تُشَلّ إرادتي ويتراجع هدير غضبي، يطوّقني في عنف:

- إن سمعتها منكِ ثانية قتلتك.

- وماذا تريد من امرأة شمطاء، مجدية!.

- مَن قال لكِ مجدية؟ كنتِ لي دوماً غيمة مترعة بالحب، ألا تشعرين أن ما يربطنا ببعضنا شريانٌ ينبض من قلب واحد؟ وإن رغبتِ أن أطلقها فعلت!

الشكُّ يراودني، الوساوس تنهش قلبي، لم أعد أصدّق تصريحاته رغم أنه يحلف لي بأغلظ الأيمان أني حبه الأول والأخير،

ربما فقدت ثقتي بنفسي، نعم، المرأة التي تحرم من الإنجاب وتبتلى بضرّة يمزقها الإحساس بالنقص وتفترسها الوساوس بالرغم منها، فلبثت أفسّر مداراته إشفاقاً وعطفاً فأثور كلما لان معي في الكلام أو بالغ في التدليل، لم أفهم أحاسيسه كرجل قادر على جمع امرأتين وصارحته أنه لو أحبني بصدق لما تزوج من أخرى حتى لودفعته إلى ذلك، كان عليه أن يرفض بشدة!

أدخلته في دوامة من الحيرة، فلم يعرف كيف يسيطر على زمام الزوجتين، فعندما أخاصمه وأقفل باب حجرتي ينفس عن غيظه في الأخرى فيناديها متذمّراً ويدبُّ شجارهما لأتفه الأسباب فتسري في داخلي نشوةٌ آثمة، ودفعني هذا الإحساس الظالم إلى المبالغة في اجتنابه وصدّه حتى يدرك الثانية وهو في مزاج حاد ونفس مكتئبة، اللحظات التي يُقفل عليهما الباب فيها أشد ألماً لي لأني أستعيد ذكرياتي معه ومعبد الحب الذي تحطّم، أناديه صارخة (عابد، عابد) وأدّعي المرض والخوف من الوحدة، المهم أن ألفظ سعار الغربال الذي يصطلي داخلي لأستريح.

شهور قليلة وإذا بي أقع طريحة الفراش، أكلني الحزن ونكأني الألم، عافت نفسي الطعام والشراب، طعم الحياة المرير تقذفه

معدتي مع الطعام، لعلها رغبتي في الموت وإذعاناً مني بلسع ضميره، كرهت عابداً لأنه حطّم قلبي، بل قتلني، فلم أقوَ على حمل نفسي.

اتصل عابد بالطبيب.

وجدني شاحبة، ذابلة، والدوار لا يبارحني منذ أيام، سألني الطبيب:

ـ ما أخبار الدورة الشهرية؟

أجبته يائسة:

ـ إنها تودعّني، اضطربت منذ شهور ثم اختفت ولم أعد ألقي للآتي من حياتي بالاً.

بعد الفحص، التفت الطبيب إلى عابد:

ـ زوجتك حامل.

سألته لأتأكّد أني واعية:

ـ حامل؟!!

ـ نعم حامل.

ـ وعليكِ إجراء فحص في المختبر لتتأكّدي.

ـ ولكن.. دكتور في هذا السنّ؟

ـ وممكن أكبر من ذلك، هل تعترضين على إرادة الله؟

وأكّدت نتيجة الفحص كلام الطبيب.

بكيت، ولثلاثة أيام متواصلة، لم أصدق، كيف حدثت المعجزة، وبهذه الظروف؟ المفاجأة تعقد اللسان وتترك العيون تذرف فرحا هتفت في علياء السماء (شكراً لك يا ربّ).

(فوزية) تنتظر بينما أستعيد مجدي وموقعي الذي خسرته، فعابد حولي يدللني كعروس في مطلع إشراقتها.

سجدت لله شاكرة، وتذكرت قدرته سبحانه في حمل زوجة النبيّ زكريا وهي عجوز عقيم.



أطلال امرأة

همسة: (نستطيعُ أن نتحكَّم في كلِّ شيءٍ.. إلّا قلوبَنا).

سنوات وهو غارق في غياهب الذكرى، يرمح بخيل خياله إلى شواطئها الغائرة، يستفقدها في يومياته الرتيبة، صوتها المغيب تحت التراب، عيناها المتوقّدتان شوقاً تصافحانه حينما يعود في المساءات الشتوية، وجودها المتجذّر في أعماقه يتجدَّد كالربيع النضر، يروي عطشه كهطول المطر، سلوته المدفونة في القبر امرأة تنشطر إلى نساء، تتقلب كفصول السنة الأربعة، تأصلت في ذاكرته كتاريخ، واستوطنته كانتماء فكانت له هوية، المرأة التي استولت على ماضيه أماً، وعاشت حاضره زوجة، ونمت في شرايينه أملاً.. غيّبها الموت في أزمة قلبية مفاجئة إذ لم تحتمل قوانين الأرض فاتخذت من السماء سكناً، موتها كارثة، زلزال، أيقظه من حلم فردوسي على حقيقة مرّة، فسقط على الأرض محطماً، مدمراً بالكامل، يتذكر برغمه أيام النعيم وقلبه الأخضر المترع بالأمل.

لا تشبهها امرأة، في كل تفاصيلها المميّزة. تسكنه حتى شهقته الأخيرة، يبكيه مقعدها الذي خلا، وسريرها المعبّق بالبخور ومشطها العاجي يتدثر في الموج الأسود المتمّرد، وطفلته تكبر بين عينيه صورة ناطقة عن أمها الراحلة، ذات العينين الصافيتين والنظرة الخجلة، ولحن الصوت المغرد بالحنان، أجفلَ من كل نساء الأرض وأضرب عن الزواج، سخروا منه وانتهكوا رجولته فما استوقفته الثرثرة الفارغة فهو قانع باستحواذها على كيانه، هي كالشمس التي لا تغيب عن حياته ولن تستأصلها أية امرأة من منابته.

تردُّده على قبرها وقت الأصيل كان من موجبات حبه وإخلاصه، (مازال فتياً ليفهم حكمة الحياة)، والده الذي أقعده المرض يترقّبه بإشفاق ويجتهد كي يخرجه من شرنقة الزهد وهي تتصلّب يوماً بعد يوم فتسجنه في حيز ضيق لا خلاص منه.

- انسَها يا ولدي وليعوّضك الله بزوجة صالحة.

يعترض (مراد) بشدّة:

- هل أستطيع أن أنسى روحي؟

- أنت شاب في مقتبل العمر لجسدك حاجة ولنفسك مطالب.

- وهل سألني جسدي هذه الحاجة أو طالبتني روحي غير سلوى؟

والدته متوفاة مذ كان في غضاضة عمره فتعهّدت أخته الكبرى تربيته حتى تزوج (سلوى) ابنة عمه، كبرت معه فترعرعا تحت ظلال البيت الكبير والتحما كتوأمة عشق، أبوه الكهل يقلق عليه فيحرض الأقارب لإقناعه بالزواج، ويتعمد البعض دفع الفتيات الجميلات لاستمالته، يتندرن في قصة وفائه ويتمنين وصاله عن قناعة وإيمان، إذ يندر أن يخلص رجل لامرأة حية فماذا يعني الوفاء لميتة؟! رجل خرافي تمرد على قوانين الطبيعة، كم هي محظوظة أظنها تغار منها النساء وهي في تربتها دفينة.

اتسعت دائرة الحكاية والتكهّن بسرِّهذا الحب المحض شغل حديث الناس، هل كانت زوجته استثناء، أم هو رجل ملائكي منزه وفسّر البعض أنها أسرار كونية وتمازج كيميائي في الذرات حينما يلتحم النصفان بقوة لا تنفصم.

كثر من الشائعات تثار حوله وهو غارق في انعتاقه الروحي يناجي طيفها في خلوته المحببة ويرثيها على الورق قصائد حزن وبكاء، تدهورت صحّة والده ولبث ينازع لأيام، التف أولاده حوله، فوصى مراداً:

ـ لن أرضّى عنك يا ولدي ما لم تكمل نصف دينك.

ثم التفت إلى ابنته الكبرى:

هذه وصيتي وأنتِ مسؤولة لتبحثي له عن زوجة مناسبة.

إذاً كان القرار أن يجتثَّ جذور قلبه وينسلخ عن هويتها ليتقمص كائناً غريباً بنفس رجل بهيمي يعاشر كالدواب، استعدت أخته بهمة وعزم وخطبت له امرأة ناضجة، متفجّرة الأنوثة، يلمع الذكاء في عينيها اللوزيتين، اشتهت (سرور) خوض اللعبة مستهينة بمن يصمد أمام فتنتها، ستتلاشى من كيانه فور أن يذق من كأس حبها الشهد اللذيذ.

في الماضي تزوّجها رجل متردد ينوء بعبء أنوثتها الطاغية فطلقها ودموع الحسرة تترقرق في مقلتيه، ها هي الآن تغزو مملكة (مراد) المقدَّسة لتدنَس معبد حبه، البيت الصامت أشبه بغابة موت، الجدران المتكفّنة في بياض شاحب، صورها تغطي الجدران لوحات حب خالد، النوافذ المغلقة على عتمة باردة فالشمس في غياب سلوى كسيفة.

انحنت سرور على مراد تقبّله وتغرقه بفيضانها العاطفي وتحاول أن تعزف على أوتار قلبه لحن الحياة لينتفض، لاطفته طفلةً، داعبته حبيبةً، ثم تأتيه بمفاجآت مبهرة، بَيدَ أنه يعرض

عنها محزوناً ويشيح ناظريه في ألم، الطوفان المشتعل في مدارها يشمله فيستجيب كالمأخوذ وفي غفلة يفقد فيها العقل وعيه ينصهر، بكى وكأنما اقترف ذنباً، هزأت به وبوفائه الشاذ، قررت أن تُخبئ صورها وتفتح نوافذ القبر لتجدد الحجرات الصماء، الألوان الدافئة تبقيه صاحياً وتغرقه في مناخ منعش، أرغمته على نسق جديد، وطور امرأة مرحة ذات حيوية وغنج تتغلغل لتسكنه حبيبة وتملَأه كروح بعد أن تطرد شبح الماضي ستتشبث فيه.. ستخوض معركتها بإصرار، فالأخرى القابعة في قلبه ملتصقة فيه كجلده، متكونة في أعضائه كنسيج، ومحال أن ينتصر عليها خيال وذكريات امرأة ترقد في قبرها منذ سنين.

مازال فيه رمق رجولة، تستطيع في هدأة الليل أن تخطفه إلى حالات جنونها الجميل وهمساتها المشتعلة في أذنيه الصماء، رقصت على لهب شمعة حمراء ودكت بقدميها الأرض والصوت المتحفز داخلها يصرخ بوحشية: (اخرجي يا عفريتة من ذاكرته)، يتفصد جبينه عرقاً، يلاحق خطواتها الخاطفة بعينين مرهقتين، انعكاسات صورتها وهي تتمايل كالغصن الفارع على الجدار المقابل لمقعده يذكره أنه يتنفس حمماً ويقمع رغبات جسده المحروم وحواسه

المترمّضة والنزعة الحسية تتلظى في دمه، فتجسّ سرور نبضه، مستقرئة في عينيه هروب الجنية من جسده المحموم، اندهاشه الأبله يثير اشمئزازها، المرحومة رابضة في دماغه تسترجع وعيه فتخبو حواسه، الشريان الذي يتدفق منه الحب انفجر طوفانه، انتفض:

ـ كفّي أرجوكِ.

توقّفت عن طقوس الغواية وأقفلت جهاز التسجيل مبهوتة.

تمتمت متذمّرة:

ـ لو كان صنماً لنطق.

حاولت أن تسبح في فضائه لكنها طُردت، فسلوى تجري في عروقه كالدم ولن يتحرّر من حبها طالما كان له قلبٌ ينبض.

تنّهدت وهي تحلُّ رباط الشال الملتف حول ردفيها:

ـ إني أحسد امرأة ميتة على حب خرافي.

يعتذر:

ـ صدّقيني حاولت.

جثت على ركبتيها تفرست وجهه مندهشة:

- دعني أتطفّل على ماضيك وأسألك، ما الذي ميزها عن كل نساء الأرض؟

- منذ طفولتنا ونحن ننبض من قلب واحد ونتنفّس من رئة واحدة، يربطنا شريان تجري فيه أحلامنا، خفقاتنا، ارتجافاتنا، المكونات الدقيقة لشخصيتنا معاً وكأننا لا نكتمل إلا ببعضنا.

قلبت سرور كلماته في رأسها ومسَها شيٌ من الحرج فسألته:

- أعطِ لنفسك فرصة أخرى ربما تجد من هي أفضل منها.

- فاضت عيناه بالدموع، فأطرق:

- هناك نساء يتركن في أرواحنا مذاقاتٍ مختلفةً للحياة، تاريخاً معبّقاً بالذكريات، لو كنت أستطيع أن أبتر هذا الجزء من حياتي لفعلت، لكنني مازلت أتوهج بشعاع روحها المنصهر داخلي، لم ينطفِئ رغم مرور السنين، كانت امرأة متجدّدة في أفكارها، متنامية مع الزمن، تبعث داخلي اندهاشات رائعةً، فأنا لم أكن أعيش معها فحسب بل كنت أحلّق معها في السماء.

لسعتها الغيرة فاعترضت:

- ربما هي رؤيتك الخاصة، وقد لا يجد فيها رجل آخر ميزة

تّذكَر.

عبر وجهه عن الانزعاج.

ثم احتضنت رأسه بين كفّيها محدقة فيه:

ـ مراد.. ألم تشعر بأي نوع من الميل اتجاهي؟

ترك مقعده متّجهاً إلى حجرته.

لحقته منفعلة يتناهبها الإخفاق والغضب، شدَّته من قميصه، فالتفت إليها:

ـ أرجوكِ دعيني لوحدي.

وفكّرت سرور أن تسافر معه إلى مكان بعيد لعلّه يُشفى من وهمه، قطعت تذكرتين وفاجأته صباحاً:

ـ استعدَّ لنسافر إلى النمسا.

تأملها ساهماً، ثم رد بكل برود:

من قال لكِ إني راغب في السفر؟

تمالكت أعصابها:

ـ من حقّنا أن نسافر.

ـ سافري وحدك.

تساءلت بغيظ:

ـ أسافر وحدي؟!

وفجّر المفاجأة:

ـ سرور، أنتِ امرأة جميلة ومرغوبة وأنا رجل ميت سأعيش لأربّي ابنتي، فخيرٌ لنا نحن ـ الاثنين ـ أن ننفصل.

ذعرت:

ـ نترك بعضنا؟ انتظر على الأقل سنة كاملة، أبهذه السرعة تقرّر؟

كان منزعجاً من نفسه ومن التوحد المزمن الذي أسقط اعتبارات المقرّبين حوله، باغتها:

ـ سرور.. أنتِ طالق، طالق، طالق.

صُدمت.. وانعقد لسانها لكنها بعد أن استوعبت الموقف، عنّفته:

ـ أنت رجل مريض عديم الرجولة، لا تتصور ورعك عن النساء مبعثه الوفاء بل إنه تسويغٌ وحيلة لتغطّي عجزك، أنصحك أن تعرض نفسك على طبيب نفسي.

لم يفهم منطقها أبداً، فكل حواسّه رهينةٌ للراقدة في القبر،

الموجات الصوتية تأتيه مشوشة إلا صوتها المغمس بنهر الجنة.

كانت تستعدُّ لتغادر بيته، ودعها وهو جامد في مكانه:

ـ مع السلامة.

ملاحظة: تُوفِّ مراد بحادث سيارة بعد سنة من انفصاله.

فالحقيقة أحياناً أغرب من الخيال!



أسرار نجمة

همسة: مَن يترك دربَ الاستقامةِ فإنَّ معيشَتَه ضنكٌ وعذابٌ.

أقبلت السكرتيرة (سعاد) تطرق الباب مستأذنة:

- عفواً، الفنانة (مروج) بانتظارك دكتور.

تساءل في انشداهٍ:

- الفنانة مروج بذاتها؟

- نعم دكتور بشحمها ولحمها.

- دعيها تدخل.

شابه نوعٌ من الاضطراب والخجل، ففنانة صاعقة الفتنة كـ مروج تحتاج إلى أعصاب من حديد وإلا انفرط زمام التحكُّم.

تظاهر بترتيب الملفات على مكتبه، لكن الطرق الناعم والهمس الرهيف شدّا انتباهه.

ـ عفواً دكتور.

التفت إليها وهو يستحضر مشهد الغواية في ذهنه لكنه بوغت فتساءل في سرّه:

ـ أهي مروج صاروخ الجمال المرعب؟!

وبنبرة رصينة عبرت عن اتزانه:

ـ تفضلي سيدتي

أشار إلى المقعد المخصص لمرضاه.

ابتدرته بإطراء:

ـ سمعت عنك كل خير.

ـ أشكرك.

ـ يقال إنك حلّال العقد فما خاب من استشارك دكتور.

ـ شهادة أعتزّ بها.

أطرقت صامتة بانتظار مبادرته.

ـ عفواً، هل أنتِ الممثلة مروج؟.

انفرجت شفتاها عن ابتسامة عريضة:

ـ فوجئت بي أليس كذلك؟!.

- بالضبط.

- جئتك دون رتوش لتقرأ باطني وتكتشف مروج الإنسانة.

- أرجو إفادتي ببعض البيانات.

- الاسم الكامل: مروج مختار عارف.

- العمر: ٣٥ سنة.

- الحالة الاجتماعية: مطلقة.

- هل سبق أن تردّدتِ على طبيب نفسي آخر:

- لا.

- هل تعانين من أمراض مزمنة؟

وهي تتنهّد بحرقة:

- نعم، التعاسة!.

- أقصد أمراضاً كالسكر والضغط و....

- صدقني التعاسة أسوأ من جميع الأمراض التي ذكرتها لأنها سبب الأمراض العضوية.

- معقول؟ نجمة الإغراء تعيسة؟!.

وأضافت مؤكّدة:

ـ ومنذ أن خلقت في هذه الدنيا.

ـ والشهرة والنجومية والثراء والمعجبون المتهافتون حولك والجمال الأخّاذ وو....

قاطعته:

ـ بالرغم من هذه المزايا التي عدّدتها تعيسة جداً.

دخلت السكرتيرة ومعها فنجاناً من القهوة.

أشار الدكتور حسام:

ـ تفضّلي القهوة.

قلبت مروج الأفكار في ذهنها المشوّش لتلتقط الخيط:

ـ دائماً أحلم بكوابيس.

ـ أي نوع من الكوابيس؟.

ـ كأني بألسنة نار تلتهب حول سريري وأنا نائمة ويشتدُّ سعارها فأصرخ مستغيثة لكن صوتي محبوس في حلقي وتمتدُّ النار نحو جسدي فيخيّل لي أنها رؤوس أفاعى تقرض لحمي وتمتصُّ دمي، أصرخ فأستيقظ من نومي مفزوعة.

أمسكت عن الحديث لتلتقط أنفاسها.

سأل الدكتور حسام:

- وكم مرة حلمتِ بهذا الكابوس؟

- كل ليلة، حتى إني أدمنت الأقراص المنوّمة على أمل أن أفقد الوعي وأهرب إلى المجهول لكن دون جدوى.

تأمّل الدكتور محيّاها المنقبض وهي ترتعد، فانبرى قائلاً:

- حدّثيني عن طفولتك.

أرخت رأسها واستطردت:

- إنها معاناة طويلة، بدأت من فقدان أبي الحنون بحادث سيارة وزواج أمي من صديقه، ومشكلتي كانت مع زوج أمي الذي أخذ يتحيّن الفرص ليتحرَّش بي في غيابها، إذ كنت أقلق كلما تركت أمي البيت لطارئ فهي وثقت بزوجها تمام الثقة ولم تتخيل أنه وحشٌ كاسر قد نال مأربه في النهاية فكانت المأساة إذ جنّت أمي وانهالت عليّ ضرباً مبرحاً وطردته من البيت ثم زوجتني وأنا صغيرة من رجل ناضج احتوى الموقف وغضَّ النظر عن عيبي لكنه تعذب بالشك والغيرة حينما كبرت واستوت ملامحي فتفجّرت جاذبيتي واختار أن يطلقني في النهاية، وعرفت من نهم العيون حولي أني مؤهلة للصعود إلى غايات قد لا تجترئ عليها باقي

البنات، استثمرت جمالي في أغراض مشبوهة، وبالمصادفة انتشلني ممثل كومبارس من وحل الرذيلة فقدّمني إلى مخرج شهير تبناني فانطلقت كالصاروخ نجمة إغراء مصنَّعة كالدمية وفق مقاييس جاذبة لاستجلاب المال إلى جيوبهم الشرهة فمثّلت الحب وأنا لم أعرفه، وأتقنت دور العشق وأنا لم أذق رحيقه، تقمصت الأدوار في واقع حياتي وفي علاقاتي مع الناس، حيث أتقنت اللعبة تماماً ونصبت فخاخ الحب للرجال الأغبياء فكان رجل السياسة، رجل الأعمال، رجل السلطة، مخلوقات هشّة، ضعيفة، تزمع بالقوة لكنها بين يدي طيعة، سهلة.

ـ صمتت مسترجعة، أصعب محطة في حياتها فبكت، بينما لبث الدكتور حسام يصغي إليها ويدوّن ملاحظاته في ملفها الخاص.

قدّم لها علبة المحارم وهو يستحثّها في اهتمام:

ـ أكملي لو سمحتِ.

ـ كنت متعطشة إلى شعور حقيقي مفقود داخلي حتى التقيت (هاني) شاب يصغرني بسنوات، كاتب سياسي قد اعتقل لأكثر من مرة بسبب مقالاته الثورية، كان ذلك في الاحتفال الذي أقامته الصحيفة بمناسبة مرور أربعين عاماً على صدورها، فقد دعاني

رئيس التحرير كضيفة شرف وصادفته هناك شعرت وكأني أعرفه من زمن بعيد، لم يُعرني أي اهتمام بالرغم من تهافت الرجال وتدافعهم حولي، كان منزوياً في ركن قصيٍّ يشرب القهوة ويتحدث في الهاتف،لمحته من بعيد فسألت أحد الصحافيين عنه فقال لي: (تجاهليه فهو مخلوق معقّد انطوائي).

لم أيأس فموجات قلبي لم تنفعل عبثا، حتماً هذا الشاب مميَّز، استطعت أن أجمع بعض المعلومات عنه وافتعلت قصة كي أبرر اتصالي به، شعرت للوهلة الأولى بجفائه وغلظته، فلم يكن اسمي اللامع وشهرتي الرنّانة يعنيان له شيئاً ، فهو يكره متابعة أفلامي زاعماً أنها تخدير لشعوبنا الغبية، أعجبتني جرأته فدعوته إلى فنجان قهوة في بيتي، لبّى الدعوة بعد إلحاحي الشديد.

وشاهدته عن قرب وطافت عيناي المولهتان في وجهه الصارم وسمرته الناضحة بالفروسية، احترت كيف أحتفظ به قبل أن يتململ ويهرب، فصمته وتحفُّظه يسلبان طاقة صبري لكني استجمعت شجاعتي وصارحته بكل صدق وشفافية بأنه رجل استثنائي يختلف عن كل الرجال الذين مروا في حياتي وعلّلت احتياجي إليه كمستشار شخصي.

لم يستجب لي أبداً، بل وقف مستنكراً:

- وهل طلبتيني لهذا الغرض؟

ارتبكت لم أعرف كيف أتدارك الموقف فتذرعت:

- لقد أسأت فهمي يا أستاذ هاني.

فأجابني كمن يصفعني بقسوة:

- أعتقد أنكِ أخطأتِ العنوان سيدتي.

وهمّ ليخرج لكني أمسكتُ بذراعه مستجدية:

- أرجوك اجلس، دعني أشرح لك الأمر.

نفض يدي وهو ينظر إليّ بازدراء كما لو كنت رجساً أو نكرة.

- لا تضطريني إلى فعل ما هو أسوأ.

فتح الباب وهرب مني إلى الأبد!

ابتلعت مروج الغصَّة وهي تنكمش في ألم.

سأل الدكتور:

- أهذا كل ما حدث؟

وتابعت بعد رشفة ماء:

- طاردته في كل مكان، لاحقته كالمجنونة وكان يذعن في العند والصد وعلمت عبر تحرياتي أنه خطب كاتبة شابة بعد قصة حب

فاشتعلت بي غيرة فتاكة وتخيّلت حبهما الغضّ وبراءة مشاعرهما وطهارة عشقهما وكيف يلاطفها في الخلوة وينشد في مسامعها عذب الغزل ومعسول الكلام ونسجت صوراً وهمية دفعتني إلى مهاتفته لاستدرار عواطفه حتى لو اضطرني إلى غوايته بجنون.

ـ أطرقت ثم انبرت في حزن:

ـ بعد هاني لم أعد أشعر أني حيّة، فكأني متُّ بعده وانتهيت، أقرأ زاويته اليومية مرات عدة وأعيش في كلماته وأتنفسها وأستنشق رائحته من بين سطوره المتمرّدة لعله قصدني بحرف أو عبارة أو ضمنها بعض هزائمي وخيباتي كامرأة مفتونة، لا أعرف كيف يخنقني حبه ويغمرني حتى الغرق فأغلي كالمرجل وأكتم حمم شوقي لئلّا أنفجر، أدمنت التفكير فيه فراودني في يقظتي وحلمي، الإحساس الذي استولى على أعصابي لا منطق له أو مسوّغ.. عشت جحيماً لا يطاق فانعدم كل إحساس بالفرحة والبهجة في حياتي، فلا المال يسعدني ولا الشهرة ترضيني، بل كنت على استعداد أن أهب كل ما أملك مقابل رشفة حب، نظرة اهتمام من هذا الرجل العنيد، فحرماني منه كالسرطان ينهشني، كالمرض يأكلني ويستفحل فيّ ويقتلني ببطء، حاولت أن أنسى لكني أغذي في قلبي ذكراه فيتجدّد

هواه أشدّ وأنكى ممّا كان وكأني لا أريد أن أنسى فعذابه سلوتي في الوحدة.

دهش الدكتور:

ـ يبدو أن هناك انعكاس لحكاية خيالية مرسومة بكل تفاصيلها في ذهنك على واقع الوهم، فالشاب لم يبادلك أصلاً أية مشاعر بل كان صريحاً وواضحاً منذ البداية.

سألته غاضبة:

ـ ولِمَ فعل ذلك؟.

ـ لأنه لم يكن يحبك.

ـ ولماذا لم يحبني؟

ـ ولماذا تفترضين أن يحبك؟

ـ لأني... لأني كما ترى لا ينقصني شيء، امرأة صارخة الجمال.

ـ ليس هذا مسوّغاً ليحبك.

كادت أن تصرخ:

ـ ولماذا تخاطبني وكأنني خصم لك؟

ـ ينبغي أن تواجهي الحقيقة وتفصلي التمثيل عن الواقع.

ـ وما الحقيقة في ظنك؟.

ـ أن الرجل في الحب له خصوصية فيمن يحبها والفنانة شخصية عامة، مشاعة لا تلبيه.

ـ لكنها إنسانة لها قلب.

ـ أنتِ من اخترتِ هذا الطريق، وكما تعرفين له أثمان باهظة.

ـ لكنه ظلمٌ في حقّي.

ـ الناس تغبطك على الشهرة والنساء تحسدك على الطلة الفاتنة.

ـ لكني تعيسة.

ـ وما أدراهم أنكِ تعيسة؟.

ـ هل أعقد مؤتمراً صحفياً لأعلن للملأ تعاستي.

طفرت الدموع من عينيها فتهدّج صوتها:

ـ كنت مستعدّة لأن أضحي بكل شيء من أجل هاني.

ـ صدّقيني لن تفعلي أبداً، إنه قرار انفعالي سرعان ما تعودين إلى حياتك الصاخبة التي صنعت هويتك.

استوقفتها لوحة زيتية معلّقة على الجدار، فصاحت بعد لحظة صمت:

- إنني كهذا الطير السابح في الفضاء تائهة أبحث عن عش ومستقرّ لا أدري لمَ شعرت به يصرخ شاكياً وحدته.

ثم أجهشت على الفور بالبكاء هاتفة في يأس:

- أنا متعبة يا دكتور، ضقت ذرعاً بحياتي، بت أهرب إلى النوم فلربما أنسى همي فالفراغ ينهشني ويتركني معذبة.

سألها:

- ألم تشغلك عروض الأفلام؟.

- شُحّت العروض وتعرض المنتجون إلى خسارات مالية.

- وعروض الزواج؟.

- آه.. ماذا أقول لك يا دكتور، فقد نكأت جرحي فالعروض سخيّة لكنها مؤقّتة بزمن ومشروطة بالكتمان والسريّة، رغبات مدفونة تنتظر التنفيس، رجال تزوّجوا المحترمات في العلن بينما ادخروني لمتعهم الخفيّة ولهذا أحتقر هذا النوع من الرجال لأنه يستجدي متعة عابرة ليس فيها رشفة حب، ناضب العاطفة يأتيني

مدفوعاً بحاسة بهيمية فيشعرني بالحقارة فأكرهه وأقرف منه ومن نفسي.

تنهدت وهي تحدّق في سقف الحجرة ساهمة.

سألها الدكتور:

- وماذا بعد؟.

- لا أدري يا دكتور ولا أعرف ماذا أريد بالضبط، صرت لا أجد أي معنى لحياتي.

- لم يخلقنا الله عبثاً يا مروج.

- وبماذا تنصحني أن أفعل؟.

- الحديث يطول وتحتاجين إلى أكثر من جلسة، لكني أعتذر منك الآن لأن مريضاً آخرَ في الانتظار.

وقفت لتودّعه شاكرة.

فقال:

- لقاؤنا بعد غدٍ إن شاء الله.

رجعت مروج إلى شقّتها معتلة المزاج، مشتّتة الفكر، شاردة فألقت بنفسها على السرير لكن الخادمة جاءت لتخبرها أن المخرج

(عبد الرؤوف) هاتفها مرات عدة، صرخت بامتعاض:

ـ لا أريد أيَّ إزعاج.

وتقلّبت على فراشها تفكّر وكأنما مطارق تهوي على رأسها، وبعد برهة أقبلت عليها الخادمة بالهاتف قائلة في حرج:

ـ ((معذرةً سيدتي، إنه عبد الرؤوف يطلبك لأمر مهمّ فقد أخبرته أنكِ نائمة لكنه ألح بشدة.

وفي تذمُّر خطفت مروج الهاتف لترد:

ـ نعم يا عبد الرؤوف؟.

ـ لقد ألغينا تصوير الفيلم لخلاف طارئ مع المنتج.

دب فيها النشاط فاعتدلت في جلستها:

ـ ولماذا؟.

ـ آنا آسف لذلك.

ـ وما السبب؟.

كانت ردوده غامضة تبعث على الشكّ، لكنها تحرَّت بدقّة فعلمت أن ممثلة ناشئة تتودد للمخرج وتبرهن له بتقاطيعها الدسمة أنها مربحة أكثر فاستبدلها بمروج، جُنَّت لكن جنونها زوبعة في فنجان،

فقد عجزت عن مقارعة سماسرة الرقيق التي استثمرت الجسد الأنثوي للتكسُّب والربح فكلما استُهلكت سلعة استبدلت بأخرى أجمل وأفتن.

ويستمرُّ مسلسل الإهمال والتجاهل لمروج حتى استوعبت أن صلاحيتها انتهت، والجمهور في مزاج متقلب وذائقة متجددة والصبية اليافعة تنعش دماغه، انهارت حتى اليأس.. أطالت النظر في المرآة ملياً تخاطب نفسها:

- هل خدعتني المرآة فظننت أني مازلت فتية، نضرة.

ثم صرخت أنتِ حمقاء، حمقاء، غبية.

خطفت قارورة العطر وقذفتها في المرآة حتى تناثرت قطع الزجاج حولها فخرّت على الأرض باكية منفعة في توبة هيستريا، بلغ انهيارها ذروته فدوى صوتها المذبوح في فضاء الحجرة:

أنا النجمة مروج، ملكة الإغراء، جميلة الجميلات...

قبضت ساق السرير وشدَّت جسدها المثقل لتقف على قدميها الخائرتين لكنها ترنَّحت فسقطت على الأرض منهارة، وفي غمرة اضطرابها خطفت علبة الدواء والتهمت الأقراص دفعة واحدة لتسترح من عذاب السنين، يخاتلها شريط الذكريات بصور بعيدة

يوم أن كانت طفلة ومشاهد مجدها تنشق من جوف الذاكرة الواهنة تسجد حلمها الزائف وهو يتبدد بطرفة عين، ينطفئ النور ويتلاشى عن ناظريها، والشهقة المحبوسة يلفظها الحلق الجاف زبداً مراً، تبحلق عيناها المذعورتان في سواد موحش فإذا روحها تُنتَزع كالشوكة من جسدها الطري وقد جفت عروقه فغدى تمثالاً من طين.



حجاب السكرتيرة!

همسة: لا تَحكُم على ما تعلمُ (مثل روسي).

في دهاليز مؤسسة النجاح التجارية يتردَّد اسمٌ كالسكر حلاوة ونقاءً، (شهد) فراشة ربيعية استوى عودها كغصن البان، صوتها المنعش ينتشر في الأثير المحبوس بين المكاتب فينتفض الروتين.

يتلفّت الموظفون من وراء القواطع الشفافة إلى مشيتها الاقتحامية حينما تدقّ الأرض بحوافرها المدببة فيتأجج فيهم نشاطٌ غير عاديّ.

تدفع الباب:

ـ (عبدالله) خذ هذا الملفَّ لتراجع الحسابات.

وتطلُّ برأسها من نافذة مكتب آخر:

ـ الاجتماع في الساعة العاشرة، أرجو عدم التأخير.

وتخلّف وراءها عاصفة من النميمة، نظرات الدهشة المنحدرة

في الإسفاف جعلتها طُعماً لأفواهٍ شَرِهة، تغمز إحدى الموظفات فور أن تدبر:

- ثوبها ينحسر حتى مكمن أنوثتها، كم هي وقحة!

وتتشفّى زميلتها:

- لا أجد في ساقيها جمالاً يستحقُّ كل هذا العرض الباذخ.

وبردٍّ استفزازي مقصود يعبّر أحدهم:

- لكنها مدهشة.

صفعته الموظفة بنظرة سخط:

- بل رخيصة تعرض مفاتنها بابتذال.

وفي سياق الحقد النسوي توافقها أخرى:

- ولهذا عرفت كيف تستميل المدير.

اعترض أحدهم فترك المكتب غاضباً:

- أعوذ بالله صارت الأعراض مضغة في أفواهكن.

تأخذ شهد مكانها في المكتب بآلية مَن تناغمت مع الأجهزة الإلكترونية الصمّاء، متوافقة مع المكان، تشكّل لوحة عمل من الطراز الرأسمالي، منجزة إلى درجةٍ أن تتعطل حواسها الأنثوية

في كبسة زر، التناقض الذي لم تستوعبه بيئة ذات ثقافة سطحية، اتخذوها لقمة سائغة تُقرض يومياً بمقراض الغيرة والحسد.

لم يفهموا الابتذال كقرار مسبوق بنية شريرة تدفع الإنسان إلى ممارسة فنون الاستهتار الأخلاقي، فهم حينما يقتربون من شهد يفاجئهم متراسٌ من الصلب والحديد، هذه الدمية الأزهرية ذات الملمس الحريري والطلة المغناج، يفرز جسدها اللَّدن قشرة صلبة كحالة دفاعية.

رغب فيها مديرها الكهل فعاث يغويها في الخلوات بالهدايا والعطايا لكنها تنزلق من بين أصابعه كالماء وتتبخّر، مترفّعة، عصيّة على الرجال والمراهنات الغبية، قوّضت أحلام التماسيح الساذجة فأعادتهم إلى أرحام أمهاتهم أجنّة.

هذا الصباح زار المؤسسة مدير شركة (الوفاق)، (عبد الخالق الهديب) وفي لقاء عمل حافل تأخذ شهد موقعها كمفتاح لأسرار مديرها (حسن)، وبصوت مخروم صدأه التدخين ينفس عبد الخالق دهشته:

- تبارك الرحمن.

يلتفت إلى حسن:

- لم تخبرني يا حسن عن غزالة بهذا الجمال.

تجهّمت شهد) فوضعت الملفَّ على المكتب وردّت الباب ثائرة.

ضحك حسن كمن اعتاد على مشاغبات طفلة مدلّلة.

- إنها جهنم الحمراء، لا يتجرّأ مخلوقٌ على الاقتراب من حصونها المنيعة.

دهش عبد الخالق:

- معقول؟!، معقول يا حسن تستعصي عليك فتاة بهذا الحجم؟!

- بل وترفض المكافآت والرتب التي يتمنّاها كل موظف وتعترض بشدة.

استمرأ عبد الخالق الفكرة وحدس أنها مغامرة لذيذة فانبرى يسأل في محاولة لتفنيد أساليب الصيد المعتادة:

- هدّدها بالطرد.

أجفل حسن:

- لا يا عبد الخالق، هذه النوعية نقطة جذب في الإدارة تعرف كيف تدير رؤوس العملاء بكفاءة استثنائية.

لكزه عبد الخالق في تخابث:

- بصراحة إنها تدير الرأس فعلاً، وحتماً سأدمن على زيارتك!

صافحه حسن وهو يشيّعه عند الباب:

- والمؤسسة ترحّب بك في أي وقت.

تلفّت عبد الخالق قاصداً شهد، قرأت السكرتيرة (إيناس) فضوله فردّت:

- خرجت لطارئ.

شمل الردهات الضيقة صمتٌ رسميٌ وليس ثمة حركة إلا الساقي وهو يطوف بأواني الشاي والقهوة.

أقبلت عاصفة الجمال تشدُّ على الملفّ كقضية، كمبدأ وعيناها تشخّصان الممرّ بإطراقة ثابتة وفي مشية منتظمة، تجاهلت الكهلين المتحفزين برعونة مثيرة للاشمئزاز ودخلت المكتب، يخترق الباب صوتها الأثيري معربداً في الهواء، دهش عبد الخالق وقد مكث يتلفّت في الردهات كالأبله.

- تتحدث الإنجليزية بطلاقة؟!

تنهّد حسن بحسرة مَن فشل في غزو بريطانيا العظمى!

- أمها إنجليزية.

وبالمثل يعلّل عبد الخالق عجزه:

- أوه.. من ذوات الدم البارد.

الصدُّ المهذّب يكهرب مديرها حسن فتأتي ذبذباته مشحونة بالغضب:

- الأرقام ليست دقيقة.

ويشير إلى التقرير:

- أخطاء مطبعية فاحشة.

ويحدجها بنظرة افتراسية:

- ما بكِ هذا الأيام؟!

ردُّها كان حاداً كالسكين:

- يمكنك الاستغناء عني إن شئت.

أطلق العنان لعينيه الوقحتين تبحلقان في مساحاتها البكر، فاختلج صوته انفعالاً:

- إذاً لمَ ترتدين الثياب الفاضحة؟

أجفلت وعيناها تجحظان في ذعر:

ـ فاضحة؟! هل تعتبر أناقتي فضيحة؟!

اختلّ توازنه:

ـ إنك تعذبينني بجمالك.

وحاول أن يسيطر على ارتباكه:

ـ ثيابك مثيرة.. لا تُحتمل.

نهرته بلطمة على خدّه:

ـ أيها الوقح.. احترم سنّك واحترمني.

خرجت وهي تحاول أن تتجلّد في مظهرها وتفتعل السكون.

هذه الزهرة المتوحّدة في خصوصيتها تفجر لغماً ينسف الظنون السيئة والهواجس الخبيثة، فالهمس يستشري كالنار في الهشيم: (تحجّبت!)

تتناقل الألسن خبر حجابها في ذهول واستدراك:

ـ تحجّبت؟!!

استراحت الموظفات فلعقن جراح الغيرة في صمت مريب.

ـ الله يستر عليها!

التحفة المرمرية مغطاة بثياب سود، يتداولون الحدث بشيء

من التأويل والتخمين.

زميلتها إيناس تسأل في توجُّس:

- هل تحجبتِ عن قناعة؟

طبعاً، فقد أقنعني خطيبي بالحجاب وأدركت في النهاية أنه درعٌ يحصّن المرأة ويدفع عنها الأذى.

غصت إيناس فور أن تلقت خبر الخطوبة، فاستعلمت مغتاظة:

- حقاً أنتِ مخطوبة؟

- نعم، وبالأمس كان عقد قراني.

ألقمت زميلتها حجرَ اليقين، فردّت ظنونها العميقة إلى نحرها خاسئة مدحورة، فعادت تتخابث:

- أمرك مدهش!

صاحت شهد بعدوانية:

- وأين الدهشة؟

اضطربت إيناس:

- تحوُّلك المفاجئ من النقيض إلى النقيض.

كادت أن تنقضَّ عليها لكنها تماسكت:

ـ لا أسمح لأحد أن يتدخّل في حياتي، لكني مضطرة إلى أن أكشف لكِ الأمر، فلقد تربيّت بعد وفاة أبي في (لندن) وفي بيئة مختلفة تماماً عن بيئتكم، ولم أكن على علم ودراية بفلسفة الحجاب حتى خطبني ابن عمي وعلّمني وأدبني واقتنعت وتحجبت، والله يهدي من يشاء.

انكمشت إيناس في مقعدها كالفأرة المذعورة بعد أن فضحت شهد سريرتها الآثمة.

وتابعت حديثها:

ـ كنت أظنك يا إيناس أكثر إنسان يفهمني في المؤسسة لأنكِ طوال اليوم تعملين معي وشاهدة على سلوكي وتصرُّفاتي، فهل بدر مني ما يخدش الحياء أو يسيء للأدب؟!

قطع حديثهما دخول المدير حسن، أجفل فور أن وقعت عيناه على خمار شهد الأسود:

ـ ما هذا يا حاجة شهد؟!!

رمقته بنظرة احتقار مشوبة بثقة واعتزاز بالنفس:

ـ الدرع الذي يصدُّ العيون النَّهمة.

احمرّ وجهه واضطرب، لكنه استجمع إرادته وأطلق قراره:

ـ هذه الثياب لا تصلح لسكرتيرتي الخاصة، فأرجو أن تتركي المؤسسة وتبحثي عن مكان آخر.

نفثت إيناس فحيح الغيرة المكظوم وهي تختلس النظر إلى شهد متشفّية.

ألقت شهد الأوراق من يديها وسحبت الكرسي قائلة في كبرياء:

ـ وأنا على أتمّ الاستعداد لترك العمل.

وكتبت من فورها قرار الاستقالة دون تردد ثم خرجت إلى الشارع تلتقط أنفاسها:

ـ الحمد لله أن هداني إلى هذا القرار.



قصتي مع شانتي

همسة: الرَّجلُ مِن صُنعِ المرأة، فإذا أردتم رجالاً عُظَماء فعلّموا المرأةَ عظمةَ النّفسِ وما هِيَ الفضيلةُ (جان جاك روسو).

ما زلت أبحث عن شبيهتها في دروب أسفاري، في محطات حياتي، سمرتها الداكنة كبقايا ليل الغربة، وعيناها الغارقتان في بركتي حزن، وشفتاها الناضبتان قد جفف الحرمان نداوتهما فأفترّتا عن ابتسامة ضنينة تشرق كشمس النهار في يوم غائم.

أذكرها بحجم إعاقتي يوم أن وعيت على ضعفي وأزمتي النفسية وأنا أصارع ذاتي المهمشة بالإهمال والتجاهل، تارة يتهامس الأطفال حولي بإشفاق، وتارة بتهكُّم، أتحايل على عقدتي باستظهار قوى مزيّفة داخلي دون جدوى، فمعنوياتي تخبو كلما تلفتُّ حولي فوجدتني وحيداً منبوذاً تمزّقني سهام العطف أشلاءً وتلقيني طعماً للهمّ والغمّ، وحدها من عرفت كيف تنقذني من مناخي القاتم وتخلق داخلي جنة سلام، أطعمتني وسقتني شهد

عاطفة بعمق الأرض وامتداد السماء، ما زالت أصابعها النحيلة ذات الرؤوس المتشقّقة وأظافر متآكلة تخطر في ذاكرتي، خصوصاً حينما أجوع فلطالما ألقمتني تلك الأصابع أشهى الطعام والتقطت نثاره المبعثر على ثوبي دون قرف أو ضجر.

تعترض أمي: (أطعميه بالملعقة).

كل من في البيت ينهرها بازدراء وغطرسة إلا أنا، فقد وجدت فيها عذوبة النهر الزلال وأَلَقَ الفجر المتشقشق في العتمة.

(شانتي) مربّيتي الهندية التي احتوتني أمّاً وطوتني بجناحي رحمتها وعطفها كقطعة من جسدها، ما زال رحيقها يعبق في حياتي رغم مرور السنين، كنت أدور في عربتي حائراً جزعاً أستنطق الصمت الموحش، أطوف بحجرات البيت المكتظة بالأسرار، فحجرة المكتب تغلّف همس أبي بالكتمان المريب، التقطه برهافة وفضول من وراء الباب، فثمّة امرأة فجّرت لواعجه فعاث يستجديها بشوق ذليل، الأكاذيب يهضمها الطفل المقعد على عسر وقرف، ومَن حوله يتنبّه إلى صمته الملغّم بالأسرار، فنظراته الصاعقة تثقب الأبواب المقفلة على احتمالات سلبية، فكل منهم يهرب إلى ذاته بتوحّد وأنانية، أمي المختالة بمنصبها (كمديرة لمؤسسة اجتماعية) حينما تنزوي

في حجرتها تتعّرى من كل أقنعة التملُّق والنفاق التي تزينها كسيدة مجتمع أمام الناس، اللسان المنمق بمصطلحات سيدات الصالون ينحدر في السوقية والابتذال مع رعيّتها في البيت، وأول من يتلقّى طعم البذاءة أبي المترهّل الشخصية الذي نفّس عن رجولته المكبوتة خلف باب المكتب، امرأة مجهولة ترمم مكوناته المنخورة فيعود بعد جولة عاطفية منتعشاً، منشرح المزاج.

أختي (سمر) ضائعة في متون الإنترنت، أخذتها أصابع خفية إلى هاوية الغواية فلم تجد حولها مركب إنقاذ يلقيها على ضفة الأمان، وأخي البدين (سامي) يفكّر بعقلية طفل ساذج ينهم الطعام ليسدَّ جوعه إلى الحب ويبرئ جرح الأنا المسحوقة بالتهكم، وأنا محبوس في شرنقة العجز داخل حجرة ملوثة تفوح منها روائح عطبة وعفن من بقايا أطعمة أهملت بعد رحيل الخادمة.

الإعاقة تشعرني باليأس بل كجرم أعاقب عليه بالتحقير والامتهان.. تتحاشى أمي النظر إليّ فربما أذكّرها بخيبتها، بفشلها، بوصالها النافر من أبي، أغوص إلى داخلي هرباً من نظرات التهكُّم والسخرية، أتمنى لو أحطم هذه العربة وأحلّق بجناحين لأخرج من سجن نفسي المتآكلة وأتحرر من إعاقتي البغيضة، لم أجد في

نفسي ثمة أملاً أو فتيل نور يعينني على مكابدة نقصي المشؤوم، حتى جاءت (شانتي) وصالحتني على ذاتي بجموح امرأة قروية لم تدنّسها المدنية بغلاظة المدنية، وجدت في تعطشاً مزمناً إلى الحنان، وقد استوعبتني بغريزة متيقظة إلى انقلاباتي الطارئة وتحملت قذاراتي كطفل مقعد يفقد السيطرة على حواسه في بعض الأحيان، واحتوت فوضويّتي حينما آكل بشراهة فتّتسخ ثيابي بنثار الطعام وتمسحه مخلوطاً ببصاقي اللزج بعفوية أم تدلّل طفلها الضعيف المجرّد عن كل عوامل القوة.

وفي أوقات مرضي عرفت معنى الدفء كدواء عجّل في شفائي، أستيقظ في بعض الليالي محموماً فتدهشني عيناها الحارستان تتفرّسانني في قلق وخوف ثم تهدهدني ملهوفة يشعُّ وهجٌ مريحٌ من كيانها الممزوج بالطيبة والبراءة، وعندما يغلبها النعاس ينهار جسدها المنهك على الأرض بلا وسادة ولحاف.

أناديها جزعاً:

- شانتي، شانتي.. خذي هذا الغطاء.

تنهض مفزوعة تحسب أن مكروهاً ألم بي..

وحينما تُهان ينقبض صدري وتمتغص بطني بل وأشعر برغبة

شديدة في التقيُّؤ، انكسارها يحطّم قلبي ويفتك أعصابي فأتمنى لو أملك القوة لأثور مدافعاً عنها في البيت، لكني عاجز، مشلول الإرادة، لا أملك إلا أن أُضرب عن الطعام وأصرخ في جدران الحجرة كالأبله قاصداً إزعاجهم.. ولن يهدأ غضبي ما لم تنبلج الابتسامة الصافية على وجه (شانتي) المتجهّم.

فسعادتي اقترنت بـ (شانتي)، هي من تفهم صمتي طبقاً لمعاييرها الأمومية البديهية، تحتوي بطقوسها الخاصة نوبات جنوني المفاجئة، فذكاؤها الفطري ينبئها بأفضل الخيارات في حلّ مشاكلي المتأزّمة وكأنها تملك عصا سحرية تقلب هيجاني إلى هدوء، حينما أشعر بعجزي عن مشاركة الأطفال في اللعب تجمعهم حولي وتفترش كراريس الرسم وعلب الألوان على أرض الحجرة لتشاغلني عن التفكير بإعاقتي، فالمناخ الساكن يغمرنا معاً ويأخذنا في جذبات الفن والجمال إلى حالة من السلام والمصالحة المريحة.

كنت أنمو وينغرس داخلي إحساسٌ بالانتماء إلى شانتي، حتى وجدت نفسي أتنصّل من أهلي وأنسلخ عن جذوري وأفكّر بنمط مختلف عنهم وبذائقة تشعرني أني غريب الأطوار، الليالي الطويلة

التي كنت أقضيها مع شانتي وهي تقصُّ لي قصصاً جميلة من التراث الهندي أوجدت فيَّ ميلاً شديداً إلى الأنوثة الخاضعة، فقد شغفت بنوع خاص من النساء اختزلَتهن شانتي بشخصها المفعم، التفاني إلى حد إلغاء الأنا والعبودية الذكية للرجل والاستحواذ عليه بهيمنة عاطفية فيَّاضة.

التحوّل الطارئ لجسمي دفعني إلى تخيل خصائص من نوع نادر في النساء قلّما أجده في المجتمع حولي، إنه بلا شك خلاصة شانتي النفسية والروحية ومكوناتها النادرة.

في ذلك الصيف القائظ كنت أطلّ من شرفة الحجرة إلى السماء الصافية بانتظار كوب العصير الذي طالما أنعشتني به شانتي في الليالي الحارة، بَيدَ أنها أقبلت نحوي مطرقة مضطربة، فسألتها ملهوفاً (شانتي ما الخطب؟)، هاتفٌ من أمها قلب كيانها رأساً على عقب، فابنتها الوحيدة أوشكت أن تموت غرقاً لولا عناية الله ولطفه، بعد هذه الحادثة لم تهدأ شانتي أو تهجع فقد ألم بها رعب وقلق أثر على كفاءتها في الخدمة فتراخت وترهل عزمها عن العمل. فكيانها تمزق هنا وهناك، فاعتذرت مني وهي تودعني بعينين غارقتين في الحزن والأسى، وهنا أدركت أني أفارق روحي،

(كان لابد لك أن تواجه هذا اليوم يا (محسن) وأن تقف على شاهق التحدي لتنتزع نفسك من لحمتها وتكتشف قواك الداخلية دونها، هي المرفأ الذي ألقيت عليه مرساة ضعفك بعد مقاومة شديدة لأمواج الخوف والحيرة وعليك أن تغادره إلى آفاق أبعد).

رحلت شانتي..

ومضت سنوات وذكراها مصلوبة في أعماق قلبي ووجداني، يهفو فؤادي إلى شبيهاتها، أفهمهن جبالاً من الصبر الراسخ وضفافاً للحب الهادئ، وأتعرض إلى النقد والسخرية لفساد ذوقي وسقم مزاجي، فهم لا يعرفون جواهر الصور الظاهرة والتي تتجرد من مقاييس الحسّ والمادة، فأنا أشعر باللّاتي يشبهنها باطناً وعمقاً وإن كن بالغاتٍ في القبح والدمامة، فالذكرى تنتفض والخائلة تتحفز فور أن تعبر الطريق شبيهة شانتي تجسّم تكوينها الشرقي الذي أحببته، هالتها الشفّافة، صوتها الذي استأنست برنينه الدافئ في عمري الغضّ، المرأة التي استوعبت جنوني ونسجت من خيوط الأمل شخصيتي فأقبلت على الحياة بإرادة صلبة وإصرار نادر فتعايشت مع إعاقتي بشجاعة وهزمت المستحيل حتى انتصرت، وها أنا أقف في حفل افتتاح معرضي الخاص في باريس أحدّث الصحافيَّ عن

سرٌّ هذه اللوحة اللّافتة لأنظار الزوّار، وجه شانتي النضاح بالحياة يصارع الوجوه العليلة الملطّخة بالنفاق، والتي تسقمنا مع كل شهقة يأس وضجر.

فهذه قصتي مع (شانتي) يا صديقي، المرأة التي صنعت مني فنّاناً بارعاً بعد أن أشعلت أصابعها شمعاً لتضيء درب حياتي بالأمل والحب..



سيدة الموقف

همسة: لأنَّ السياسيَّ لا يؤمنُ بما يقولُه، لذا يُفَاجَأُ عندما يصدِّقُه النَّاسُ.

وَسمُ المهابة والفخامة استهواني إلى حدِّ الهوس به، فكنت أتابع نشاطاته السياسية بشغف وانبهار، وفور أن أعلن عن ندوته في الجامعة على صفحة الفيس بوك كنت أول الحاضرين في القاعة لأني أعلم أنه سيلقي خطاباً نارياً يدين فيه المثقفين المتخاذلين الذين كرّسوا ثقافة الاستسلام والهزيمة في كتاباتهم عن مأساة غزة الصامدة وشعبها المضطهد.

بدا المشهد مسرحاً احتفالياً لأستاذي (حافظ مجذوب) وهو يستعرض مبادئه التنويرية بحماس مشاعرنا الخابية ويؤجج عواطفنا المنطفئة بفعل الإعلام المزيّف الذي شوّه الحقائق وقلب الموازين.

عيناي لا ترى غيره، وقلبي لا ينبض إلا له، كلماته العملاقة تتدحرج كالصخور فوق رؤوس المستمعين المُطرِقة فتوقظهم، أهيم في مَنطقِه الموزون الذي عجز المتحذلقون عن مقارعته بالحجج والبراهين، الأضواء تنكسف أمام ألق حضوره المبهر، بعد

المحاضرة ناقشته مضطربة وصوتي يغوص في حنجرتي المتشنجة ارتباكاً، ابتسم وهو يسألني:

- عرفتكِ!

أطرقت خجلاً.

قال بشيء من الاستدراك:

- (زهرة الكاميليا؟)

تضرَّج وجهي وأنا أداري إعجابي المفضوح، كنت أكتب باستمرار تعليقاتي على صفحته (الفيس بوك) باسم (زهرة الكاميليا) وتخمينه الصحيح يعني أني تركت داخله أثراً كبيراً، فقد اخترت اسماً يلفت نظره ويدفعه ليفكّر أن صاحبته ذات عقل مفكّر وثقافة متفتّحة، فثمّة قواسم مشتركة جمعيتنا دون تخطيط أو قصد، فإيماننا بحقوق الإنسان ومظلومية الشعب الفلسطيني ومؤازرة المستضعفين في العالم حتى التحرُّر من هيمنة السلطات الجائرة هي قضايانا المركزية التي تستحوذ على اهتمامنا على الدوام.

كما استقطب أستاذي في صفحته الكتّاب والمفكرين من النخب المحصنة في الأبراج العاجية، نجوم مرصّعة في سماء الثقافة، نلمح وهجها من بعيد لكننا لا نستطع الاقتراب من مدارها المحرَّم، فأنا الشابة الوحيدة التي اخترقت هذا الحائط الصخري الذي رصَّت أحجاره أقلامٌ مخضرمة عبّرت عن رؤاها بكلمات شحيحة ومقتضبة.

انفضَّ الجمع وشعرت بخطواته تقترب مني وقلبي يكاد يفرُّ من صدري، ألهث وأكاد أفقد السيطرة على أعصابي، أصبحنا وجهاً لوجه، لأول مرة أكتشف تغضُّن جبينه ولون عينيه وشعره الأشيب، ابتسم فبانت نواجذه الصفراء.

ـ تشبهين (سيمون دي بوفرار).

انكمشت، فقد وخز قلبي هذا الاسم البغيض.

ـ ربما في الشكل الظاهري.

ـ ملامحك فرنسية.

شعرت بشيء من الاطمئنان.

ـ أمي لبنانية وأنا أشبهها في الملامح.

عرض عليّ العمل معه في المكتب كمساعدة باحث إيماناً منه بكفاءات الشباب وطاقاتهم الخلّاقة ورغبة منه في دفع المواهب المبدعة إلى الظهور الإعلامي وتهيئتها لقيادة الشعب مستقبلاً، العرض فاق توقُّعاتي، لم أصدّق أني في ساعات قليلة سأدخل جنة أحلامي وأنهل من نهر النعيم الذي طالما داعب خيالي، سأقترب منه لأحلّق معه في سماء الفكر وأغرف من بحر علمه كنوزاً وجواهرَ، هذا الرجل المعلّق فوق بحور أمنياتي، أمضي إليه كالمسحورة دون تردُّد أو تفكير فهي فرصة ذهبية إن لم أقتنصها الآن ضيّعت عمري كلّه.

علمت صديقاتي في الجامعة أني سألتحق بمكتب الأستاذ

(محفوظ) مساءً فحسدنني واغتظن إلى حدٍّ أن فبركن حولي الأقاويل، فاختياره لي يعني شهادة امتياز ورتبة شرف تضاف إلى سيرتي الذاتية، أنا الوحيدة التي ستقتحم القوقعة الصلبة لتفكَّ ألغازه، فحياته الخاصة أمر غامض يستفزُّ فضول الطلبة ويبعث على التكهّن المضحك في بعض الأحيان.

ودخلت صومعته كالقدّيسة الخاشعة في حضرة عقل مفكر أمشي مُطرِقة في خجل وحذر حتى أخذت مقعدي أمامه، الحجرات الأخرى تنبئ أنها حيّةٌ ترزق، فالنقر على مفاتيح الكمبيوتر والماكنة تلفظ الأوراق المطبوعة، مناخ عمل غارق في الجديّة والانضباط، أرهف السمع لعلّي ألتقط صوتاً آدمياً في هذا المصنع الآلي فما أحسست إلا بأنفاسٍ تتردَّد في صمت، انتظرت أول قطرة من غيثه لكن حصار الأسئلة الشخصية خيَّب توقُّعاتي، النبش في خصوصيتي أزعجني بعض الشيء لأني أحرص على التورية الذكية كي أحمي ذاتي من المتطفلين الذين لا همَّ لهم إلا التسلية بسيرة الناس، ويستبيح شرنقتي المنسوجة بكتماني فأنساق معه كالمسحورة أتحدَّث بطلاقة وأكسر أغلال خجلي معلّلة أنه حقاً مشروعٌ لربِّ العمل كي يستجمع تفاصيل هويتي، بينما ظل يتابعني بعينيه الملهوفتين اللتين انكسر فيهما شعاع الحدة الذي طالما خلب لبّي، حتى إني استنفدت كل ما في جعبتي بانتظار الخطوة التالية بَيدَ أن نظراته لم تبارحني

وكأنما ظلت معلقة على شفتي مستزيدة بشغف مريب، انكمشت مرتبكة وحاولت استرجاع أريحيتي بتكلف الابتسام.

سألني:

ـ خجلانة؟

تلهث أنفاسي:

ـ لا..

ـ لمن تقرئين؟

سؤاله استعادني ثانية.

ـ اقرأ للعقاد، مصطفى أمين، جبران خليل جبران، فهمي هويدي، غابرييل ماركيز، ليوتولستوي، وكثير لم تحضرني أسماؤهم الآن.

نضح وجهه بالإعجاب.

وتابعت لأثير اهتمامه:

ـ أقرأ أيضاً لبعض المفكّرين المسلمين.

اكفهرَّ وجهه:

ـ وهل تعتقدين أنهم قدّموا نظرياتٍ قابلةً للتطبيق على أرض الواقع؟

ـ لأن هناك ما يعيق تطبيقها.

ـ مثل ماذا؟

ـ أغلب مجتمعاتنا تعيش التجربة الغربية المفروضة عليها من قِبَل الأنظمة المتواطئة معها ولن تسمح لنظريات الإسلام أن تأخذ فرصتها في التطبيق بل إنها محاربة إما بالتشويه أو التعتيم.

ـ مشكلتكم ـ شبابَ هذا الزمن ـ أنكم تندفعون وراء صيحات ومزاعم هؤلاء المضللين، تحسبون أنهم ملائكة منزلة من السماء.

أدهشني ردُّه، فسألته:

ـ أستاذي، لقد أعجبني فكرك وآمنت بقيمك النبيلة ومواقفك الإنسانية النادرة لكني لم أستطع أن أحدِّد بالضبط مرجعيّتك الفكرية.

غرق في الضحك حتى ندت عيناه:

ـ ولماذا لا تكون ذاتي مرجعاً؟!، أيُفترض أن تسيّرني أيديولوجيات أو مناهج فكرية معينة حتى أقنع الناس؟! لماذا برمجتم عقولكم على هذه الشاكلة وسُلِبت قدرتكم على التفكير والنقد، فأنا لي اجتهاداتي الخاصة وقناعاتي الذاتية.

وقعت في حيرة من أمري فتشكّكت في مبادئي فهل أنا منقادة لما تعلّمته دون أن أمحّص هذه الأفكار فأتخذ لي نهجاً مناسباً عن إيمان وقناعة كما هو يفعل؟

وسألته كمن أخاطب نفسي:

ـ ولكن يجب أن يكون لكل إنسان معتقد يحرك سلوكه باتجاه هدف وإلا عشنا في فوضى وعبث.

ـ فما هو معتقدك؟

ـ اعتقادي بالله عزّ وجلّ يدفعني إلى أن أتحرك في طريق صاعد نحوه حيث الكمال المنشود فأطبق المنهج السماوي في حياتي على الأرض وفقاً لمعايير هذا الكمال حتى أرقى وأتطور.

ـ مسكينة يا (سوسن) لقد وقعتِ في قبضة التطرُّف الديني الذي دمّر العالم الحضاري بفكره الضالّ وسلوكه الوحشي، من المؤسف أن تنقاد شابةٌ مثقفةٌ مثلك إلى هذه الجماعات التي تقفل على الإنسان منافذ التفكير!

قاطعته:

ـ عفواً أستاذي، يبدو أنك لم تفهمني تماماً، فما قصدته لا علاقة له بجماعة أو تيار إنما هو اعتقادي الحقيقي الذي تربيّت عليه وأنا صغيرة وعزّزته باطّلاعي ودراساتي فزاد يقيني به لأنه يضمن لي حياة العزة والكرامة.

وتجرّأ على اقتحام أسوار حياتي:

ـ وهل من الإنصاف أن تحجبي شعرك الجميل بهذه الخرقة البالية؟!

انتفضت كالمسعورة:

ـ إنك تجهل ماهيّة الحجاب وفلسفته العميقة وتحسبه مجرّد خرقة، وفي اعتقادي أنه حصنٌ حصينٌ للمرأة وساتر من العفاف

يحمي المجتمع من الفساد الأخلاقي.

أجابني متهكّماً:

- الطالبات في قاعة المحاضرة يغطّين شعورهن ويكشفن مفاتنهنّ وهن يرتدين الجينز الضيق وفي ظني أن الجسد يثير أكثر من الشعر، ألا ترين في هذا تناقضاً؟!

- لا أعتقد أنهن محجبات بالمفهوم الحقيقي للحجاب الذي يُشترط فيه الجلباب الواسع الفضفاض والخمار الضارب حتى الجيب كما حدَّدت النظرية، وممارسات بعض النساء والفتيات الخاطئة لا تعني إلا سوء فهم نظرية الحجاب بمعناها الظاهري والباطني وجهلاً وعصياناً من البعض الآخر.

- ممكن أن تفتِن المرأة في عينيها، في صوتها، في مشيتها، هل يعني هذا حجبها وقمعها في البيت؟

- هناك أدبيّات يُفترض أن يلتزم بها الرجل والمرأة في هذا الشأن كغض البصر من الطرفين وعدم الخضوع في القول بالنسبة إلى المرأة التي تخاطب الرجل الأجنبي وعدم الخلوة واجتناب مواطن الشبهات وغيرها من الإجراءات السلوكية التي تلجم ثورة الغرائز.

تراخى صوته واعترت سحنَته حمرةٌ كشفت ميله الخفيَّ، أجفلت مرعوبةً لكنه هوى بمطرقة على التمثال الذي صنعته بأوهامي فحطّمه.

ـ أتدرين أنكِ فاتنة برغم هذا الخمار!

هذا الصنم الذي شمخ بفكره فبهرني سقط من علياء آمالي وتحطَّم وحطَّم إيماني به، النموذج المتميز في هذا الزمن الذي رخصت فيه القيم والمبادئ تحوّل أمامي إلى مسخ مشوّه، فقد خاطبته كقدّيسة وسمعني كفاجر، حدثته كندٍّ له في العقل وأصغى إليّ بغريزة رجل، دافعت عن معتقداتي بإيمان وقناعة بينما حاول أن يشكّكني بها عن خبث ومكر.

سحبت الكرسي بعنف لأنقذ نفسي:

ـ يؤسفني أستاذ أني أرفض عرضك السخيَّ الذي يتمنّاه كل طالب في الجامعة.

ارتبك وحاول احتواء الموقف:

ـ ربما انزعجت من عفويتي كأب يلاطف ابنته، فبحكم قناعاتي، إنها حرية التعبير عن إحساسي دون قصد سيّئ!

ـ يبدو أن قواسمنا المشتركة ما كانت إلا فخاخاً ملغومة لها مآرب خبيثة.

انعقد لسانه وتجمَّد في مكانه لكني خرجت وأنا أصفق الباب خلفي هاربة من براثن شيطان تلبس لباس الملائكة والمصلحين.

رائحة البيتزا

همسة: الأمُّ لا تسأل: هل تريدُ؟ بل تُعطي (مثل إنجليزي)

رائحة البيتزا تذكّرني بآخر عشاء جمعني بأمي، أتلكّأ عندما يقترح الأصدقاء مطعم البيتزا كأفضل خيار.

يلكزني (عبيد):

ـ أراك مهموماً يا (ماجد)؟

ألفظ حمماً جاثمة فوق صدري:

ـ مجرَّد صداع.

الرائحة اخترقتني وسرت في دمي فهيّجت مكامن وجعي، استعصى عليّ حبس دمعي، تذرعت بحيلة:

ـ عن إذنكم، أنا ذاهب إلى المرافق.

ـ أتحبها مع اللحم أم دونه؟

يسألني قبل أن أترك الطاولة.

كابدت دموعي فأسرعت الخُطى حتى بلغت الحمام فانفجرت، نفثتُ زفراتي المحبوسة مع آخر قطرة، غسلت وجهي ثم عدت إلى أصدقائي.

يسألني عبيد ثانية:

- هل أنت بخير؟

انتزعت من جوفي ابتسامة شاحبة:

- بخير.

صرت أجتنب محلّات البيتزا كي لا تتحفّز أوجاعي حينما أشم الرائحة، فالبيتزا هي الألم والمأساة، فقد حفرت في صدري ذكرى تعيسة لا تُنسى.

كانت عشاؤنا المحبّذ وخيارنا المفضّل، حينما أعود إلى البيت أشمُّ الرائحة عند الباب فيتحرّض جوعي، أرصف سيارتي وأثب إلى الداخل كقط مشاغب، روائح عبقة تشمل البيت، يسيل لعابي وأهمس في أذن أمي:

- أريد الطبق الأكبر من البيتزا!

كان التفافنا على المائدة ذا طابع احتفالي خصوصاً إذا كان العشاء بيتزا، أمي هي النجمة الوضّاءة التي تسبغ على المكان ألقاً ونوراً، في ثوبها الملطّخ بالطحين وشعرها الأسود المجدول بعفوية، تحشد في عشاءاتنا كلَّ دوافعها الإيجابية.

إن نكهة البيتزا المعجونة بذرّات أمي ذات لذّة غنية لأنها عجنت بمزاج رائق ونفس طيبة، ربما تحتلُّ البيتزا الصدارة في قائمة المأكولات المفضّلة عندنا على العشاء، فعلى الرغم من

تكرارها إلا أن أمي ماهرة في تنويع مذاقاتها وتجديد نكهاتها، بعد موتها زهدت الطعام وفقدت شهيّتي، فالحزن جفف منابع الحيوية والانطلاق داخلي.

حينما جهّزت أمي المائدة في عشائنا الأخير صعدت إلى حجرتها لتستبدل ثيابها، بينما جاء أخوتي وجلسنا على المائدة بانتظارها، كنا نحبُّ أن تقطع البيتزا بيديها السخيّتين لنتبرك بهما، فهكذا اعتدنا ولسنوات مديدة، وطال انتظارنا فصرت أضرب الطاولة بالملعقة والسكين مشاغباً، ثم أنادي بأعلى صوتي: (ماما.. البيتزا بردت.. ماما البيتزا التُهمت)، ظنت أختي (رباب) أنها ربما دخلت الحمام بَيدَ أن غيابها أثار قلقنا فوثبت رباب إليها والذعر المكتوم يلمع في عينيها ولبثنا في مقاعدنا صامتين يراوحنا الأمل في عودتها بين حين وآخر، لكن الصرخة الصادحة من حجرتها فسّرت الغياب وعبّرت عن الحدس المتواري في طيات اللاشعور.

حملتها وأخوتي من الأرض وأرقدناها على السرير جثّة مسلوبة الحياة ووجه ملائكي يودعنا بابتسامة منطفئة.

اسودت الدنيا في عيني وادلهمت الحياة، فما عدت بعد هذه الحادثة أعرف الضحك أو الفرح، ففراقها أقفل منافذ الفرح في روحي، الطبيب الشرعي فسّر المأساة بكلمتين قاتلتين (سكتة قلبية).

انفجرت دموعي وأنا أبصر المائدة الخالية دونها ومجلسها

المعتم بالغياب والضوء المنطفئ في ليل الغربة، لو أنها هيَّأت أسباب رحيلها لو أنها مهدت لنا طريق الصدمة.. لو أنها فارقتنا لأيام حتى نهضم غيابها على مراحل، لو، لو..

أيها الحزن المستبدُّ ما أقسى مخالبك وهي تنقض على قلبي كالصقر فتنهشه.

ما زال طيفها يستدرجني إلى تفاصيل المساء الكارثي حيث انقلب العشاء إلى مأتم، فقبل أشهر كانت تجمعنا أوقاتٌ سعيدة، أيامٌ تزغرد فرحاً حتى باغتني القدر فخطفها مني غدراً، وفي غيابها فقدت معنى الحياة ونكهة الأشياء، فلم يعد الطعام إلا علقماً في فمي.

حينما عدت إلى البيت مساءً احتواني دفء المكان والمجلس المريح، وجدتها تدندن بموشح قديم يدفع طبقات صوتها الرقيق إلى استنزاف انفعالها المكبوت دون توقف، الصوت الأمومي الصافي يرتدّ من جدران البيت والأسقف بصدى ظل يجول داخلي كالنفس، تصفُّ الأطباق على الطاولة وتثرثر مع الخادمة في المطبخ ثم تعود إلى الصالة بمشية عصبية مكهربة، إنها لغمٌ من العاطفة لو انفجر لغطّى أرجاء الأرض دفئاً وحناناً.

قرص البيتزا يثير شهيّتي، مددت يدي لأتناول قطعة ريثما يجتمع أخوتي، ربتت أمي على ظهر يدي ملاطفةً: (تمهّل أيها الدبُّ وإلا حرمتك من العشاء)، نعم كنت بديناً أحب طعام أمي الدسم

ومذاقات أكلها الشهية فهي تسلب مقاومتي لكنها حرصت على آداب المائدة وشرّعتها كأدبيات في حياتنا، فهي فلا تسمح لأي منّا أن يسبق الآخر في الأكل، بل ينتظر حتى يكتمل النصاب.

ظلت أطباق البيتزا على الطاولة وكأنها وجوهٌ باكية تنعى أمي، والخادمة تنكفئ في المطبخ مذهولة، بعد أن نقلت سيارة الإسعاف جثة أمي إلى المشفى، دخلتُ حجرتها فوجدت ثوب المطبخ ملقى على سريرها لثمته باكياً، شممته مقروحاً فسرى في حنايا قلبي أريج حنانها وعبق طهرها.

بعد غياب أمي اختفت رائحة البيتزا وكل الروائح المنعشة التي تبعث في نفسي شيئاً من الطمأنة والراحة، فمائدة العشاء احتوتنا في لُحمة حب نادرة غزلت نسيجها أماً رائعة، الألفة المغمّسة بحنانها تأخذنا إلى ضفة الأمن الأبدي فما انخدشت يوماً روابطنا أو انحلّت لأي خلافٍ وشائجُنا، العشاء المتبّل بالحب النقي وثّق أواصرنا وذوب نوازع الشر والضغينة في آنية أم بحجم الكون.

جمعتنا البيتزا لا من حيث طعومها الشهية أو نكهاتها اللذيذة، بل لكونها القاسم المشترك بيننا كأخوة، الوجبة المفضّلة عند الجميع، فكنّا كقرص البيتزا وحدة متلاحمة، متراصة، حينما ننقسم على بعضنا فالناتج واحد، اتحادنا، وحدتنا، عصبة قوية نحن الأخوة الأربعة، نلتهم البيتزا في لهفة وعيوننا تختلس النظر إلى القطعة الأخيرة في الطبق، علّمتنا أمي أن القطعة هذه تترجم

أعماقنا الداخلية، تعبر عن نوازع الخير والشرّ فينا، تحسم أمي الموقف فتقطع هذه القطعة إلى أجزاء صغيرة وهي تمازحنا (لقمة هنيّة تكفي ميّة)، فقد بيتنا النية على التضحية، وعللت أمي أن من روض نفسه على التضحيات الصغرى سيهون عليه الأمر في التضحيات العظمى، كل هذه القيم مزروعة كالورد في شراييني.

قال لي عبيد مشيراً إلى الطبق:

- ما بك ساهماً؟ تناول البيتزا قبل أن تبرد.

ومن عادتي أن أتناولها كالمهاجم فيضحك أخوتي، أستخدم أصابعي وكل حواسي النهمة، فالشوكة والسكين ترغمانني على التكلّف الفجّ والذي يبتر لهفتي من قبل أن تولد.

يسألني عبيد:

- يبدو أن طعمها لا يعجبك.

- لا، وإنما أشعر بتوعُّك أفقدني الشهية.

وعلّق آخر:

- بل حمية قاسية هذه الأيام، فقد خسرت وزنك بشكل سريع!

كنت مضطراً إلى مجاملة أصدقائي وإظهار البشاشة بالرغم من احتراق دخيلتي وتعكُّر مزاجي، بعد ذلك خرجنا إلى شاطئ البحر لنلعب الكرة فتبدّد غمّي وتسرّب في اللعب حزني وشعرت أن الفضاء الواسع قد ابتلع غصصي وخفف عني وطء الذكريات.

عدت إلى البيت مساءً مهيض الجناح، مكدوداً لأني لن أجد أمي بانتظاري، ركنت سيارتي في المرآب ودخلت الدار، لفحتني نسمات بيتزا أمي!، فلأول مرة بعد وفاتها تسري هذه الرائحة في بيتنا، رائحة مميزة تأخذني إلى أمي حتى وإن كانت غائبة، تساءلت مدهوشاً:

- من الطاهية التي أتقنت خَبزَ البيتزا؟

وجاءني الجواب فور أن فتحت باب الصالة كانت رباب تأخذ صينية البتيزا إلى الطاولة وتصف الأطباق على نسق أمي، تمشي مشيتها المتوتّرة، بقامتها المكتنزة، بشعرها الطويل المفسر لهيئة أمي ولكن بشكل أصبى لقد انبعثت أمي شابة حتى لفتاتها المندهشة وكأن أمي انبعثت من جديد شابة. وقبل أن أهمَ بالكلام، بادرتني رباب:

فلننزع ثوب الحزن لنعيش، حلمت بأمي ليلة أمس فوجدتها في ضيق وكدر، وقالت لي: (البيت مظلم يا رباب) فأدركت أن انغمارنا في الحزن آلمها بشدّة، فقررت أن أجدّد الحياة ثانية.

أفترّ ثغري عن بسمة صافية بدّدت عن قلبي غمامة راكدة شهوراً طويلة.

وتابعت وهي في غمرة انشغالها:

- (الحيُّ أبقى من الميت يا ماجد)

ظنها نزوة

همسة: النَدمُ أقسى مِن ضَرَباتِ السَوطِ. (مثل يوناني)

متعة البذار أنسته حصاد الأيام، فعاث يغرف من بحر المتعة الحرام ما لذّ وطاب، فلم يعرف حقيقة الأقنعة الجميلة التي تنصاع له طواعية لتنهم من جيبه، قلوب خداعة تلبي ظمأه بأشهى رحيق حتى زهد اللذةً، عرف نوعية من النسوة مستعدّة لحالاته الطارئة، لم يحدّد بعدُ هويتهن، اللهم إلا القراءة السطحية لعناوينهن، فهذه الشقراء، وتلك السمراء، والخضراء، الألوان القابلة للتزييف، يستنفرن لزياراته الاقتحامية كجواري الملوك، فهن يدركن بشكل أوّلي أنهن دمى من الطين ولهذا انتزعن قلوبهن وألقينها في اليمّ.

آنية زجاجية مستعدّة للامتلاء بأيّ شيء، مُرّاً كان أو شهداً..

إلّا (رحاب)

يوم التقاها على ضفة الشوق وجد فيها تمنُّعاً مشروطاً وميلاً مدهشاً احتوى عبثه وقوّض جنونه، يذهب إليها كالمغنط في مدى

مغناطيسي شديد الجذب، وفي غيظ مسبوق بنية خبيثة يحدث نفسه (ليتني ما عرفتها)

لقد حطّ على كل زهور البستان كفراشة ربيعية مختالة، وتمتع بالتحليق مغروراً حتى انزلق في الفخّ، ثمة شيء يتبدّل داخله فلفظهن تباعاً عن وعي، كانت كالمصل يسري في عروقه يرفض كل الأجسام الغريبة الملوثة لكيانه.

يعلّل ضعفه:

ـ مضطر إلى زيارتك!

ويتمنّى أن يفكّ أغلال الاضطرار القهري وهو يدفعه إلى امرأة حضرت من أرشيف الزمن العتيق بأصالة عاطفية راسخة، غمامة حب تهطل بلا انقطاع فيغرق في بحرٍ من الدفء، حينما يخرج من بيتها يحدّث نفسه ملهوفاً بموعد العودة ثانية وبأقصى سرعة!

كانت فائقة الكرم، سخيّة في بذل آخر قطرة من ذوب روحها النديّة، تجود عليه بأوعية التحمُّل والصبر فتمتصّ عذاباته، معاناته، غضباته، أوعية مخبأة في قلبها الذي احتوى نزق شبابه بصبر وجلد، وحاول انتشال نفسه من شباكها المسولة لكنه استسلم فمعولها كالسحر (مفعولها كالسحر).

يخطّط في كل مرة أن يلغيها من حياته ويجتثّ جذورها من قلبه ويحدد المسوّغات المنطقية التي تحرّضه على قرار الانفصال،

فهي تكبره سناً، مطلقة، سمينة، قصيرة، ولا ينبغي أن يتلف ربيعه مع مخلوقة جدباء قاحلة!

لكن قلبه ينقض قراره العاقل، فيعلّل (إنها تشبع فيك أحاسيسَ منفرطة مع كل امرأة، وتوحد عواطفك المنفعلة في نقطة مركزية ثابتة، هل تستطيع أن تستيقظ من حالة الاستلاب القهري؟ فأنت الآن منوّمٌ مغناطيسياً، محاصر بمدارها المكهرب، مخدَّر بوهجها الدافئ المسكن لجموحك الأرعن).

عاد إليها بعد أن تخرج من الجامعة مشحوناً فوجد شرائط الزينة وكعكة من الفواكه بانتظاره، والأهمّ ذاتها المبسوطة رهن مزاجه.

ضمّته كفعل روتيني:

ـ مبروك.

أرخى ذراعيه ممتعضاً.

بُهتت:

ـ ما بك؟ لِمَ رفضت معانقتي؟

وطفق يذرع الحجرة غاضباً وينفسّ غلّه المكبوت طوال سنين العلاقة:

ـ لأننا يجب أن ننهي هذه الحماقة!

استوقد في قلبها المطعون ناراً:

- حماقة؟! أوَ تعتبر حبنا حماقة؟ فأنا زوجتك في الحلال ولست عشيقة طارئة على حياتك.

وصوبها برصاصة مزّقت فؤادها:

- زيجة غير معترف بها.

دوّى صوتها المذبوح فارتجَّ المكان:

- وماذا تنتظر؟ يمكنك إعلان زواجنا.

- هل جننتِ؟ هل فكّرتِ بالمعايير الاجتماعية وكلام الناس؟!!

ارتجفت كالطير المذبوح:

- ولِمَ اتخذت هذا القرار الآن؟

بعد تردُّد واضطراب اعترف:

- لأني سأتزوج، فقد خطبت لي أمي فتاةً مناسبة وأعتقد أن وجودك في حياتي لم يعد له مسوّغ.

انهارت باكية:

- بعد خمس سنوات تأتيني بقرار جارح كذبح السكين، كطعن الخنجر؟! لن أقف في طريق حياتك، اذهب وتزوج وأنجب الأولاد لكن اتركني أَعِش في ظلك لأني أحبك بشدة فالحياة دونك مقبرة.

ارتبك ولم يعرف كيف يفك حصارها، فقال متلعثماً:

ـ لا أستطيع.. وأرجوكِ أن تسامحيني فإن وضعي الاجتماعي حَرِج جداً.

وجرت الكلمات على لسانها مريرة، قائلة:

ـ لقد أحببتك وتفانيت في حبك، أهكذا أُرمى على الرصيف منسيّة مهجورة؟!

أخرج من جيبه مغلّفاً وضعه على المنضدة:

ـ هذا مبلغ جيد سيعينك في تصريف شؤونك بعد رحيلي.

انتفضت ثائرة:

ـ هل كنت نزوة؟ لعبة؟ متعة استهلكها الملل والروتين فبحثت عن الجديد؟ لقد أحببتك ملء روحي ولم أجد في علاقتنا ما يغضب الله أو يخدش الضمير، لكنك ـ للأسف ـ اتخذتني تسليةً لأيام عبثك واستهتارك، فإن مثلك لا يعرف للكرامة قيمة ويحسب أن كل شيء يقاس بالمادة.

ثم أخذت المغلّف ورمته في وجهه:

ـ خذه، لا أريده، لأنه يذكّرني بعار علاقتنا وأنها لم تكن إلا نزوة، بالأمس أذقتني حلاوة الشهد وطعوم الحب فحسبت أن حبنا ثابت، راسخ، لا انفصام للُحمته، تأتيني اليوم جلّاداً قاسياً يجلدني بقرار القطيعة المرّ.

أطرق وهو يمسح طرفه، ثم استلَّ في النهاية السيف من غمده لينحر حبّه للأبد:

- آسف لِمَا أُرغمت عليه، أنتِ طالق، طالق، طالق.

وشدّ نفساً مريراً وهو يودّعها:

- أتمنى لكِ السعادة.

صفق الباب وفرّ هارباً دون أن يلتفت وراءه.. فربما طاردته بعينيها اللائمتين، وظن أنها الخاتمة لسنين اللهو والعربدة تنطوي كطيّ السجلّ دون أن يدفع أثمانها الباهظة واستحقاقات امرأة مطعونة في إنسانيتها، أقبل عليها في أول التجربة نافشاً ريشه كالديك المغرور، وينسحب الآن محرجاً أمام غول حبها الذي احتواه حتى الذوبان.

هذا النمط الخارق من النساء لم يعرف عنه إلا الجلد الناعم، أما الكهوف الغائرة فهو يجهلها، حيث تختبئ لصوص متمرّسة تنتظر الإشارة لتنتقم منه شر انتقام.. لكنها أحجمت حباً فيه ووفاءً لسنين العشرة.

أطرقت تفكر منهارة وداخلها حممٌ من الذل والمهانة:

- أنا انتهيت، فما معنى حياتي دون (سليم)؟ وهل أحسب سنين البعاد من سنينِ العمر؟

وذابت رحاب كحبة ملح في بحار الدنيا المجهولة لعل المصادفة تلفظها على شاطئ آمن.. تركت الشقة ونفضت ذكرياتها وألقت نفسها الممزقة في مركب الأيام.

وانتشى سليم في سكرة العرس حتى التخمة ونسي أن بعد السكرة تأتي الفكرة فعروسه جميلة، زهرة نديّة تتضوع حرارة وصبا.

وتناسى رحاب وتشاغل عن ماضيه وظن أنها ستطارده كشبح بائس، بَيدَ أنه فوجئ بغيابها ينحت داخله خرائبَ مهجورة تحط عليها أعشاش طيور متعطشة، وصفير الريح الباردة يعوي في دهاليزها الموحشة.

استفقدها ذات يوم فأخبره البواب أنها تركت الشقة منذ زمن وسلّمته المظروف أمانة، فتحه مدهوشاً فكان المبلغ الذي رفضته في اللقاء الأخير، وقصاصة كتبت عليها:

(إني راحلة.. وسأختفي من حياتك للأبد، فأرجوك خذ أموالك لا أريدها بعد أن ضاع مني ما هو أغلى من المال وأثمن من الحياة).

طوى القصاصة بقبضة وجعٍ وفرّ إلى الخلوات الموحشة يناديها هائماً باكياً، فقد عبّرت أيام عشرته لزوجه عن أنه تعيس

جداً بأنانيتها وعجرفتها، تنقضُّ عليه كالطير الجارح إن تهاون في تلبيتها، افتقد حميمية (رحاب) وحرارة مشاعرها ولمساتها الحانية، كانت جمرة حب لا تنطفئ أبداً، تذكر حينما يقتربان أمام موقد الحطب في ليالي الشتاء الباردة وألسنة النار تتراقص على أنشودة حبهما، والمطر يتساقط على شباكهما المطل على المدينة الغافية، كانت تجهز له الشاي المعطر بالنعناع وصوتها المبهر بالأمومة يمتص آلامه، تذكر عينيها الناعستين كأنهما واحتين من نعيم تحتويان المنهك والمحروم.

بحث عنها في ثنايا الدروب، في الشوارع المكتظّة، في القفار الموحشة، في المدن الصاخبة، في الشواطئ المهجورة، والضفاف المنسيّة، وليس لها أثراً.

وتسلب الأيام طاقته وتستنفذ صبره خصوصاً عندما تنكفئ زوجه على ذاتها بخصوصية شاذة، فقد ترعرعت في بيت بارد تصاحب الآلة (الكمبيوتر) عوضاً عن البشر، ويكثر بينهما النق ويفتك بهما الشجار، ورغبتها الطاغية في أن تحقّق مطامحها الخاصة وإلغاء إرادته كزوج، فينتفض مارد حبه لرحاب بقوة، بعنف، يحتاجها الآن بشدّة كحاجة الظامئ إلى رواء، حاجة الطفل إلى حضن أمه.

حتى صادفها ذات صباح تتبضّع في إحدى حوانيت المدينة، أقبل عليها برغبة مجنونة:

ـ رحاب.. أين أنتِ؟

صعقته بردِّها البارد:

ـ إذا سمحت.. أنا امرأة متزوجة، فأرجو أن تنسى الماضي.

انتفض وتلفّت حوله بارتباك:

ـ كيف حدث ذلك؟ فأنا مازلت أحبك.

اعترضت:

ـ الماضي انتهى.. فاقطع رجاءك فيّ.

ومشت في أنفة غير مبالية بانهياره، وظل يتبعها ويلقي على مسامعها آماله السراب:

ـ يمكن أن نصلح ما فسد بيننا، أعدك بذلك.

رمقته بنظرة ساخرة:

ـ إصلاح ماذا؟! قلبي الذي حطمته؟ روحي التي مزّقتها؟ حبي الذي ركلته بقدميك؟ أنت رجل مخادع، كاذب، لا تحترم العهود ولا تصون الكرامات، فلم أعد أثق بك إطلاقاً، الحمد لله أن رزقني برجل احتوى ضياعي في النهاية، وهو يستحقُّ مني كل الاحترام والإخلاص.

استجداها باكياً:

ـ لكنكِ تحبينني

تنهّدت وهي تمضي:

ـ كان وهماً بدّدته حقيقتك البشعة.

وبإصرار الجازع يحاول:

ـ سأعود كما كنت.. أعدك بذلك.

لوّحت بذراعها معترضة:

ـ كفى.. ابعد عن طريقي.

وذابت رحاب كحبة ملح في بحار الدنيا المجهولة، وتوارت كالشمس بين الغمام. فادلهمّت حياته، وأدرك في لحظة ندم أنها لم تكن نزوة، بل هي الحب الكبير الذي اغتالته رغبة أنانية.



قضية شرف

همسة: حتّى لو كانَ جيبُك فَارغاً، احرص عَلى أن تبقى قُبَعتُكَ مُنتَصِبةَ. (مثل أسباني)

بعد ساعات سيلتُّف حبل المشنقة حول عنقي، أجلس القرفصاء في الزنزانة المعتمة وأطلق لفكري العَنان مستحضراً تفاصيل الحادثة، فلست مجرماً لأُعدم، ما فعلته كان بوازع من غيرة وحمية على فتاة مغلوبة على أمرها.. فأنا غريبٌ عن هذا البلد ولغتي تعجز عن إيضاح الحقيقة.. كما أني فقير لا أملك المال لأحامي عن نفسي.. كل شيء حولي معقّد وشائك.. ولا أملك إلا منطق الحق وضميراً قرر أن يبقى صاحياً مادمت حياً.. أبكي وأنا أختنق في هذا القبر المقفر وحيداً تتناهبني وساوس الإعدام والخوف من المجهول، حاولت أن أعبر عن ظلامتي لكن لساني خذلني، حتى المترجم الذي جاؤوا به لينقذني قلب الحقيقة وشوّه الصورة إذ لم يفهم مرمى الحادثة ودوافع القتل وحيثيات القضية.

الله يدرك ما في أعماقي، وهو وحده من سينقذني من حكم الإعدام كما أنقذت شرف فتاة من الدمار المؤبد، فليس كل من قتل

كان سفّاكاً للدماء، فما فعلته كان بإرادة عاقلة وعقل واعٍ، فالمعركة الشرسة التي نشبت بيني وبين المقتول في الخربة المهجورة كانت محاولة للدفاع عن نفسي بعد أن تلبسه الشيطان فجرد قلبه من كل رحمة وشفقه، فقد ظل يثاورني ليتخلّص مني خشية افتضاحه لأني عرفته تماماً وحفظت ملامحه بشكل دقيق، وحينما هممت لأقف على قدمي كي أهرب تشبث بساقي وهو مطروحٌ على الأرض، ثم نهض بقامته المديدة ليعاود مهاجمتي، اضطررت إلى دفعه بقوة فسقط على حافة الصخرة المرميّة قرب محوّل الكهرباء، نزف رأسه وفارق الحياة.. ومن فوري ذهبت لمركز الشرطة لأسلّم نفسي وأشير إلى مكان الجثة.

إجراءات التحقيق السريعة والتي تفتقد إلى التحري الدقيق أدانتني رغم أني بريء الذمّة نقيّ السريرة أقول وأفعل الحق كعقيدة وإيمان.

وما كنت إلا عابر سبيل خرجت في ذلك المساء لأشتري الخبز لمخدومي الكهل الذي استخدمني لسنوات، وفي طريقي سمعت صراخ الفتاة في الخربة النائية وحسيساً مريباً أثار فضولي.. أسرعت الخطى مذعوراً فوجدتها تقاوم الذئب بضراوة، غلى الدم في عروقي وانتفضت حميتي فهاجمته كالنمر المسعور وخلّصت الفتاة من قبضته وأنا أدفعها بعيداً (اذهبي إلى بيتك بسرعة)،

لكنه تشبث بي كالمسعور وأراد أن يقتلني حتى لا أبلغ الشرطة، فهو أحد الموظفين في السوق المركزي، قررت في تلك اللحظة أن أنفذ بجلدي وأعود أدراجي فلا رغبة لي في المشاجرة إطلاقاً لأني رجل مسالم جداً، جئت إلى هذا البلد الطيب لأتكسّب وأبعث أجر عملي إلى أولادي في وطني (الهند).

مخدومي الذي خدمته طوال هذه السنين بجدٍّ وإخلاص تخلى عني وأسقط إقامتي ولم يؤمن ببراءتي أبداً ولم يحاول حتى مساعدتي، فقد ظن كغيره أني قتلت الرجل من أجل فتاة عشقناها معاً فتخلصت من غريمي لتبقى لي وحدي، تحفّظت على بعض الحقائق خشية أن تتعرض الفتاة إلى الفضيحة إن تلوث اسمها في قضية شرف.. فهي جارتي تسكن ذات الحي، صبية في المدرسة الثانوية تماثل ابنتي (سارة) في السن، شعرت وأنا أدافع عنها كأني أذود عن (سارة) وأعرف أية كارثة ستحلُّ في هذا البيت المنكوب لو افتضحت الفتاة، وأي سكين سينحر شرفها حتى العار المؤبد، وثبتُّ أنقذها حتى لو أرقتُ دمي رخيصاً، فالقضية إنسانية محضة.. والاستحقاق العادل ستمنحه السماء لي في يوم ما، لكني بكيت حرمان أولادي الذين سيذلّهم اليتم من بعدي، إذ يبقون بلا معيل وكفيل، فالراتب الذي أبعثه لهم كل شهر سينقطع بعد إعدامي وستفتك بهم فاجعة فقدي وترديهم موارد الفقر والجوع.

(يا ربِّ، أنت وحدك من تعلم أنني بريء وإليك أحتكم.. فأنا رجل فقير، غريب، وحيد، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك، أرجو النجاة منك لا من عبدك.)

أشعر بالبرد والخوف كلما اقترب موعد إعدامي، أزهد الطعام والماء الذي يأتونني به كل يوم، فقد بلغ بي اليأس ذروته، فما معنى أن أحيا ساعات ضائعة أتعذّب مرعوباً بينما الموت ماثل أمامي كمارد مفترس يكشّر عن أنيابه في كل حين ويتجسد في مناماتي على هيئة وحوش ضارية تهاجمني وتنهش لحمي؟

الإهانات التي تعريني كل يوم كفيلة بأن تدفعني دفعاً إلى الهروب من الحياة والالتقاء بالموت حتى لو كان أمراً مفجعاً، فالركل والضرب والبصق على وجهي يترك داخلي جرحاً مزمناً وزهداً في حياة تقتل إنسانيتي وتسحق كل اعتباري، الجوع، العطش، الخوف، غرائز متوحشة تضطهدني وتنخرني إلى حدٍّ أن أتهيأ للموت وأستعد له حتى الشهادة، وأتساءل كيف سأنسلخ عن جلدي وجسدي، وكيف ستزهق روحي، وهل سأحتمل الحبل الغليظ على عنقي النحيل؟ أزدرد الغصّة مرتعداً والمغص يشتد عليّ كل حين فأذهب إلى المرافق لألفظ كل ما في جوفي من فضلات وأتقيأ رعافاً مراً أحسب أنه عصارة ذعري المتراكم، حتى أني فقدت مشيتي المتوازنة فكنت أستند إلى الحائط كالضرير، فساقاي ترتعشان بشدة لا تقويان على حمل معاناتي.

وحانت ساعة الإعدام..

وسيسألني جلّادي ماذا تتمنى وتشتهي قبل أن تحطَّ يد القدر سيفها لتقطع عنقي.. لم أفكّر بشيء لأني فقدت عقلي وفقدت معه كل شيء.. حتى الرغبة في الحياة، يفتح باب الزنزانة ويأتيني صوتٌ مدوٍّ بحجم خوفي وبكثافة رعبي المحفور في عظمي.

- (راجو)

أبلع ريقي لاهثاً.. وصوتي المخنوق يغوص إلى جوفي.

يصرخ آمراً:

- راجو... ألم تسمعني؟!

أخرج من باطني المتقوقع داخل صدفة تحميني من مقصلة الإعدام المتربّصة.

- هيّا معي إلى مكتب الضابط.

لم أجد داخلي قدرة على النطق.. الخرس يغلفني بالجَلَد ويكبّل عقلي عن استنتاج أشياء مزعجة، مشينا خلف جنازة الصمت حتى حجرة الضابط.

دخلت وأنا مطرق بانتظار حكم العدالة على رجل مستضعف بائس، ابتسامة الضابط وهو يشير إلى (أبو أحمد) جاري الذي أنقذت ابنته:

- أبو أحمد جاء ليشكرك.

عانقني وقبّلني قائلاً:

- لقد اعترفت ابنتي أنك أنقذتها من هذا الوحش وأنا مدين لك بكرامتي يا راجو.. وسيطلق الضابط سراحك بعد أن شرحت له ملابسات القضية.

شهقت شهقة كادت أن تلفظ روحي، تصبب عرقي فشعرت أن الأرض تميد بي والسقف سينهار فوقي، الإغماءة اللعينة تباغتني في المواقف الحرجة.

الضابط:

- ما بك مضطرباً؟

أجلسوني وقدّموا لي العصير بعد أن استنزفت كل عصاراتي خوفاً وترقباً.

تمّ الإفراج عني، وبعد أيام قدّم لي والد الفتاة ثروة خيالية تقدر بـ (١٠٠٠٠ دينار) عرفاناً وتقديراً لشهامتي النادرة، وهذا هو وعد السماء الذي انتظرته من ربِّ العباد، والجزاء العادل الذي لا يقبل الشكَّ أو التضليل.

حجزت أول طائرة تأخذني إلى الهند.. فالمبلغ الذي معي كفيل بأن يعيشني وأولادي أعزة مدى الحياة، شكرت الله عزّ وجلّ أن منحني من فيضه هذه النعم، بعد أن أخرجني من السجن بريئاً وأعادني إلى أولادي غانماً سالماً.

الوردة الصفرية

همسة: الغيرةُ في الحبِّ كالماءِ للوردِ، قليلُه ينعشُ وكثيرهُ يقتلُ (سوفاج)

ذلك الحبيب الذي كان منزلنا بوجوده مهبطاً للملائكة، كان من قمة رأسه إلى أخمص قدميه بريئاً من العيوب كالملائكة، ولكن نجمي المنحوس الطالع، أسرع بإخراجه من حوزة يدي، فماذا أفعل؟ وقد كان السعد في طالع هذا القمر؟

هكذا ينعي حافظ الشيرازي زوجه في غزلياته الشهيرة.

ومثله أندب حظّي التعس، فقد خرجت جوهرتي النفيسة من حوزة يدي بعد أن أقدمتُ على فعل كلّفني درّتي الفريدة، نوارة عمري، قنديل ليلي، وكأنما النحس ماردٌ سلط سيفه على حياتي فقلع شريان سعادتي.

(ريحانة) يترقرق الندى في طلّتها كل صباح فأرتشف من ضوعها رحيق البهجة، حينما تلامس شفتيها الكلماتُ يتدفّق من لسانها الشهد المصفّى، ترقد في عينيها المختالتين بركتان من الحنان تتلبّدان إذا عطشتُ وتسكنان إذا ارتويت، ملفوفة القد، طرية، أزهرية، ملكتني، احتوتني، فما عدت أجد لها شبيهة، وهبتني

ما لا يحدَّد بكنهٍ أو يؤطَّر بماهية، تيار إحساس يسري في عروقي كالكهرباء فيضيئني قنديلاً، كنت غنياً مشبعاً، محصناً كقلعة صامدة، عشر سنوات ورحيق جنّتها يغذّيني حتى استويت راسخاً كشجرة الزيتون، حبها يتغلغل إلى منابتي فيتضوّع عطره في أيامي.

فجأة هبّت ريح سوداء وعصفت بأغصاني فتناثرت ثمار عمري وتزلزلت الأرض تحت أقدامي فارتجت جذوري، وتهدمت جنة أحلامي، وذلك عندما جاءني صاحبي (أبو حسين) ليحدثني عن أرملة أحد الأصدقاء قد ألمّت بها ضائقة مالية وهي أمّ لأربع بنات مسهنّ الضرُّ والفاقة، وما قصدني صاحبي إلا لأني تاجر ثري يؤمني المحتاجون والمساكين، فوعدته أني سأقدّم لها معونة شهرية طلباً للأجر والثواب وتعبيراً عن شكري للنعمة التي غمرني الله بها، فمساعدة الأرامل والأيتام من أعظم الأعمال منزلةً عند الله عزّ وجلّ، وفي إحدى المرات اتصلت هذه المرأة تطلب لقائي وانتظرتها وأنا أنوي تقديم كل العون لها، فإن طلبت مزيداً من المال فلن أتردَّد.

جاءتني متّشحة بالسواد، يقطر البؤس من كلماتها الناضبة.. اشتكت من تحرّشات الرجال ببناتها وتأزّم بعض المعاملات في الدوائر الحكومية فاستعانت بجارها الخبيث الذي كان يتربّص لينقضّ عليها، ثم بكت فتغضّن محيّاها وهي تتابع،

وسيارتي الحطام لم يبق فيها باقية فاضطررت استئجار أخرى قديمة كلفتني الشيء الكثير.

استفزّت هذه المواقف غيرتي واستثارت غضبي وكدت أن أذهب إلى جارها لألقّنه درساً لن ينساه، أهكذا ينهش الذئاب عرض امرأة مغلوبة على أمرها؟ قلت لها مواسياً:

- أنا حاضر في خدمتك سيدتي.

خرجت وتركت داخلي إحساساً بالتقصير، فكيف تُترك امرأة مهيضة الجناح نهباً للذئاب المفترسة؟ ينبغي أن أتصرف طالما قصدتني دوناً عن الناس، إذ لم يلقها الله في دربي عبثاً بل ليمتحنني ويختبر إيماني.

حدّثت صاحبي أبا حسين في هذا الأمر ففاجأني ردُّه الساذج:

- تزوجها، فأنت رجل مقتدر، ميسور الحال، قادر على إعانة قافلة من النساء.

انتفضت واقشعرّ بدني لهذا الخاطر:

- أتزوجها على ريحانة؟!!

يستدرجني أبو حسين في الحديث:

- يا (عز) اعقد عليها عقداً شرعياً في السر دون علم زوجتك.

مازلت مستنكراً عرضه:

ـ أعوذ بالله.

وصاحبي يقرأ انفعالاتي فقال مجدَّداً:

ـ إنك تؤدي واجباً إنسانياً تثاب عليه لأنك تستر على امرأة وبناتها وتحفظهن من ألسنة السوء وثعالب البشر، فهكذا دَيدَن الأنبياء والصالحين مع الأرامل والأيتام والمستضعفات من النساء.

ومضى يضرب على وتر عاطفتي الدينية ليضعني في مواجهة مع ضميري، فسألته كمن يتّهمه:

ـ ولماذا لا تتزوجها أنت؟

ـ لو كان عندي إمكانياتك لأقدمت على هذه الخطوة.

وحاصرته:

ـ سأساعدك.

أطرق، ثم باغتني باعترافه:

ـ أنا مرتبط بزوجة ثانية في السرّ.

اندهشت:

ـ لم تخبرني من قبل.

ـ ها أنا أخبرك وليبقَ سراً بيننا.

وبعد ليالٍ مضنية لبثت أصارع فيها قراري هذا وأدفعه بشتّى المسوّغات، غلبني في النهاية الضمير والواجب فقرّرت أن أتزوج

الأرملة، عرضت عليها الزواج شريطة الكتمان والسرّية، وأن تقبل الساعات المحدودة التي أقضيها معها خلال الأسبوع، وصارحتها أنني أقدمت على هذه الزيجة بدافع حمايتها ورعاية بناتها، وتقبّلت كل شروطي ممتنّة خاضعة، وفي جو من الحيطة والحذر كتبنا كتابنا عند المأذون وبحضور شاهدين، الأول (أبو حسين) والثاني رئيس قسم الحسابات في الشركة، الحاج (أكرم) مستودع أسراري والذي اقترح عليّ عدم التورُّط في هذه الزيجة لكنني كنت مندفعاً بوازع خوفي من الله عزّ وجلّ وحرصي على أداء واجب إنساني.

وفور أن كتبنا العقد اغتمَّ قلبي وشابني إحساسٌ بالندم وشعرت أني قد اندفعت في هذه الزيجة العبء التي أقحمتها في حياتي المستقرّة، وكان عليّ أن أبذل جهداً كي أغطي هذه العلاقة التي لو انكشفت فإن ريحانة ستقلب الدنيا ولا تقعدها، فحينما أتأخر في العودة إلى البيت إعلّل لريحانة أنني كنت مع أحد المندوبين، وفي بعض المرات تلاحقني الرسائل الهاتفية التي تربكني فتفضح خبيئتي، لم تكن ريحانة ساذجة حتى تنطلي عليها حيلي الغبية ومسوّغاتي الواهية فكانت تسألني وهي تقلّب أفكارها:

ـ لست على ما يرام.

تبدو مضطرباً هذه الأيام!

كنت أقلق من أن تُخدش حياتي مع ريحانة، فالأخرى لا

أكنّ لها في قلبي إلا العطف والشفقة، فهي لا تملك سحر ريحانة وفخامتها، إنها امرأة مسحوقة اكتفت بظلي وارتضت أن تعيش على الفتات صابرة، بل وتجتهد كي تسترضيني وتمتص غضبي حينما تبلغ طاقة نفوري منها الذروة فأنهرها وأغضب لأنفس عن تبرّمي منها.

وبالرغم من احترازي وتحفُّظي وقعت ريحانة على دليل إدانتي، وذلك حينما أخذت دشداشتي المعلّقة على المشجب لتغسلها هذا الصباح، ومن عادتها أن تفتّش في جيوبي قبل أن تسقطها في الغسالة فربما نسيت ورقة مهمة، عملة معدنية، مفاتيح، وإذا بها تعثر على قصاصة منسيّة تركتها (سمية) في جيبي كتبت فيها حاجتها من السلع والأغذية كي أشتريها من السوق المركزي وأنا في طريقي إليها.

وسمعت وأنا في حجرتي دبيب أقدام ريحانة على السلم، وبشكل غريزي التفتُّ إلى الباب الذي دُفع بقوة:

- ما هذه الورقة يا عز؟!

فحيحها يكهرب أعصابي ويقدح شرر حرب لا هوادة فيها.

وتختصر الطريق:

- هذه الورقة لا تخصُّني، فأنا لم أطلب شراء هذه الأشياء.

تجمَّدت الدماء في عروقي، فقلت بصوت مخنوق:

ـ ربما الخادمة!

ينقلب صوت ريحانة الناعم إلى رشاش شظية تشطرني شطرين:

ـ منذ فترة وأنا ألاحظ قلقك، لم تعد أريحياً كما كنت.

استجمعت قواي فاعترفت لها بالحقيقة، وأتذكّر أن تلك اللحظة بدت كابوساً لم أفق منه حتى الآن، فقد غربلتها نوبة غضب بركانية فحذفتني بكل ما تطاله يداها منفضة السجائر، الأنتيكات المرصوصة على المناضد، الكتب المصفوفة في المكتبة، وقذائف السبّ والشتم تنهال فوق رأسي بينما أنكفئ كالفأر الجبان هارباً من عينيها اللائمتين اللتين لفظتا كل سنين الحب والحنان دفعة واحدة.

اتصلت بشقيقتها لتأخذها إلى المشفى كي تحقن بمهدّئ، وقفت خلف الباب أتفحّصها مهموماً فالصدمة تركتها أشلاء، كم كنت أحمق حينما ظننت أن ردود فعلها طارئة، مؤقتة، ولم أكن أتوقّع أن زواجاً صورياً سيحطّم حياتي بمنتهى القسوة، فلو خمنت أن النتيجة ستكون بهذا الشكل لما أقدمت على هذه الخطوة.

نفرت من سمية وكرهت صاحبي أبا حسين وانزلقت في تفكير سلبي أخذني إلى قاع جهنم، حاولت استرضاء ريحانة بكل ما أملك من جهد وطاقة لكنها بترت كل خيوط الوصال، فهي تصرُّ على أن

فعلتي خيانة وأنا أبرر موقفي شرعاً فحبّي وقلبي لها وحدها بينما سمية لا تمتلك إلا الصورة والوهم، وطالبتني بالطلاق ولا تدري أنها تطعنني بألف خنجر وألف سكين.

- أحبك يا ريحانة، لا تقتليني بحقّ الله.

وقضيت معها ساعات عصيبة وأياماً مريرة لا تُنسى، فكلما تشاجرنا تكتنفها نوبة عصبية تفقدها الوعي، وتضاعفت هذه النوبات وكثر تردُّدها على مشفى الطب النفسي.

استبد الوحش الكاسر بها فغرست مخالبها في قلبي فأدمته ونهشت بأنيابها فؤادي فجرحته وأنا أتجرع الغصص مستسلماً لعلها تفق من جنونها الأعمى حتى أرغمتني على ضربها يوماً حينما صرّحت برغبتها في الطلاق كي تتزوج من رجل آخر، استفزّت غيرتي، أشعلت نيران غضبي، فانهالت كفي على خدها صفعاً وأنا أرتعد حنقاً، تحجّر قلبها فغدا كالصخر قسوة وصلابة، أعمتها الغيرة وشوّهت كل معالم روحها الجميلة، لكني لم أبرأ من داء حبها الجارف أبداً، أرغب فيها، أشتعل شوقاً لوصالها وهي في صد وعصيان، تلفظ في وجهي حمم غيظها حقدها بلسان سليط لاذع جفت نداوته، أبكي مقهوراً وأستجديها محزوناً.

- ريحانتي، حبيبتي، سأطلّق سمية من أجل أن يهنأ خاطرك العزيز.

تتمادى في غيّها وضلالها فتُعدم كل محاولاتي وترميها في الهواء شططا.

- اقطع رجاءك فيَّ وانسف الأمل فما عدت أطيقك بعد هذه الفعلة الدنيئة أو أثق بك بعد اليوم.

يغلي الدم في عروقي فأثاورها مفترساً طالباً حقي كزوج، تبصق في وجهي بكل صلافة، وترد:

- لو قطعتني إرباً إرباً، فلن أعود لك أبداً.

لا يخيفها الضرب ولا يرعبها التهديد، طردت كل الوسائط، ورفضت كل الحلول، ونسيت واجباتها كزوجة، أصمت أذنيها عن النصيحة واستسلمت لعنادها الأحمق وكبريائها الزائف.

تنهرني بغلظة:

- لن يضمنا بيتٌ واحد بعد اليوم.

أخضع لها منهاراً:

- ماذا تريدين؟ ماذا أفعل كي أكفّر عن ذنبي؟ كيف أرضيكِ حبيبتي؟

في إعراض ونفور ترد:

- لا أريد إلا الانفصال.

أهملتها سنة كاملة لعلها تندم وتتراجع لكني وجدت نيران

حقدها تصطلي وإصرارها على الطلاق أشدّ وأنكى.

ولي أمل أنها قد تثب إلى رشدها يوماً وتعود لي كما خِلتها في سالف الزمن، نوّارة عمري، قنديل ليلي، بَيدَ أن أحلامي ذهبت أدراج الرياح.

وقد تركت سمية لأرضي ريحانة، لأستردّها غزالة ترمح في فيحاء حياتي بجمالها الأخاذ، بدلالها الساحر، إلا أنها هربت من يدي وحلّقت بعيداً، بعيداً عن مداري، لبثتُ أنتظرها على قلق، وأترقّبها بلهفة لكنها خلعتني بقسوة وجفاء، فمكثت بعد غيابها أبكي على الأطلال!



درب الهاوية

همسة: خطأُ لحظةً.. أورثَ حزنَ حياةٍ كاملةٍ (مثل صيني)

النظّارة السوداء التي طَلَتِ المرئيات والكائنات حولها بلون قاتم تركت روحها خَرِبة منسية، موغلة في الوحشة والكآبة، فالضياع النفسي يحفر داخلها قبوراً لجثامين آمالها وأحلامها الأنثوية التي غالباً ما تداعب كل امرأة ذات زوج وولد.

العصفورة المغردة تتهافت حولها بخفة ومرح، لكنها تشرخ براءتها البِكر بلطمة:

ـ كفّي عن إزعاجي يا (وسن).

تقترب منها وتلفُّ ذراعيها الطريتين حول عنقها وفي نغم ملائكي تغرّد:

ـ أحبك ماما، أحبك.... ثم تنثر على وجنتيها القبلات.

تهشُّها بوجه عكر:

ـ أف.. ابعدي عني، فلست في مزاج طيب الآن.

زوجها (عبدالواحد) يكدح ليل نهار كي تلبس الأساور الذهبية

وأقراط الماس كاختيار أول لمسببات سعادتها كما برهنت سنينُ العشرة، يبذل طاقته كي يبدّد عن وجهها العبوس والانقباض.

- أظنك في حاجة إلى ترفيه، دعينا نتنزه على شاطئ البحر ونأكل السمك المشوي، فالطقس رائع اليوم.

- سئمت الشاطئ وقرفت من كل شيء.

تشدُّ وسن ثوبها في استجداء:

- أخرجي معنا يا ماما.

نفضت يد الطفلة وهي تدخل حجرتها متبرمة:

- اتركوني لوحدي.

يشتكي عبدالواحد هَمّه إلى أمها:

- حاولت أن أسعدها قدر استطاعتي وألبّي طلباتها، ولا أعرف كيف أعالج تعاستها المزمنة.

انزعجت الأم وتذكرت ماضي ابنتها وطفولتها المعقدة، فهي صعبة وعنيدة بشكل متطرف، فاقترحت:

- خذها إلى طبيب نفسي، فربما تعاني من خلل هرموني سبّب لها اكتئاباً.

- لا أعتقد أنها تتقبّل.

وحاولت أن تهدّئ من روعي:

ـ لا عليك سأقنعها بنفسي.

ـ أرجو ذلك يا عمة.

وفي وحدتها السقيمة تقضي (وداد) وقتاً ضائعاً في التحليق المجرّد من أي هدف والنخر في السطوح الساكنة لإثارة مواجعها الدفينة بتحريض ذهني مستمر، تتمدَّد على سريرها وتشاهد برامج التلفاز بفكر مشوش، وتقرأ الوجوه الجميلة الغارقة في الضحك والمغرغرة بسعادة لم تذق رحيقها بعدُ (كم هنّ سعيدات! محظوظات بالجمال والثراء والحب، ليتني أمتلك جزءً من هذه الأساطير)!

أطلت في المرآة وأجفلت (أخطاء كثيرة في وجهي تحتاج إلى ترميم).

يدخل الحجرة عبد الواحد ابتسامته تستجدي رضاها:

ـ تفضّلي معنا على العشاء.

في تبرُّم:

ـ لست جائعة.

ـ على الأقل شاركينا المائدة.

نهرته بغلظة:

ـ قلت لك لا رغبة لي في العشاء.

صفع الباب محوقلاً:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

وفي لقائها العاصف بأمها استبدَّ بها غضبٌ أَشِرٍ:

- هل تظنيني مجنونة لأراجع طبيباً نفسياً؟

علّلت الأم:

- ربما هناك خلل في جسمك.

قاطعتها معنفة:

- نعم، خللٌ في جسمي ووجهي وشكلي القبيح.

- أعوذ بالله من غضب الله، لا تجحدي النعمة، وإلا سخط الله عليكِ.

وانبرت تتذمر:

- ماما أرجوكِ كفي عن مواعظك الثقيلة.

وتلين أمها:

- اكشفي عمّا بداخلك يا بنتي لعلي أستطع مساعدتك.

تأفّفت:

- أشعر أن لا شيء في هذه الحياة يسعدني.

ولِمَ يا بنتي؟! ما الذي ينقصك؟ لك زوجٌ محبٌّ وابنة آية في الجمال وحياة مريحة مستقرة.

تنهدت:

- كل شيء، كل شيء ينقصني!

- مثل ماذا؟

- مللت جمود زوجي، رتابة حياتي، حتى شكلي قرفت منه!

- وما في شكلكِ يا وداد فلقد كنتِ وما زلتِ أجمل شقيقاتك على الإطلاق.

رمقتها بطرف عينها ساخرة:

- النسخة المكررة عنكِ.

ابتلعت أمها الغصة:

- جرحتِني في الصميم، لكني أحبُّ أن أوضّح لكِ أمراً لعلك تستوعبينه، فأنا لم أعترض على خلقتي أبداً، عشت في تناغم مع ذاتي، فالمشكلة فيكِ أنتِ.

ثم وثبت من مقعدها:

- أعوذ بالله من نكرانك النعم، لم أكن أعرف أنكِ بهذه الغلظة والفظاظة.

- واجهي الحقيقة يا أمي، فجمالنا تقليديٌّ يفتقد الروح والحياة، بينما الآخريات يخلبن الألباب.. وهنّ مَن لهنّ الحظوة في الحياة.

صاحت الأم وهي تردُّ الباب غاضبة:

ـ أفيقي من هذه الغفلة، وإلا عاقبك الله بأشدّ أنواع العذاب.

سخرت وداد بدم بارد:

ـ مسكينة أمي، قد خدرتها أفكار الدين الرجعية.

وقررت وداد إجراء عملية تجميل لإصلاح عيوب وجهها فصارحت زوجها بحاجتها إلى المال.

ـ أخشى عليكِ من هذه المخاطرة.

ـ وأنا مستعدّة لها لأحرّك مياه حياتي الراكدة!

ـ أقسم بالله إن وجهك جميلٌ جذابٌ فلِمَ تغامرين؟

استنكرت إعراضه:

ـ إن تذرّعت بهذه الحجج كي لا تعطيني المال فلا بأس، سأقترض من البنك.

لا.. بل أخشى عليكِ من عواقبها السلبية.

ـ ألا تريدني أن أكون سعيدة!

ـ إنها أمنيتي بالتأكيد.

رضخ عبد الواحد على مضض وجمع لها مبلغاً من المال وانتظر على قلق وترقّب، وصممت وداد على خوض التجربة حتى لو كان الثمن حياتها، فهي ميتة على أية حال ولا ضير إن بادرت ببعض التغييرات لإيقاظ الجثة!

اعترض الجراح:

ـ وجهك في غاية التناسق والإبداع.

علّلت:

ـ إنه أشبه بوجه عجوز منكوبة.

وصدمها ردُّه:

ـ هذا يعني أن المشكلة في روحك، في داخلك المعتم، ربما تعانين من مشاكل نفسية لأني لا أرى أمامي إلا طلّة أخاذة.

ـ أرجوك يا دكتور لا تجاملني، فأنا مصممة على قراري ولن أتراجع أبداً، أريد أن تصيغ ملامحي صياغة جديدة وترسم تقاطيعي بشكل أكثر جاذبية، وعلى الأخص أنفي المزعج الذي أضاف سنيناً إلى عمري الحقيقي.

وحاول الجرّاح أن يقطع عليها الطريق لربما تتراجع:

ـ ولكنها عملية مكلّفة.

ـ لا تفكّر بالثمن.. سأكافئك ربما أكثر ممّا تتوقّع لو نحتّني بأجمل قالب.

واستسلم الجراح لرغبتها وأطلق العَنان لأصابعه الماهرة لتتفنن في النحت والرسم وبذل كل ما في وسعه كي يستخرج في النهاية صورةً مثاليةً في مقاييس الجمال العالمية، وقد انتظرت وداد

أشهراً طويلة وهي في حالة من القلق والاضطراب وقاومت المرآة لئلا تصدمها الأورام والكدمات الطافحة على الوجه، حتى كانت المفاجأة الرهيبة، مخلوقة رائعة الجمال، النموذج الذي تمنته في خيالها، تجدَّد كلُّ شيء فيها، روحها المكتئبة، نفسها المعطوبة، إنها تقفز كالغزالة فرحاً ومرحاً، وانقلبت من النقيض إلى النقيض، من المرأة الساكنة المنكفئة إلى أخرى متمرّدة عنيفة.. وأقبلت على الحياة بنهم وجنون فكانت لا تهجع ولا تستقرّ في البيت، ثار زوجها وحاول أن يثنيها عن الخروج غير المنطقي والسهر خارج البيت وهي متبرجة، وظنت أنها فوق مستوى أحلامه فهي الآن أكثر فتنة وإثارة، ونأت بنفسها عن طفلتها كعبء يعيق جولاتها وصولاتها المسعورة، بَيدَ أن الصغيرة بادرت إلى احتواء المسافات بوازع من حاجة فطرية:

- أنا مشغولة الآن.

يغضب عبد الواحد:

- خذيها لتتنزه، ما عدتِ تكترثين لها.

- لأنها تتململ عندما أتأخر في مشاغلي!

وتتشبث وسن بأمها كلما استعدت للخروج وتأخذها مضطرة..

في مطعم البيتزا المطل على الشارع تترك وداد صغيرتها مع الخادمة:

- (سالي) أنا ذاهبة إلى الصالون فاعتني بوسن ريثما أعود.

تنسحب وداد في حذر ناحية العمارة المقابلة لمطعم البيتزا ويأخذها المصعد حتى عشّ الخطيئة، بانتظارها أحد الثعالب المتربّصة بنعاج ساذجة وتنغمس في وحل الرغبات الآثمة لتوقظ حواسّها الخابية، وتغيب معه في لجّة ولع محرَّم ثم تفيق على فراغ ينهش أعصابها المحطّمة ومطارق الضمير تهوى فوق رأسها.

تعود إلى ابنتها مترنحة بذنوبها قد تخبطت في دروب الشيطان الوعرة حتى أدركتها تخمة بلدت إحساسها وضميرها الآثم.

- مللت الانتظار ماما.

تذمّرت:

- إذاً لا ترافقيني ثانية.

وفي كل مرة تقرّر الطفلة أن تعدل عن الخروج مع أمها بَيدَ أنها تتراجع، فقد ساورها قلقٌ من فقدان أمها، تفتك بها وحدة مريرة موغلة في الحيرة والقلق.. تشتكي الخادمة عنادها.. عدوانيتها.. إضرابها عن الطعام.. تحطيمها الأطباق.. الهيجان المفرط الذي استعصى على الخادمة تسكينه.

جذبتها إلى الأرجوحة لتلعب بَيدَ أنها بكت معترضة:

- أريد ماما.

تضجّرت الخادمة:

ـ أمك في الصالون ستعود بعد قليل.

وتابعت بعينيها الطريق الذي تسلكه أمها وهي في طريقها إلى العمارة فهربت إلى الشارع لتعبر حتى الرصيف الآخر والخادمة تحاول أن تلحق بها:

ـ وسن، وسن.

لكن الارتطام أنهى عذاب الطفلة.. الجثّة ممزّقة تحت عجلات سيارة "جيب"، قد فرمل السائق ليتدارك الطفلة لكن القدر سبقه، نثار الدماغ البريء يفترش الشارع المكتظ، الضجة استحوذت على المكان المنكوب.. هربت الخادمة وأقبل المارة من أطراف الشارع والحوانيت والدكاكين وشُلّت حركة السير، عمّت الفوضى وساد الارتباك.. الشرطة والإسعاف يحتويان المشهد الكارثي بشقّ الأنفس، وفي سياق الحدث المشؤوم تتنهد الأم مع صرخة الطفلة، اللذّة المدفوعة الثمن ستقتلها كل يوم ألف مرة فترديها حطاماً.

انقبض قلبها حينما انقشعت غمامة السكرة وبحلقت في السقف مشدوهة تخاطب صاحبها في ذعر:

ـ ألم تسمع الصرخة في الشارع؟

ـ أجل، يبدو أنه حادث سير.

وفي ارتباك مسبوق بحدس أمومي قد استيقظ بحذر، ارتدت

ثيابها ونزلت إلى الشارع والتقط رادارها الغريزي جثة صغيرة مغطاة، لمحت طرف ثوبها الأصفر.. هجمت تحشد كل طاقتها ناحية الحادث، دفعت الجمع باقتحام هيستيري، ومكثت تبحلق، واهنة الجنان، مسلوبة الوعي.

ـ ابتعدوا.. ابتعدوا.. إنها ابنتي.

حسرت الغطاء عن الجثة، فدوت صرخة زلزلت الشارع فحولت الموقف إلى مأتم، انكبّت على ابنتها تضمها، تشمها، تتخضب بدمها المسفوك على وجهها الغض.

وسن.. وسن حبيبتي ردّي عليّ.. أنا أمك.

لكن رجل الإسعاف انتزعها من أحضان الأم:

ـ آسف سيدتي إنها ميتة.

جُنّت وداد وأُدخلت المصحّة النفسية..

وبعد أشهر عادت إلى أمها تجرُّ أذيال الخيبة والخسران، مطلقة، مريضة، منكوبة، أرض جرداء قد دمّرتها صاعقة السماء فكانت هشيماً تذروه رياح الجحود والنكران..

لفظت أمها جمراتٍ من كبد محرور:

لقد حذّرتكِ مراراً..

وهذا جزاء من أصرّ واستكبر...

ذكريات

همسة: الذكرياتُ هيَ المَخبَأُ الذّي يُمكنُك اللّجوءُ إليه كلّما ضِقتَ ذَرعاً بالحَاضرِ.

أدفع الفنجان معترضةً:

- لا أرغب في القهوة أمي.

تحفُّني نظراتها الملهوفة بدفءٍ أحتاجه في مشواري الآن:

- اشربيها لتنفضي الإرهاق عن وجهك يا (هدى)

- لا شهيّة لي، فقد جفَّ حلقي وما عدت أشعر بأيِّ مذاق في حياتي.

وفي مهاودة أفهم مغزاها:

- تريّثي يا بنتي، فقرار الخلع يجرّدك من حقوقك كاملة.

أمسح الدمعة الفارّة من عيني وأنا أتنهّد:

- أسقمني بشكوكه وغيرته حتى اختنقت.

تشبّثت أمي بأطراف الأمل، فلربما تستشرف تداعياتِ قراري بعينٍ خبيرة:

ـ تمهلي بعض الأيام كي تحسمي أمرك بعد أن تقلبي الماضي والحاضر فلربما وقفتِ على محطات إيجابية كفيلة برأب الصدع، فظني بـ (يوسف) أنه متيم بك وما تمادى في غيرته إلا بوازع من حب شديد يعتمل داخله.

لكنني هربت من سياط عينيها اللّاسعتين كي لا تجلداني تقريعاً وتأنيباً، فما طويته لا تستوعبه أمي ولم أشأ الخوض معها في التفاصيل الخاصة.

قدت سيارتي على عجل لألحق بموعد المحكمة، فاليوم أحدّد مصيري بعد فترة عصيبة من مناوشاتي مع يوسف في أروقة المحاكم، فقد رفض أن يطلقني عنداً ومكابرة ومارس كل الضغوط كي أرفع الراية البيضاء، لكن قرار الانفصال اختمر داخلي كمخرج من حصار المضايقات القانونية.

أف.. الطريق مزدحم، أخشى أن يفوتني موعد الجلسة، لا أدري لـمَ توقف السير فجأة؟ يبدو أن حادث تصادم شلّ حراك الشارع.

أستطلع بفضول حولي وإذا بالناس ضَجِرة تلتمس المنفذ من هذا الطريق الخانق، مركبة الشرطة تشقُّ الشارع المكتظّ وهمهمات الناس المتحفّزة للانطلاق تؤكّد حدسي، أتململ وأنا أتابع سير

العربات ببطء شديد، فالانتظار ثقيل، أدفع أصابعي نحو مذياع السيارة فلربما تستوعب الأصوات الأثيرية ضجري، أتفقد المحطات دون خيار محدد فمزاجي المضطرب يشتت انتباهي ورغبتي الحالية في صوت يهدهد غضبي ويبدد مللي، خطفتني موسيقى (مونامور) إلى عالم علوي في جذبة سحرية قلبت كياني فأعادت توازني، اللحن المنمق ينساب من بعيد كسفينة تائهة في بحرٍ هائج تلقي بمرساتها على الشاطئ لتستريح، فنغمها الحزين يأخذني إلى أجمل أيام حياتي تستحضرها الخائلة الآن بشوق كامن.

أيام صبانا، الترقب اللذيذ، لهفة اللقاء، لظى الشوق في العيون المسهَّدة، أحلامنا البكر، الهمس الخجول على الهاتف، رعشة القلب الغض، رجفة الأوصال، ذكريات تخفق في صدري وكأنها حاضرة بكل عنفوان، كان يأتيني بسيارته "التيوتا" المهترئة التي استأجرها فور أن عقدنا قراننا لنهرب بحبنا ونحلّق فوق السحاب على أنغام (مونامور) وننسى أرضنا والزمن ونهمس في نشوة (ماذا لو قضينا العمر كنجمتين مضيئتين في السماء) رحلنا في ذلك الزمن إلى كوكب أحلامنا البكر، وذبنا معاً في ذات أحادية تنبض من قلب واحد، فحُبّنا نهر زلال تدفق من نبع سماوي فاغتسلت في مجراه عيوبنا، ذنوبنا، أخطاؤنا، كنت أستنطق في عينيه شوقاً عفوياً يهطل كغمامة ممطرة ولا يتغذى بدوافع حسيّة كباقي العشّاق، فقد روى

كياني القاحل فاهتز قلبي وربت داخلي أغصانُ حبّ أثمرت زهراً تضوّعت بأريجه أيام حياتي.

(مونامور) ذكّرتني بقصيدة مجنونة لنزار قباني كانت عربون صلح بعد فترة خصام مُرّة، علّل أنه متيم بي وعليّ أن أحتمل ضريبة حبه العاصف.

(لم تبتسمين لابن خالتك؟) وظننته يمزح أو يتصنع غيرة تضرم حبنا في أوقات ركوده، ربما التبس عليه الأمر، فلست ممن يرضخ لتوصيات ساذجة من أحد حتى لو كان زوجي، وقتها كنت أتناقض بين ردة فعلي الغاضبة وغبطتي بغيرة جامحة تفسر ولعة المحموم فهضمت نوباته كفيضان رجولة يحاصرني بهيمنة فطرية، المشاحنات العاطفية صهرتنا في كيان واحد فما إن ينشطر حتى يعود ليلتحم ثانية، لعل طراوة مشاعري ورقة إحساسي في ذلك الوقت سمحت لغيرته العنيفة أن تنزلق إلى السطح وتذوب مع ابتسامتي العذبة ونظرتي الحانية، حبه المتوتّر كان يجعلني في قلق دائم، فربما ثوبي لم يعجبه لأنه فسّر مفاتني، أو فقدت السيطرة على نفسي فضحكت في الشارع العام، أي تصرف عفوي قد يفسّره بشكل سلبي، هذا المخلوق المدهش يحطمني في هيجانه العاصف ويمزّقني أشلاءً، بل كان يشلّ كل مقاومتي في الرد عليه أو التعليل لموقفي فأضطر إلى طمأنته بوعود تطبطب على ظهر الوحش

المعربد داخله كي يهدأ، فينزع قناعه المرعب ويهبّ من سطوة الغيرة محموماً بشوق فياض ينسيني أنني قبل لحظات كنت مقتولة الكرامة، ملغية الشخصية، أهضم انقلابه المفاجئ وأتجاهل تناقضه المعقّد فأغوص وإياه بعد الهدنة في قاع الحب مستهامة على إيقاع (مونامور) فيترطّب مزاجي الحاد حينما تنساب بطلاوة بين خلايا أعصابي المتشنجة فترتخي وأفسح لكائنات الشوق الخامدة داخلي أن تلبي نداءه الأرعن لَهِفةً.

وقضينا سنيناً في كرٍّ وفر، مد وجزر، حتى أنهكتني المشاحنات واستنزفت طاقتي وهو يحلف بأغلظ الأيمان أنها أفاعيل حب، لكني لم أعد أستقبل فوضوية مشاعره وجنونه المتدثر بمعطف الحب، الأمر شاقٌّ على امرأة نضجت عاطفياً وأدركت أن الحب يتغذى بإحساس الأمان فقد وهبني حباً يتنفس في حذر ويتجدد بعد كل خصام بصعقة كهربائية قاتلة، ولست مستعدة أن أعيش حالة طوارئ..

اقتربت من مبنى المحكمة، دخلت البوابة بخطىً متراخية، شيء يضطرب داخلي أفقدني الحماس لكني أقهرت نفسي على المضيِّ في هذا القرار لأحسم أمري، ومشيت مرتبكة في الرواق المفضي إلى القاعة وفي طريقي صادفته، ارتجفت، اصفرّ وجهي، استحوذت عليَّ رغبةٌ في ملاطفته بحديث عابر، يبدو جذاباً في

قامته المشوقة وسمته المهيب، استوقدت شرارتي جذوة شوقه فأغواني لأبادر:

ـ كيف حالك؟

رجفة احتوت المسافة وشحذت ميله:

ـ طمئنيني، هل أنتِ بخير؟

الدغدغة تحرض المكامن وتوقظ الإحساس، أزدرد ريقي الجاف وأدفع الكلمات إلى لساني بمشقة:

ـ بخير.

اقتربت منه بحركة لا إرادية فمست أصابعي أطرافه، اتخذت وضعاً مفهوماً بغريزته كزوج، فشملني بنظرة احتوائية غذت حرماني الطويل وفسرت ما عجز منطوقه.

انتبهنا إلى تطفل الناس حولنا.

ـ مازلت زوجك!

في إطراقة خجل:

ـ أنا في حيرة من أمري.

ضغط على كفي فسرى تياره إلى أوصالي فانتفضت وطفحت حممي المكبوتة على السطح، شعرت أني مازلت أحبه وأريده ملء روحي رغم جنونه وعيوبه، فهو ساكن في قلبي متجذر في دمي.

شدني من ذراعي:

ـ فلنعد إلى بيتنا ونطوي هذه الصفحة وننسى الخصام.

ترددت بعض الشيء، هل هي بقايا كبرياء زائف، أم الخوف من المجهول.

ـ دعني أفكّر مرة أخرى، أخشى....

قاطعني وهو يربت بأصابعه على خدي:

ـ لا تغالطي نفسك، فمرارة اللوعة تفور في عينيك الذابلتين.

وحاولت أن أداري:

ـ ربما إحساس طارئ.

التصقتُ به كالمنوَّمة مغناطيسياً وجلست إلى جنبه في السيارة و (مونامور) تنساب في أعماقي كنهر عذب يغسل أخطاء الماضي ويطهّر قلبينا من شوائب الخصام، وقطعنا الطريق في استرجاع الذكريات حتى اقتربنا من بيتنا.

ركن السيارة في مرآب البيت ثم توقّف أمامي وهو يدعوني في حفاوة:

ـ تفضّلي يا مليكتي فالعرش بانتظارك!

الفهرس

إهداء.................................. ٥
مقدّمـــة.............................. ٧
أنـا بانتظـــارك...................... ٩
مـدام بوتـكس........................ ٢٠
أُمّ العـروس.......................... ٣٤
الوسـواس الخنـاس.................. ٤٨
الرجل الثعلب........................ ٥٨
حـبٌّ إلكترونـي...................... ٧٠
سـلوة حيـاتي........................ ٨٣
كان إسمها جولي..................... ٩١
بـنـت الجيـران...................... ٩٩
زوجـة صـديقـي...................... ١١١
حـوريـة الجنـة...................... ١٢٣
القـبيـحـة............................ ١٣٦
الشوق والصبر المرّ................. ١٤٥
قطّة مغمّضة.......................... ١٥٦

أيام الخطوبة ١٦٤
شلّة الأنس ١٧٦
جرح النمرة ١٨٦
حنين وحرمان ١٩٦
فاعل خير ٢١٦
دموع العروس ٢٢٥
رحيق الأيام ٢٣٣
محاكمة القبر ٢٤٢
حالةُ حبّ ٢٥٢
أطلال امرأة ٢٦٢
أسرار نجمة ٢٧٢
حجاب السكرتيرة! ٢٨٨
قصتي مع شانتي ٢٩٨
سيّدة الموقف ٣٠٦
رائحة البيتزا ٣١٥
ظنَّها نزوة ٣٢٢
قضية شرف ٣٣٢
الوردة الصخريّة ٣٣٨
درب الهاوية ٣٤٨
ذكريات ٣٥٩
الفهرس ٣٦٧